مواقف وكلمات صنعت علماء



تأليف

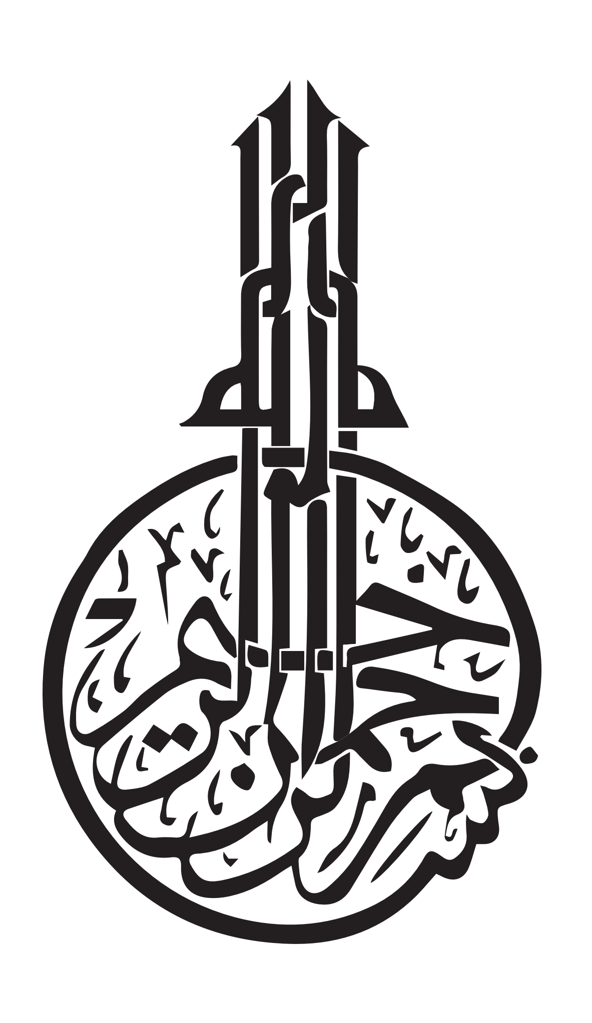
أبي إسحاق محمود بن أحمد الزويد



دار الكتاب العالمي

الطبعة الأولى

1445هـ - 2023م



الفهرس العام

العنوان	الصفحة
إضاءة.	١
المقدمة.	٢
بوح من القلب.	٦
معالم بين يدي الكتاب.	٨
مواقفهم وقصصهم.	٤٦
النبوغ أسبابه ومعوقاته.	١٣٨
مقالات نافعة.	٢٣٨

الفهرس التفصيلي

معالم بين يدي الكتاب.	٨
المعلم الأول: قيمة الكلمة في الإسلام.	٨
المعلم الثاني: التحذير من الكلام الذي لا فائدة فيه.	٩
المعلم الثالث: العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك.	١٥
المعلم الرابع: سمت العالم وخشيته وأثره في نبوغ الطالب وتأدبه.	٢٢
المعلم الخامس: أين شباب الأمة من حفظ العلم وحضور مجالس أهله.	٢٥
المعلم السادس: النبوغ والعلم رزق.	٢٨
المعلم السابع: الفقر لا يمنع من النبوغ وتحصيل العلم، وفيه:	٣١
ربيعة بن عبد الرحمن شيخ الإمام مالك (ت ١٣٦هـ).	٣٤
الإمام أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢هـ).	٣٥
الإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ).	٣٦
الإمام إبراهيم بن إسحاق الحربي (ت ٢٣٥هـ).	٣٦
المقرئ أبو الحرام مكي الماكسيني (ت ٦٠٣هـ).	٣٧
شيخ الإسلام كريا الأنصاري (ت ٩٢٦هـ).	٣٧

العلامَة جمال الدّين مُحَمَّد طَاهِر الملقب بملك المحدثين الهنديّ (ت ٩٨٦هـ)،	٣٨
المعلم الثامن: الهمة طريق يوصل إلى النبوغ والمعرفة.	٣٩
مواقفهم وقصصهم:	٤٦
عبد الله بن عمر.	٤٧
زاذان أبو عمر الكندي.	٤٨
عبد العزيز بن مروان.	٥٠
التابعي الجليل سعيد بن جبير.	٥١
عكرمة مولى عبد الله بن عباس.	٥٣
زاهد البصرة وعالمها حبيب بن مُحَمَّد العجمي (ت ١١٩هـ).	٥٤
الإمام ربيعة بن عبد الرحمن ربيعة الرأي (ت ١٣٦هـ).	٥٥
الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطى (ت ١٥٠هـ).	٥٥
شعبة بن الحجاج الواسطي (ت ١٦٠هـ).	٥٧
قاضي مكة الأوقص محمد بن عبد الرحمن بن هشام (ت ١٦٩هـ).	٥٧
عمرو بن عثمان الحارثي المعروف بـ(سيبويه) (ت ١٨٠هـ).	٥٩
القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري (ت ١٨٢هـ).	٥٩

أبو معاوية السلمي الواسطي هُشَيْمُ بنُ بشير (ت ١٨٣هـ).	٦٣
الأستاذ الإمام شيخ الإسلام، الفضيل بن عياض (ت ١٨٧هـ).	٣٤
الإمام محمد بن حسن الشيباني (ت ١٨٩هـ).	٦٦
شيخ القراءة والعربية، أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله الكسائي (ت ١٨٩هـ).	٦٧
المنذرَ بنَ عبد الله (ت ١٩٧هـ).	٧٠
عبد الله بن وهب بن مسلم المصري (ت ١٩٧هـ).	٧١
الإمام سفيان بن عيينة (ت ١٩٨هـ).	٧٢
حسين بن علي الجعفي (ت ٢٠٤هـ).	٧٣
فقيه الأمة، وناصر السنة محمد بن إدريس الشافعي المطلبي (ت ٢٠٤هـ).	٧٤
الإمام العلامة أسد بن الفرات أبو عبد الله الحراني ثمَّ المغربي (ت ٢١٣هـ).	٧٦
أبو زيد النحوي سعيد بن أوس بن ثابت الخزرجي الأنصاري (ت ٢١٥هـ).	٧٧
أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك الأصمعي (ت ٢١٦هـ).	٧٨
الإمام عبد الله بن مسلمة بن قعنب الحارثي المشهور بـ (القعنبي) (ت ٢٢١هـ).	٨٤
إبراهيم بن المهدي العباسي (ت ٢٢٤هـ).	٨٥
الفقيه المحدّث القاسم بن سلّام أبو عبيد اللغوي (ت ٢٢٤هـ).	٨٦

إسحاق بن إسماعيل بن حماد (ت ٢٣٠هـ).	٨٧
الإمام يحيى بن يحيى الليثي (ت ٢٣٤هـ).	٨٩
الإمام إبراهيم بن خالد بن اليمان أبو ثور الكلبي (ت ٢٤٠هـ).	٨٩
الإمام الرباني أحمد حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ).	٩٠
أبو السري واصل العابد الحمّي (ت ٢٥٢هـ).	٩١
الإمام البخاري محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي (ت ٢٥٦هـ).	٩٢
شيخ الإِسلام، وحافظ نَيسابور، أبو عبد الله، محمدُ بنُ يحيى بن عبد الله الذهلي (ت ٢٥٨هـ).	٩٤
ناصر مذهب الشافعي إبراهيم بن إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل المزني (ت ٢٦٤هـ).	٩٥
سيد الحفاظ عبيد الله بن عبد الكريم أبو زرعة الرازي (ت ٢٦٤هـ).	٩٥
محمد بن عوف أبو جعفر الطائي الحمصي (ت ٢٧٣هـ).	٩٦
الإمام الصالح سهل بن عبد الله التستري (ت ٢٧٣ أو ٢٨٣هـ).	٩٧
الحافظُ الحجة أحمدُ بنُ سَلَمَة (ت ٢٨٠هـ).	٩٨
الإمام الحافظ العلامة أبو إسحاق إبراهيم الحربي (ت ٢٨٥هـ).	٩٩
الإمام عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٩٠هـ).	١٠١

الشيخ الحافظ الصادق محدث الكوفة أبو جعفر محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي الملقب مُطيَّن (ت ٢٩٧هـ)	١٠٢
نحوي زمانه، الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري الزجّاج (ت ٣١١هـ).	١٠٣
الإمام الطحاوي أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك الأزدي (ت ٣٢١هـ).	١٠٤
الإمام محمد بن العباس الفربري (ت ٣٢٣هـ).	١٠٤
محمد بن عبد الواحد البغدادي المعروف بـ (غلام ثعلب) (ت ٣٤٥هـ).	١٠٥
الحافظ الحسين بن علي أبو علي النيسابوري (ت ٣٤٩هـ).	١٠٦
قوام الدين أبو علي الحسن بن علي الطوسي الملقب بـ(نظام الملك) (ت ٤٨٥هـ).	١٠٧
أبو الفتيان عمر بن أبي الحسن عبد الكريم بن سعدويه الدهستاني الرواسي (ت ٥٠٣هـ).	١٠٨
المازري المالكي أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر بن محمد (ت ٥٣٦هـ).	١١٠
العلامة أبو حامد الغزالي محمد بن محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ).	١١١
محمد بن طاهر بن علي، أبو الفضل ابن القيسراني (ت ٥٠٧هـ).	١١٢
المقْرئ أبو الغَنَائم النَّرسِي. محمدُ بنُ علي بن ميمون، الكُوفي (ت ٥١٠هـ).	١١٣
إمام العربية المحقق عبد الله بن السّيد البطليوسي، وقيل عبد الله بن محمد بن السّيد النحوي (ت ٥٢١هـ).	١١٤

الحافظ الجليل محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن فرج بن الجد الفهري (ت ٥٨٦هـ).	١١٦
الإمام المسنِد حنبل بن عبد الله بن فرج بن سعادة (ت ٦٠٤هـ).	١١٦
الإمام عبد الله بن أبي الحسن بن أبي الفرج أبو محمد الجبائي الطرابلسي الشامي (ت ٦٠٥ هـ).	١١٧
الحافظ الضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي (ت ٦٤٣هـ).	١١٨
الشيخ الزاهد الورع العلامة يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ).	١١٩
شيخ الإسلام أحمد بن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ).	١٢١
القاضي جمال الدين عبد القاهر بن محمد بن عبد الواحد التبريزي ثمَّ الحراني ثم الدِّمشقي (ت ٧٤٠هـ).	١٢٢
الحافظ الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ).	١٢٤
الأديب المؤرخ صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت ٧٦٤هـ).	١٢٥
الحافظ علاء علي بن إبراهيم بن مصطفى الماريديني ابن التركماني الحنفي (ت ٧٥٠هـ).	١٢٥
العلامة محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت٧٥١ هـ).	١٢٦
شمس الدين ابن الصائغ محمد بن عبد الرحمن الحنفي (ت ٧٧٦هـ).	١٢٧
الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ).	١٢٧

إبراهيم بن أحمد بن حسن بن أحمد بن محمد بن أحمد برهان الدين العجلوني ثم المقدسي الشافعي (ت ٨٨٥هـ)	١٢٨
الشيخ الفقيه زكريا الأنصاري الشافعي (ت ٩٢٦هـ).	١٢٨
العلامة محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ).	١٢٩
تاج العلماء المختار بن بون الجكني (ت ١٢٣٠هـ).	١٣٠
الشاعرة الأديبة عائِشَة التَّيْمُورِيَّة (ت ١٣٢٠هـ).	١٣١
شيخ الشام سليم العطار (ت ١٣٠٧هـ).	١٣٢
العالم الفاضل عثمان مردم الدمشقي (ت ١٣٠٤هـ).	١٣٣
الأستاذ المحقق واللغوي المدقق زكي مبارك (ت١٣٧١هـ).	١٣٣
قصة حصلت مع العلامة الشمني (ت ٨٧٢هـ).	١٣٤
فقيه الأدباء وأديب الفقهاء الشيخ علي الطنطاوي (ت ١٤٢٠هـ).	١٣٥
النبوغ أسبابه ومعوقاته ومن نبغ من العلماء في وقت متأخر:	١٣٨
النبوغ ومعوقاته.	١٣٩
تعريف النابغة أو العبقري.	١٣٩
مهيئات النبوغ.	١٣٩
كيف نصعد بأبنائنا في مراقي النبوغ؟	١٤٢

عوائق النبوغ:	١٤٤
١-ترك السؤال والاستفسار عن العلم وتحصيل المعرفة بالطريقة الصحيحة.	١٤٤
٢-إيثار الراحة.	١٤٥
٣-ترك السماع من أهل العلم الثقات العدول.	١٤٧
آلات العلم، وأقسام الشيوخ.	١٤٨
نماذج من حرص الأساتذة على نبوغ الطالب.	١٤٩
شعبة بن الحجاج.	١٤٩
عروة بن الزبير.	١٥٠
الأعمش.	١٥٠
الحافظ ابن حجر العسقلاني.	١٥٠
الحافظ السخاوي.	١٥١
الحافظ عبد الرحيم بن حسين العراقي.	١٥٢
٣- عدم اغتنام الوقت ومعرفة قيمته.	١٥٤
٤- التصدر قبل التأهل.	١٥٨
٥- التكبر وترك السماع.	١٦٠

٦- صحبة البطالين والمجتمع المعارض للنهوض والنبوغ.	١٦٢
أهمية الرفقة في النبوغ.	١٦٣
قصة أبو بكر الأبهري.	١٦٣
السخاوي يحكي عن الحافظ ابن حجر.	١٦٣
ابن جماعة ورفقة العلم.	١٦٤
الحافظ أبو طاهر السلفي.	١٦٤
ابن عقيل الحنبلي.	١٦٥
شيوخ السمعاني.	١٦٥
الشوكاني.	١٦٦
أمثلة بذكر حرص الآباء على إسماع أبنائهم العلم، وأنَّ ذلك من أسباب نبوغهم:	١٦٤
أبو داود السجستاني.	١٦٤
يحيى بن أكثم بن محمد.	١٦٥
الحداد أبو علي الحسن بن أحمد بن الحسن.	١٦٥
ابن بونه عبد الحق بن عبد الملك بن بونه العبدري.	١٦٥
الشيخ الفاضل، المسند، ربيب الدين، أبو البركات داود بن أحمد بن محمد بن منصور بن ثابت بن ملاعب البغدادي.	١٦٥

٧-الكلام المؤذي الجارح.	١٦٧
٨- ترغيبهم بفعل الخير والعادات الحسنة.	١٦٩
٩- من خلال التسمية.	١٧٠
١٠- التطبيق العلمي.	١٧٠
[فصل: في ذكر بعض صور من نبغ من العلماء]، وفيه:	١٧٦
من رفعه العلم:	١٧٦
١-شيخ الإسلام عثمان الدرامي.	١٧٦
٢-الشافعي.	١٧٦
٣-الأعمش.	١٧٧
٤-سفيان بن عيينة.	١٧٧
٥-لقمان الحكيم.	١٧٨
٦-الشعبي.	١٧٨
٧-عطاء بن أبي رباح.	١٨٠
٨-أبو القاسم أحمد بن بيطير القرطبي.	١٨١
٩-النهشلي المغربي.	١٨١

١٠-الحافظ الحسين بن أحمد بن محمد بن طلحة بن محمد بن عثمان النعالي.	١٨١
١١-الفقيه الشافعي النحوي اللغوي الموفق المطجن.	١٨٢
[من نبغ من العلماء في سن متأخر]	١٨٢
١-أبو هريرة رضي الله عنه.	١٨٢
٢-النابغة قيس وقيل: عبد الله بن عدي بن عدس.	١٨٣
٣-صالح بن كيسان.	١٨٤
٤-صاحب المغازي أبو معشر نجيح بن عبد الرحمن.	١٨٤
٥- الإمام الخليل بن أحمد الفراهيدي.	١٨٤
٦-العالم علي بن الأحمر.	١٨٥
٧- عيسى بن موسى غنجار أبو أحمد البخاري.	١٨٦
٨-الإمام الشافعي.	١٨٦
٩-الطبيب النحوي حنين بن إسحاق.	١٨٧
١٠-شاعر عصره أبو تمام حبيب بن أوس بن الحارث الطائي.	١٨٨
١١-عبد الملك بن قطن أبو الوليد المهري القيرواني النحوي اللغوي.	١٨٩
١٢-أبو صالح أيوب بن سليمان.	١٩٠

١٣-العالم الزاهد يحيى بن مجاهد الفزاري الإلبيري.	١٩٠
١٤-أبو بكر القفال الشافعي.	١٩١
١٥-العلامة يحيى النحوي.	١٩١
١٦-أبو النضر أحمد بن محمد بن الحسن الفقيه الطائفي.	١٩٢
١٧-علي بن محمد بن ينال أبو الحسن العكبري.	١٩٣
١٨-أبو الحسن بشرى بن مسيس الرومي الفاتني، مولى الأمير فاتن مولى المطيع لله.	١٩٣
١٩-الطبيب جرجس بن يوحنا اليبرودي.	١٩٣
٢٠- الحافظ محمد بن علي بن محمد بن رحيم الصوري.	١٩٤
٢١-الفقيه الشافعي سليم بن أيوب الرازي.	١٩٤
٢٢-طاهر بن أحمد بن بابشاذ أبو الحسن النحوي المصري.	١٩٥
٢٣- الطبيب علي بن رضوان المصري.	١٩٦
٢٤-العلامة المتبحر محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي.	١٩٦
٢٥- الفقيه أبو محمد الحلواني.	١٩٧
٢٦- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني	١٩٨

٢٧-أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن عاصم الجويني	١٩٨
٢٨-الطبيب هبة الله بن علي بن ملكا أوحد الزمان	١٩٩
٢٩-شيخ الشافعية أبو طالب الكرخي المبارك بن المبارك بن المبارك.	٢٠٠
٣٠-إبراهيم بن منصور بن مسلم أبو إسحاق العراقي.	٢٠٠
٣١-العلامة أبو الفرج بن الجوزي البغدادي.	٢٠١
٣٢-الرحالة المؤرخ ياقوت شهاب الدين الرومي مولى عسكر الحموي.	٢٠١
٣٣-الإمام المحدث شيخ المحدثين يوسف بن خليل بن قراجا عبد الله، أبو الحجاج الدمشقي.	٦٤٨
٣٤-سلطان العلماء وبائع العلماء العز بن عبد السلام.	٢٠٤
٣٥-محمد بن محمد بن عيسى ابن نحام بن نجدة بن معتوق الشيباني النصيبي.	٢٠٥
٣٦- الشيخ أحمد بن إبراهيم بن الحسن القنائي.	٢٠٥
٣٧- الشيخ أحمد بن عبد القادر القيسي الحنفي النحوي.	٢٠٦
٣٨-أحمد بن عبد الله بن بدر بن مفرح العامري الغزي ثمَّ الدمشقي الشافعي	٢٠٦
٣٩-زين الدّين خالد بن عبد الله بن أبي بكر المصري الأزهري الوقّاد به النحوي	٢٠٦
[النوابغ الصغار]	٢٠٨

١-عبد الله بن عباس.	٢١١
٢-الإمام الحسن البصري.	٢١٤
٣-معمر بن راشد.	٢١٥
٤-إمام دار الهجرة مالك بن أنس.	٢١٥
٥-عبد الله بن المبارك.	٢١٨
٦-مكي بن إبراهيم.	٢١٨
٧-أحمد بن يحي الشيباني.	٢١٩
٨-الأوزاعي.	٢١٩
٩-سفيان بن عيينة.	٢٢٠
١٠-الإمام الشافعي.	٢٢٢
١١-الإمام البخاري.	٢٢٢
١٢-الإمام أبو حاتم الرازي.	٢٢٤
١٣- الإمام أبو زرعة الدمشقي.	٢٢٤
١٤-ابن حيويه الشافعي.	٢٢٥
١٥- عبد الله بن محمد بن محمد بن اللبان	٢٢٥

١٦-تاج الدين الكندي.	٢٢٦
١٧- ابن الجميزي علي بن هبة الله بن سلامة اللخمي شيخ الديار المصريَّة.	٢٢٦
١٨- محمد بن عُمَر بن عليّ الأموي.	٢٢٦
١٩- محمد بن محمد بن إبراهيم العدني الشافعي.	٢٢٧
[تتمة مفيدة]:	٢٢٨
٢٠- أحمد بن الفرات.	٢٢٩
٢١- أبو نصر القاضي يوسف بن عمر الأزدي.	٢٢٩
٢٢- الإمام ابن أبي زيد القيرواني.	٢٢٩
٢٣- أبو عبد الله الحاكم النيسابوري.	٢٢٩
٢٤- أبو حامد الإسفراييني أحمد بن محمد بن أحمد بن حبان.	٢٢٩
٢٥- عبد الله بن سعيد ابن الشَّقَّاق المالكي.	٢٣٠
٢٦- الحسين بن عبد الله ابن سينا.	٢٣٠
٢٧- الإمام أبو عثمان الصابون.	٢٣٠
٢٨- إمام الحرمين أبو المعالي الجويني عبد الملك بن عبد الله.	٢٣١
٢٩- العلامة المحدث أحمد بن محمد أبو طاهر السِّلفي.	٢٣١

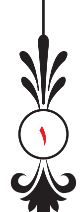
٣٠- أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي البغدادي الحنبلي.	٢٣١
٣١- محدث العراق محمد بن محمود بن الحسن محب الدين ابن النجار البغدادي.	٢٣٢
٣٢- المجد ابن تيمية عبد السلام بن عبد الله أبو البركات ابن تيمية الحراني الحنبلي.	٢٣٢
٣٢- يوسف بن قِزْ أُغلي بن عبد الله أبو المظفر، سبط ابن الجوزي الحنبلي ثم الحنفي.	٢٣٣
٣٣- محمد بن علي بن عبد الواحد أبو المعالي الزَّمْلكاني الشافعي.	٢٣٣
٣٤- محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الغرناطي، أبو حيان، الأندلسي الجياني.	٢٣٣
٣٥- عُمر بن علي بن أحمد بن محمد الأندلسي، سراج الدين، أبو حفص، ابن الملقن.	٢٣٤
٣٦- عمر بن رسلان بن نصير بن صالح بن شهاب، سراج الدين البُلقيني الشافعي.	٢٣٤
٣٧- ولي الدين العراقي أحمد بن عبد الرحيم العراقي الشافعي.	٢٣٤
٣٨- محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف الجزري الشافعي.	٢٣٤
٣٩-محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن يوسف العِينتابي العيني الحنفي.	٢٣٥
٤٠- محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن النجم ابن جماعة المقدسي الشافعي.	٢٣٥
٤١- يوسف بن حسن بن أحمد بن جمال ابن المبْرَد الصالحي الحنبلي.	٢٣٥

٤٢- عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين أبي بكر السيوطي.	٢٣٥
٤٣- محمد بن علي بن محمد الشوكاني.	٢٣٦
٤٤- محمود بن عبد الله الحسيني شهاب الدين أبو الثناء الألوسي البغدادي.	٢٣٦
٤٥- عبد الحي بن محمد بن عبد الحليم بن أمين الله السهالوي أبو الحسنات اللكنوي.	٢٣٦
٤٦- جمال الدين بن محمد القاسمي الحسني الدمشقي.	٢٣٦
٤٧- حافظ بن أحمد بن علي الحكمي.	٢٣٦
مقالات نافعة.	٢٣٨
(مقال التشجيع)	٢٣٩
١- محمد أمين (ابن عابدين).	٢٤٠
٢- العلّامة محمد بن كرد علي.	٢٤٠
٣- العلامة الشيخ سليم البخاري.	٢٤١
٤-معاناة الشيخ الطنطاوي.	٢٤٢
٥-الشيخ أنور العطار ونبوغه في الشعر.	٢٤٣
-أول من سنَّ التشجيع في سوريا.	٢٤٣
٦-الشيخ محمد إسماعيل الحائك.	٢٤٤

٧-الشيخ علي كزبر.	٢٤٨
(المشايخ الحسدة):	٢٥٠
-تحذير الإمام أحمد من الحسد.	٢٥٠
-حسد أهل واسط.	٢٥٠
-حسد يحيى بن أكثم.	٢٥٠
-كلام لابن حزم.	٢٥٠
-كلام لابن الجوزي.	٢٥٠
(شباب العباقرة):	٢٥٥

إضاءة

قال لقمان الحكيم لابنه: «يا بنيَّ، لا تطلب العلم لتباهي به العلماء، وتماري به السفهاء، ولا ترائي به في المجالس، ولا تدع العلم زهادة فيه ورغبة في الجهالة، فإذا رأيت قوماً يذكرون الله فاجلس معهم؛ فإنْ تك عالماً ينفعك علمك، وإنْ تك جاهلًا يعلموك، ولعلَّ الله أن يطلع عليهم برحمة فيصيبك بها معهم، وإذا رأيت قومًا لا يذكرون الله فلا تجلس معهم؛ فإنَّك إن تك عالماً لا ينفعك علمك، وإن تك جاهلًا يزيدوك جهلًا؛ ولعلَّ الله أن يطلع عليهم بسخطه فيُصيبك بها معهم»[1].



١- حلية الأولياء (٦/ ٦٢).

المقدمة

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُهُ ونستعينُ بهِ، ونستغفرهُ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدهِ اللهُ فلا مضلِّ له، ومَن يضللْ فلا هادي له، وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسوله ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١-٧٠]

فإنّ أصدق الحديث كلام الله، وأحسن الهدي، هدي محمّدٍ ﷺ، وشر الأمورِ محدثاتها، فإنّ كلَّ محدثةٍ بِدعة، وكلَّ بِدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

وبعد: فالعلم رزق، وهذا الرزق له أسباب ووسائل في تحصيله، ومن تلك

الأسباب: (**الكلمة الطيبة، والمواقف المشجعة، والدعاء الصالح**)؛ وغالبًا لا تصدر إلا عن شيخ حريص على تنشئِة جيل صالح يحمل هذا العلم بأمانة، ويؤديه لمستحقه بأمانة.

وهذه مواقف جمعتها لتكون معينة لطلاب العلم، رافعة لهممهم، مذكِّرةً لهم بالصبر والثبات على ثغر العلم، وأن يجدِّوا ويجتهدوا، وينفعوا إخوانهم والمسلمين جميعًا.

وفيها تذكير لأهل العلم في انتقاء كلماتهم، وتحسين أسلوبهم في إرشاد الطلبة، وتشجعيهم لما فيه خير وفائدة.

وإذا كانت «المؤلفات تتفاضل بالزهر والثمر لا بالهذر، وبالملح لا بالكبر، وبجُموم اللطائف لا بتكثير الصحائف، وبفخامة الأسرار لا بضخامة الأسفار»[1]. ففي هذا الكتاب من العظات والعبر ما يتحصل لقارئه من النفع والفائدة المرجوة بإذن الله وللقارئ المغنم، وعليَّ المغرم، والله يرزقنا البصيرة والإنصاف، والستر والصفح عن سيءِ الأوصاف، وأن يتم علينا نعمة العلم النافع، والعمل الصالح، والفهم الصحيح، إنَّه برٌّ لطيف.

فإن تحصل للقارئ ما يرجوه فذلك من منَّة الله وتوفيقه، وإن لم يجد ذلك

١- وقد سبق هذا الكتاب: كتاب لذة العلم والسماع عند المحدثين والعلماء، واحترام العلماء وتوقيرهم (أهل الحديث أنموذجًا)، وإبهاج الطالبين بقطوف من ألقاب المحدثين، وصور من جهاد العلماء، وهذا الكتاب تتمة للكتب السابقة فيما يتعلق بالعلم وأهله، والله الموفق المعين.

فحسب الكريم أن يعذر من بذل وسعه، لا سيَّما وقد كتبه صاحبه وهو بعيد عن الأهل والديار، وقديمًا قال إبراهيم الصولي: «المتصفح للكتاب أبصر بمواقع الخلل فيه من منشئه»[1].

وقد جعلت الكتاب على أربعة أبواب:

- **الباب الأول:** معالم بين يدي الكتاب.
- **الباب الثاني:** مواقفهم وقصصهم.
- **الباب الثالث:** الحديث عن النبوغ، وأسبابه، ومعوقاته، ومن نبغ من العلماء في وقت متأخر، والنوابغ الصغار.
- **الباب الرابع:** مقالات نافعة ملحقة بالكتاب[2].

وسميته: **(مواقفُ وكلمات صنعت علماء)** وهؤلاء العلماء «هم رأس مالي، وإلى علمهم مآلي، وبهم فخري وجمالي»[3]، و«هم ضالتي في كلّ بلدةٍ، وهم بُغيتي، ووجدت صلاحَ قلبي في مُجالسة العلماءِ»[4].

والله أسأل أن يَرزقنا القبولَ، وأن يَجعل ما كتبته يَخرج من القلب فيَقع في القلب، وأن يُزهرَ ويُثمرَ ويُؤتي أُكلَه ونَفعَه، وقد قال زياد بن أبي سفيان:

١- مقدمة الأعلام للزركلي (١/٢٢).

٢- **(تنبيه)**: ليعلم القارئ أنّني ربما أذكر قصة أو ترجمة فيها فائدة وهي بكل الأحوال قريبة من موضوع الكتاب، ويرجى أن يتحصل بها للقارئ الكريم الفائدة والعبرة.

٣- الفقيه والمتفقه (٢/١٤٠)، قاله الخطيب البغدادي رحمه الله.

٤- حلية الأولياء (٤/٨٥) قاله ميمون بن مهران رحمه الله.

«إذا خرج الكَلامُ من القلبِ وقعَ في القلبِ، وإذا خرجَ من اللِّسان لم يجاوز الآذان»[1].

وقال أبو بكر بن أبي داود: سمعت أبي يقول: «خير الكلام ما دخل الأذن بغير إذن»[2].

اللهَ أَسأَلُ أَنْ يُطَوِّلَ مُدَّتِي ... لأَنَالَ بِالإِنعَامِ مَا فِي نِيَّتِي

لِي هِمَّةٌ فِي العِلْمِ مَا إِنْ مِثْلُهَا ... وَهِيَ الَّتِي جَنَتِ النُّحُوْلَ هِيَ الَّتِي

خُلِقَتْ مِنَ العلْقِ العَظِيْمِ إِلَى المنَى ... دُعِيَتْ إِلَى نَيْلِ الكَمَالِ فَلبَّتِ[3]

وكتبه الفقير لعفو ربه القدير

أبو إسحاق محمود بن أحمد الزويد الجزري.

لـ ٣ من شهر ذي الحجة، عام ١٤٤٤ هـ.

١- أوردهما ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٢٥٥) (١٢٥٦) (١/٧٠٠).

٢- سير أعلام النبلاء (١٣/٢١٧).

٣- ذيل طبقات الحنابلة (٢/٥٠٧)، والأبيات من «السير» (٢١/٣٧٨- ٣٧٩) والشعر لأبي الفرج ابن الجوزي رحمه الله.

بوحِ من القلب

أيُّها الأخ المكرم: الكلمةُ غالية، ومهرها ثمين، والكلمة عظيمة وضريبتها كبيرة؛ قد تبني وقد تهدم، وهي تساوي عمرك في بعض الأحيان.

- إنَّ شرف الكلمة بشرف الكلام المتكلم به، وشرف الكلامِ بفحواه ومبناه، وبصيغة الخطاب، ونية المخاطب.

- وشرفُ الكلمة أنَّها سلاح الأذكياء، وعقل الأدباء، وسبيل الرسل والأنبياء في الدعوة الحق، وتوحيد الخالق.

- وشرف الكلمة أنَّها إحدى طرق الإنكار، والوسيلة المجدية لذوي العقول في الإقناع.

- وشرف الكلمة أنَّها ترفع أقوامًا[1] وتضع آخرين، وتبني جيلاً وتهدم

١- كما قال ابن رشيق في «العمدة في محاسن الشعر» (١/٣٢-٣٣): فمنْ رفعه ما قيل فيه من الشعر بعد الخمول المحلق، وذلك أنَّ الأعشى قدم مكة وتسامع الناس به، وكانت للمحلق امرأة عاقلة وقيل: بل أم فقالت له: إنَّ الأعشى قدم، وهو رجلٌ مفوه، مجدود في الشعر ما مدح أحداً إلا رفعه، ولا هجا أحداً إلا وضعه؛ وأنت رجل كما علمت فقير خامل الذكر ذو بنات، وعندنا لقحة نعيش بها فلو سبقت الناس إليه فدعوته إلى الضيافة، ونحرت له، واحتلت لك فيما تشتري به شراباً يتعاطاه؛ لرجوت لك حسن العاقبة. فسبق إليه المحلق، فأنزله ونحر له، ووجد المرأة قد خبزت خبزًا، وأخرجت نحياً فيه سمن، وجاءت بوطب لبن، فلمَّا أكل الأعشى وأصحابه، وكان في عصابة قيسية، وقدم إليه الشراب واشتوى له من كبد الناقة، وأطعمه من أطايبها، فلمَّا جرى فيه الشراب، وأخذت منه الكأس سأله عن حاله وعياله فعرف البؤس في كلامه، وذكر البنات، فقال الأعشى: كفيت أمرهنَّ، وأصبح بعكاظ ينشد قصيدته التي مطلعها:

أرقت وما هذا السهاد المؤرق ... وما بي من سقم وما بي معشق

آخر[1] .

❑ وشرف الكلمة أنَّ العباد مؤاخذون على كلامهم لما للكلام من تأثير ووقع في النُّفوس والعقول.

وللكلمات مقامات، ووقائع، وعبر وفوائد، وليس لي إلا أن أضع بين يديك هذا الكتاب المختصر لتعيش مع هذاه الموقف والكلمات.

فما أتم القصيدة إلا والناس ينسلون إلى المحلق يهنئونه، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه جرياً يخطبون بناته؛ لمكان شعر الأعشى، فلم تمس منهن واحدة إلا في عصمة رجل أفضل من أبيها ألف ضعف..

١- كما ستراه بإذن الله في الحديث عن المعلم الثاني.

المعلم الأول: قيمة الكلمة في الإسلام

عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من دلَّ على خيرٍ فله مثلُ أجرِ فاعِلِهِ»[١].

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «ما تصدَّق رجلٌ بصدقةٍ أحبُ من موعظةٍ يعظُ بها قوماً، فيتفرَّقون وقد نفع الله بها بعضهم»[٢].

وقال هشام بن عروة، عن أبيه: «مكتوبٌ في الحكمة، بنيَّ، لتكن كلمتُك طيبة، وليكن وجهُك بسيطًا، تكن أحبَّ إلى النَّاس ممَّن يعطيهم العطاء»[٣].

وقال زبيد اليامي رحمه الله: «سمعتُ كلمةً، فنفعني الله بها ثلاثينَ سنة»[٤].

وعن أبي أسامة قال: «جزى الله خيراً من أعان الإسلام بشطرِ كلمة»[٥].

وعن الأعمش، عن خيثمة، قال: سمعته يقول: «أخ لك كلما لقيك ذكرك بحظك من الله، خير لك من أخ كلما لقيك وضع في كفك دينارا»[٦].

١- رواه مسلم في «صحيحه» (١٨٩٣)، وأبو عوانة في «مستخرجه» (٧٣٩٩) و(٧٤٠١)، و(٧٤٠٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٤٢).
٢- العلم والحلم لإياس بن معاوية (ص١٢٣).
٣- الزهد لأحمد بن حنبل (٢٧٤).
٤- السير للذهبي (٥/٢٩٧).
٥- الإبانة لابن بطة (١/٣٨) ط: دار الحديث.
٦- فوائد أبي يعلى الخليلي (ص٤٥)، وهو بنحوه في كتاب «الإخوان» لابن أبي الدنيا (٨٥)

المعلم الثاني: التحذير من الكلام الذي لا فائدة فيه

وبعض الكلمات كاللَّكمات والضربات تضر ولا تنفع، وتصيب بمقتل من وقعت عليه، ومن تكلم بها. وعلى العاقل أن يكون بصيرًا بزمانه، مقبلًا على شأنه، حافظًا للسانه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال جلا جلاله: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

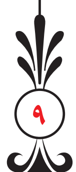
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[١].

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه، قال: «ما تكلمتُ بكلمةٍ منذ أسلمتُ إلا وأنا أخطمها وأزمها»[٢].

وقال الحسن بن سهل وزير المأمون لبنيه: «يا بني، تعلموا النُّطق؛ فإنَّ فضل الإنسان على سائر البهائم به، وكلَّما كنتم به أحذق كنتم أحق بالإنسانية»[٣].

من كلام بلال بن سعد.

١- صحيح البخاري (٥٦٧٢)، وصحيح مسلم (٧٤).
٢- الزهد لابن أبي عاصم (ص٢٨).
٣-الوافي بالوفيات (١٢/٢٦).



وقال ابن الجوزي: «وربَّ كلمةٍ جرى بها اللسانُ هلكَ بها الإنسان»[١].

وقال الزمخشري المعتزلي: «ربَّ صدقةٍ من بين فكَّيك، خيرٌ من صدقةٍ من بطْنِ كفّيك»[٢].

وقيل: «جرحُ اللسانِ كجرحِ اليد». وقيل: «اللسانُ كلبٌ عقور، إن خُلِّي عنه عقر»[٣].

وقيل: «ربَّ راغبٍ عن كلمة غيره متهالك عليها، وزاهدٍ عن نكتة غيره مشغوف بها»[٤].

وإذا لم يكن في الكلام نية وفائدة فالصمت أولى بصاحبه، كما قال بشر الحافي: «إذا أعجبك الكلام فاصمت، وإذا أعجبك الصمت فتكلم»[٥].

وقال عطاء بن أبي رباح: «إنَّ من قبلكم كانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك التي لا بد لك منها، أتنكرون أنَّ عليكم حافظين، كرامًا

١- صيد الخاطر (ص١٤٢).
٢- النعم السوابغ (ص ١٣٩) ط: دار اللباب. و(الفك): اللَّحيُ.
٣- غذاء الألباب للسفاريني (١/٧٢).
٤- معجم البلدان (١/١٤).
٥- الوافي بالوفيات (١٠/٩١)، ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/٢٨١)، عن سفيان بن عيينة بنحوه.

كاتبين، عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظُ من قولٍ إلا لديه رقيبٌ عتيد؟ أمَا يستحي أحدكم لو نشرت صحيفته التي أملى صدر نهاره، وليس فيها شيء من أمر آخرته؟»[١].

✍**والكلام أنواع بحسب المخاطب به**، كما قال الشافعي: «الموعظة للعوَام، والنصيحة للإخوان، والتذكرة للخواص منهم، فَرْضٌ افترضه الله على عقلاء المؤمنين، ولولا ذاك لبطلت السنَّة، وتعطّلت الفرائض»[٢].

✍**وله أدب**، كما قال أبو القاسم القشيري: والسكوت في وقته صفة الرجال كما أنَّ النطقَ في موضعِهِ من أشرفِ الخصال سمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: «من سكت عن الحق فهو شيطان أخرس»[٣].

وقال الشاعر:

أوصيكَ في نظمِ الكلام بخمسةٍ ... إنْ كنتُ للموصي الشفيق مُطيعاً

لا تُغفلنَّ سببَ الكلامِ ووقته ... والكيفَ والكمَّ والمكانَ جميعاً

والعرب في جاهليتها كانت تعاقب الشاعر الهجاء بشد لسانه بنسعة

١- السير (٥/٨٦).

٢- مناقب الشافعي للبيهقي (١/١٤٨).

٣- الرسالة القشيرية (١/٢٤٥)، وليس لهذا الحديث أصل صحيح ولا ضعيف عن النبي ﷺ، ولا موقوف على أحد من الصحابة، أو التابعين، ومتقدمي السلف رضي الله عنهم، والمصدر الوحيد الذي وُجِد فيه هذا الكلام، هو «الرسالة القشيرية». انظر: «تبييض الصحيفة بأصول الأحاديث الضعيفة» (٢/٧١).

-سير من جلد مفتول- أو يشترون منه لسانه بأن يفعلوا به خيراً؛ فينطلق لسانه بشكرهم، فكأنَّما ربط لسانه بنسعة.

قال عبد يغوث بن الحارث لما أسرته تيمٌ يوم الكلاب الثاني:[1]

أقولُ وَقَد شدَّوا لِساني بِنسعَةٍ　　　أَمَعشرَ تيمٍ أطلقِوا لِسَانيا

وقد أقرَّت الشريعة هذه العقوبة بالمعنى الثاني، منذ أن أمر بها النبي ﷺ في غزوة حنين، يوم توزيع الغنائم فقال: ﷺ «اقطعوا عني لسانه».

وهذه سنَّة الله ماضية في مواجهة من يمس الأخوة الإسلامية بسوء من القول، ولهذا أنفذها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في (الحطيئة) جرول بن أوس العبسي المتوفي سنة (٤٥ هـ). لما أكثر من هجاء الزبرقان بن بدر التميمي رضي الله عنه فشكاه إلى عمر رضي الله عنه فسجنه عمر بالمدينة، فاستعطفه بأبياته المشهورة، فأخرجه، ونهاه عن هجاء الناس، فقال: «إذاً تموت عيالي جوعاً».

فاشترى عمر رضي الله عنه منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم[2]. فأوقع عمر

١- عقوبات العرب على المعاصي للآلوسي.

٢- وصدق الحافظ الذهبي إذ قال في كتابه «زغل العلم» (ص٤٧)، في حديثه عن الشعر والشعراء «وبيت ماله الكذب والإسراف في المدح والهجو، والتشبيه والنعوت والحماسة، وأملحه أكذبه».

وقال: «ويندر على الشعراء المجودين من يتصون من الهجو، وربَّما أدى الأمر بالشاعر إلى التجاوز إلى الكفر، نسأل الله العفو، والشاعر المحسن كحسان، والمقتصد كابن المبارك، والظالم كالمتنبي، والسفيه الفاجر كابن الحجاج، والكافر كذوي الإتحاد، فاختر لنفسك أي واد

رضي الله عنه بالحطيئة عقوبتين: حبس الأبدان، وحبس اللسان[1]. أهـ.

قلت: وقرر البيهقي في كتابه «الآدب» حكماً مناسباً لمن يطعن بالناس فقال: «باب ما يعطيه الإنسان من ماله صيانة لعرضه»[2].

وقال ابن عبد ربه: «واعلم أنَّ تقية الشعراء من حفظ الأعراض التي أمر الله تعالى بحفظها»[3].

تسلك».

١- تصنيف الناس بين الظن واليقين (ص٤٧-٤٨) ط: دار العاصمة.

٢- (ص٥٢) وما بعد.

٣- العقد الفريد (١٥٦/٦)، قلت وفي «العمدة في محاسن الشعر» لابن رشيق القيروان (٣٣/١-٣٥) ط: التوفيقية، قال: ممَّن وضعه ما قيل فيه من الشعر حتى انكسر نسبه، وسقط عن رتبته، وعيب بفضيلته (**بنو نمير**)، وكانوا جمرة من جمرات العرب، إذا سئل أحدهم: ممَّن الرجل؟ فخم لفظه ومد صوته وقال: (من بني نمير)، إلى أن صنع جرير قصيدته التي هجا بها عبيد بن حصين الراعي، فسهر لها، وطالت ليلته إلى أن قال:

فغضَ الطرفَ إنَّك مِن نمير ... فلا كعباً بلغت ولا كلابا

فأطفأ سراجه ونام، وقال: قد والله أخزيتهم آخر الدهر، فلم يرفعوا رأساً بعدها إلا نكس بهذا البيت، حتى إنَّ مولى لباهلة، كان يرد سوق البصرة ممتاراً فيصيح به بنو نمير: يا جواذب باهلة، فقص الخبر على مواليه، وقد ضجر من ذلك، فقالوا له: إذا نبذوك فقل لهم:

فغضَ الطرفَ إنَّك مِن نمير ... فلا كعباً بلغت ولا كلابا

ومر بهم بعد ذلك فنبذوه، وأراد البيت فنسيه، فقال: غمض وإلا جاءك ما تكره، فكفوا عنه ولم يعرضوا له بعدها.

ومرت امرأة ببعض مجالس بني نمير فأداموا النظر إليها، فقالت: قبحكم الله يا بني نمير! ما قبلتم قول الله عز وجل: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ ولا قول الشاعر:

فغضَ الطرفَ إنَّك مِن نمير ... فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وهذه القصيدة تسميها العرب الفاضحة، وقيل: سماها جرير الدماغة، تركت بني نمير ينتسبون بالبصرة إلى عامر بن صعصعة، ويتجاوزون أباهم نميراً إلى أبيه، هرباً من ذكر نمير، وفراراً مما

وسم به من الفضيحة والوصمة.

والربيع بن زياد، كان من ندماء النعمان بن المنذر، وكان فحاشاً عياباً بذياً سباباً لا يسلم منه أحد

ممن يفد على النعمان، فرمي بلبيد وهو غلام مراهق فنافسه وقد وضع الطعام بين يدي النعمان، وتقدم الربيع وحده ليأكل معه على عادته، فقام لبيد فقال مرتجلاً:

يا رب هيجا هي خير من دعة نحن بني أم البنين الأربعة

ونحن خير عامر بن صعصعه المطعمون الجفنة المدعدعه

والضاربون الهام تحت الخيضعه مهلاً أبيت اللعن لا تأكل معه

فقال النعمان: ولمه؟

فقال: إن استه من برص ملمعه

فقال النعمان: وما علينا من ذلك؟

فقال:

إنَّه يولجُ فيها إصبعه يولجها حتى يواري أشجعه

كأنَّما يطلب شيئاً أودعه

فرفع النعمان يده عن الطعام، وقال: ما تقول يا ربيع؟ فقال: أبيت اللعن كذب الغلام، فقال لبيد: مره فليجب، فقال النعمان: أجبه يا ربيع، فقال: والله لما تسومني أنت من الخسف أشدُ عليَّ مما عضهني به الغلام، فحجبه بعد ذلك، وسقطت منزلته، وأراد الاعتذار، فقال النعمان:

قد قيلَ ما قيل إنْ حقاً وإن كذبًا فما اعتذارك من قول إذا قيلا؟

(وبنو العجلان)، كانوا يفخرون بهذا الاسم لقصة كانت لصاحبه في تعجيل قرى الأضياف، إلى أن هجاهم به النجاشي فضجروا منه، وسبوا به، واستعدوا عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقالوا: يا أمير المؤمنين هجانا، فقال: وما قال؟ فأنشدوه:

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة فعادى بني عجلان رهط ابن مقبل

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إنَّما دعا عليكم ولعله لا يجاب، فقالوا: إنَّه قال:

قبيلةٌ **لا** يغدرونَ بذمةٍ ولا يظلمون النَّاس حبةَ خردل

فقال عمر رضي الله عنه: ليتني من هؤلاء، أو قال: ليت آل الخطاب كذلك، أو كلاماً يشبه هذا،

المعلم الثالث: العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك

قال أبو أحمد نصر بن أحمد العياضي الفقيه السمرقنديّ: «لا يَنال هذا العلم إلا من عطَّل دكانه، وخرَّب بستانه، وهجَر إخوانه، ومات أقرب أهله إليه فلم يشهد جنازته»[(١)].

وقال محمد بن علي الكتاني: «مَنْ طلبَ الرَّاحة بالراحة عُدِمِ الراحة»[(٢)].

بَادِرِ الفُرْصَةَ واحذَرْ فوتها   فبلوغُ العزِّ في نيلِ الفرصْ
واغتنم عُمرَك إبَّانَ الصِّبا   فهو إن زادَ مَعَ الشِّيبِ نقصْ

قالوا: فإنه قال:

ولا يردون الماء إلا عشية   إذا صدر الوراد عن كل منهل

فقال عمر رضي الله عنه: ذلك أقل للسكاك، يعني الزحام، قالوا: فإنه قال:

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم   وتأكل من كعب بن عوف ونهشل

فقال عمر رضي الله عنه: كفى ضياعاً من تأكل الكلاب لحمه، قالوا: فإنَّه قال:

وما سمي العجلان إلا لقولهم   خذ القعب واحلب أيُّها العبد واعجل

فقال عمر رضي الله عنه: كلنا عبد، وخير القوم خادمهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين هجانا، فقال: ما أسمع ذلك، فقالوا: فاسأل حسان بن ثابت، فسأله فقال: ما هجاهم ولكن سلح عليهم. وكان عمر رضي الله عنه أبصر الناس بما قال النجاشي، ولكن أراد أن يدرأ الحد بالشبهات، فلما قال حسان ما قال سجن النجاشي، وقيل: إنَّه حده.

وهذه جملة كافية، ونبذة مقنعة، فيما قصدت إليه من هذا الباب، والله الموفق المعين.

١- الجامع لأخلاق الراوي (٢/١٧٤)، وعنه ابن جماعة في «تذكرة السامع» (ص٨٨).

٢- الزهد الكبير للبيهقي (٨٣).

وابتدر مسعاك واعلم أنَّ من بادر الصيد مع الفجر قنص[1]

وعن عبد الصمد بن معقل، قال: سمعت وهبًا، يقول: «لا يكون البطَّالُ من الحكماء، ولا يرث الزُّناةُ ملكوتَ السماء»[2].

فيَا وَصْلَ الحبيبِ أمَا إليهِ بِغيرِ مَشقَّةٍ أَبدًا طَرِيقُ[3]

وقالوا: «من خدم المحابر، خدمته المنابر»[4].

وقال المسعري محمد بن وهب: قال أبو عبيد بن سلام: «كنت في تصنيف هذا الكتاب أربعين سنة، وربَّما كنت أستفيد الفائدة من أفواه الرجال، فأضعها في موضعها من الكتاب، فأبيت ساهرًا فرحًا مني بتلك الفائدة، وأحدكم يجيئني فيقيم عندي أربعة أشهر أو خمسة أشهر، فيقول: قد أقمت الكثير»[5].

وعن هشام بن عروة، قال: قال عروة بن الزبير: «ربَّ كلمةِ ذلٍّ احتملتُها أورثتني عزًّا طويلاً»[6].

وقال ابن اللباد النحوي الموصلي: «من لم يحتمل ألم التعلم لم يذق لذة

١- شعر محمود سامي باشا البارودي كما في «جواهر الأدب» للهاشمي (٢/٥١٩).
٢- العلم لزهير (١٢٧).
٣- مفتاح دار السعادة (١/٣٠٠).
٤- المستطرف في كل فن مستظرف (١/٤٤).
٥- تاريخ بغداد (١٤/٣٩٢).
٦- حلية الأولياء (٢/١٧٧).

العلم، ومن لم يكدح لم يفلح»[١].

قَطَعُ اللَّيالِيَ معَ الأَيَّامِ فِي خلَقِ ... والنَّومُ تَحتَ رُواقِ الهَمِّ وَالقلَقِ

أَحرَى وَأعذَرُ لِي مِنْ أَن يُقَالَ غَدًا ... إِنِّي التَمَستُ الغِنَى مِنْ كَفِّ مُختَلِقِ

قَالُوا رضِيتَ بِذَا قُلتُ الْقُنُوعُ غِنًى ... لَيسَ الغِنَى كَثرَةُ الأَموَالِ وَالوَرِقِ

رضِيتُ بِاللَّه فِي عُسرِي وفِي يُسرِي ... فَلستُ أَسلُكُ إِلَّا وَاضِحَ الطُّرُقِ[٢]

وذكر بديع الزمان الهمذاني في حديثهِ عن العلم: حدثنا عيسى بن هشام، قال: كنت في بعض مطارح الغربة مجتازًا، فإذا أنا برجلٍ يقول لآخر: بِمَ أدركت العلم؟ وهو يجيبه.

قال: «طلبته فوجدته بعيد المرام، لا يصطاد بالسهام، ولا يقسم بالأزلام، ولا يرى في المنام، ولا يضبط باللجام، ولا يورث عن الأعمام، ولا يستعار من الكرام، فتوسلت إليه بافتراش المدر، واستناد الحجر، ورد الضجر، وركوب الخطر، وإدمان السهر، واصطحاب السفر، وكثرة النظر، وإعمال الفكر، فوجدته شيئًا لا يصلح إلا للغرس، ولا يغرس إلا بالنفس، وصيدًا لا يقع إلا في الندر، ولا ينشب إلا في الصدر، وطائرًا لا يخدعه إلا قنص اللفظ، ولا يعلقه إلا شرك الحفظ، فحملته على الروح، وحبسته

١- سير أعلام النبلاء (٣٢٢/٢٢)، وفي «تاريخ دمشق» (٨٢/٣٧) عن الأصمعي قال: «من لم يتحمل ذلَّ التعلم ساعةً؛ بقي في ذلِّ الجهل أبدًا».

٢- من شعر بشر الحافي كما في «حلية الأولياء» (٣٥٤/٨).

على العين. وأنفقت من العيش، وخزنت في القلب، وحررت بالدرس، واسترحت من النظر إلى التحقيق، ومن التحقيق إلى التعليق، واستعنت في ذلك بالتوفيق، فسمعت من الكلام ما فتق السمع ووصل إلى القلب وتغلغل في الصدر، فقلت: يا فتى، ومن أين مطلع هذه الشمس؟ فجعل يقول:

إِسكندريةُ داري لَو قرَّ فيها قراري

لكِنَّ بالشَّامِ ليلي وبالعرَاقِ نهاري»[١]

وقال الإمام مسلم: حدثنا يحيي بن يحيي التميمي قال: أخبرنا عبد الله بن يحيي بن أبي كثير قال: سمعت أبي يقول: «لا يستطاع العلم براحة الجسم»[٢].

وقال الفضل بن سعيد: «كان رجل يطلب العلم فلا يقدر عليه فعزم على تركه فمرَّ بماءٍ ينحدرُ من رأس جبل على صخرةٍ قد أثَّر الماءُ فيها فقال: الماء على لطافته قد أثَّر في صخرة على كثافتها، والله لأطلبنَّ العلمَ. فطلب فأدرك»[٣].

١- مقامات بديع الزمان «المقامة العلميَّة» (ص٣٠٠- ٣٠٤)، و«زهر الآداب وثمر الألباب» (٧٧٣/٣).

٢- صحيح مسلم مع شرح النووي (٣٣٣/٥)، ت: الشيخ مازن السرساوي.

٣- الجامع لأخلاق الراوي (١٥٤٥).

لأستسهِلنَّ الصعَّبَ أو أُدرِكَ المنُىَ فمَا انقَادتِ الآمـالُ إلَّا لِصَابِرِ

وقال ابن شهاب الزهري: «إنَّ الرجلَ ليطلب وقلبه شعبٌ من الشعاب، ثمَّ لا يلبث أنْ يصير وادياً لا يضع فيه شيء إلا التهمه»[1] يعني بالصبر نال الظفر، وحاز الشرف والأجر.

وقال يونس بن يزيد: قال لي ابن شهاب: «يا أبا يزيد لا تأخذ العلم بالمكابرة؛ ولكن خذه مع الليالي والأيام، فإنَّما العلم أودية، فأيها أخذت قطع بك»[2].

وقال العسكري: وذكر لي عن أبي حاتم أنَّه قال: «ضاقت بي الحال أيام طلبي العلم، فعجزت عن شراءٍ البرز، فكنت أخرج بالليل إلى الدرب الذي أنزله، وأرتفق بسراج الحارس، وكان ربما ينام الحارس، فكنت أنوب عنه».

علَّق أبو هلال: «هذا -وأبيك- الحرص والاجتهاد، لا جرم أنَّه صار أحد أعيان الدنيا المشار إليه في العلم والفضل والبراعة والجاه العريض الباقي على أعقاب الليالي والأيام، ومن طلب وجد»[3].

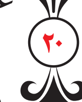
وقال هارون بن موسى بن صالح بن جندل القيسي الأديب النحوي

١- الحث على حفظ العلم، لأبي هلال (ص٣٦).
٢- روضة العقلاء (ص١٤١)، و«الإلماع» للقاضي عياض (ص٢٩١).
٣- الحث على طلب العلم لأبي الهلال العسكري (ص٨٠).

القرطبي: «كنَّا نختلف إلى أبي علي البغدادي رحمه الله وقت إملائه النوادر بجامع الزهراء، ونحن في فصل الربيع؛ فبينما أنا ذات يوم من بعض الطريق؛ إذ أخذتني سحابة فما وصلت إلى مجلسه رحمه الله إلا وقد ابتلت ثيابي كلّها؛ وحوالي أبي علي أعلام أهل قرطبة؛ وأمرني بالدنوّ منه؛ وقال لي: مهلًا يا أبا نصر؛ لا تأسف على ما عرض لك؛ فذا شيء يضمحلّ عنك بسرعةٍ بثياب غيرها تبدّلها.

وقال: قد عرض لي ما أبقى بجسمي ندوبًا يدخل معي القبر؛ ثمَّ قال: أنا كنت أختلف إلى ابن مجاهد رحمه الله؛ فادّلجت إليه لأتقرب منه، فلمَّا انتهيت إلى الدرب الذي كنت أخرج منه إلى مجلسه ألفيته مغلقًا وعسر عليَّ فتحه، فقلت: سبحان الله! أبكّر هذا البكور؛ وأغلب على القرب منه! فنظرت إلى سرب بجنب الدار فاقتحمته؛ فلمَّا توسطته ضاق بي ولم أقدر على الخروج ولا على النهوض، فاقتحمته أشد اقتحام، حتى نفذت بعد أن تخرّقت ثيابي وأثر السرب في لحمي حتى انكشف العظم، ومنّ الله عليَّ بالخروج، فوافيت مجلس الشيخ على هذه الحال؛ فأين أنت ممَّا عرض لي! وأنشدنا:

دَبَبْتُ للمجدِ والساعون قد بلغوا جَهْدَ النفوس وألقَوا دونه الأُزُرا



وكابدوا المجد حتى ملَّ أكثرُهم وعانقَ المجدَ مَن أوفى ومَن صَبَرا

لا تحسَبِ المجدَ تمرًا أنتَ آكلُه لن تبلغَ المجد حتى تلعَق الصَّبِرا

قال أبو نصر: فكتبناها قبل أن يأتي موضعها في نوادره»[١].

١- إنباه الرواة على أنباه النحاة القفطي (ت ٦٤٦هـ) (٣/٣٦٣)، والشعر في «الأمالي» للقالي (١/١٢٣).

المعلم الرابع: سمت العالم وخشيته وأثره في نبوغ الطالب وتأدبه

كان السَّلفُ يَرحلون إلى العالِمِ يتعلَّمون منه الأدبَ كما يتعلَّمون منه العِلمَ، وكان بعضُهم يُوصي بعضًا بذلك، وهذا من خير ما يترك في الطالب أثرًا وبصمة، وفعلًا محفزًا للخير.

سُئِل الإمام مالك متى سمعت من -الإمام- أيوب السختياني؟ فقال: «حجَّ حجتين فكنت أرمقه ولا أسمع منه، غير أنَّه إذا جاء ذكر النَّبي ﷺ بكى حتى أرحمه، فلمَّا رأيت منه ما رأيت وإجلاله النبي ﷺ كتبت عنه»[1]. فتأمل تأثر الإمام مالك بأيوب رَحِمَهُ اللهُ، وتأمل حرص مالك وطلاب السلف على حرصهم أخذ العلم من الربانيين أهل الخشية والتربية.

وقال ابن الجوزيّ عنْ شيخِه الحافظِ أبي البركاتِ الأنماطي: «كنتُ أقرأ عليه وهو يَبكي، فاستفدتُ ببكائِهِ أكثرَ منْ استفادتي بروايتِه، وكان على طريقةِ السَّلفِ، انتفعتُ بهِ ما لم أنتفعْ بغيرِه»[2].

١- التعديل والتجريح لأبي الوليد الباجي (١/٣٤٧)، وفي «تهذيب الكمال» (٣/٤٦٠) قَال حماد بن زيد، عن ميمون أبي عَبد الله: كنَّا عند الحسن، وعنده أيوب، فسأله عن شيء، ثمَّ قام فأتبعه بصره حتى إذا كان حيث لا يسمع أيوب، قال: «هذا سيد الفتيان».

٢- تذكرة الحفاظ للذهبي (٤/٥٣)، وبنحوه في «صيد الخاطر» (ص١٥٨-١٥٩)، قال: «ولقيت عبد الوهاب الأنماطيَّ، فكان على قانون السلف، لم تسمع في مجلسه غيبةٌ، ولا كان يطلب أجرًا على سماع الحديث، وكنت إذا قرأت عليه أحاديث الرقائق، بكى، واتصل بكاؤه، فكان -وأنا صغير السن حينئذٍ- يعمل بكاؤه في قلبي، ويبني قواعد، وكان على سمت المشايخ

وقد كان السلف يحرصون على تعلم السمت والأدب من العالم كتعلمهم العلم[1].

قال أبو بكر بن خلَّاد: سمعت سفيان بن عيينْةَ، يقول: حدثني أبي قال: «كنَّا إِذَا قدِمَ داودُ بن أبي هندٍ خرجنَا نتلقَّاهُ ننظُرُ إلى هيئتِهِ وسمتِهِ وتشـمِيرِه»[2].

وعن الإمام سليمان بن مهران الأعمش قال: «كانوا يتعلَّمون من الفقيهِ كلَّ شيءٍ حتى لباسَه ونَعليه»[3].

وعن محمد بن عيسى قال: قدمَ ابن المبارك قدمةً فقيل له: إلى أين تريدُ؟

قال: إلى البَصرة.

قيل له: مَن بقيَ؟



الذين سمعنا أوصافهم في النقل، ولقيت الشيخ أبا منصور الجَوَالِيْقِيَّ، فكان كثير الصمت، شديد التحري فيما يقول، متقنًا، محققًا، وربما سئل المسألة الظاهرة، التي يبادر بجوابها بعض غلمانه، فيتوقف فيها حتى يتيقن، وكان كثير الصوم والصمت، فانتفعت برؤية هذين الرجلين أكثر من انتفاعي بغيرهما ففهمت من هذه الحالة أن الدليل بالفعل أرشد من الدليل بالقول».

١- وهذا شيء القليل من الطلاب من يسعى له والله المستعان، فينبغي على المدرسين الذين يكثرون من الدورات في علم التربية والسلوك، أن يضبطوا أقوالهم وأفعالهم بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ثم يحرصون على إفشاء ذلك بين رفقائهم، وطلابهم؛ فالعين ما تكسبه بالنظر في بعض الأحيان يؤثر أكثر مما تحصله بالسماع، لأن عين الحال أبلغ من القيل والقال.

٢- الحلية (٣/٩٤).

٣- الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/١٤٩)، والسيوطي في «حسن السمت في الصمت» (ص٩).

قال: «ابن عونٍ آخذُ من أخلاقهِ، آخذ من آدابهِ»[1].

قال أبو عبيد القاسم بن سلَّام كان أصحابُ عبدِ الله يَرحلون إليهِ فيَنظرون إلى سمتِه وهديِه ودله. قال: «فيَتشبهون به»[2].

قلت: وذلك لأنَّ ابن مسعود رضي الله عنه كان من أكثرِ النَّاسِ اتباعًا لهدي النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وتَشبُّهًا به، كما روى الذهبيُّ في «معرفة القراء الكبار»، عن حذيفة رضي الله عنه قال: «ما أعلمُ أحدًا أقرب سمتًا، ولا هديًا، ودلًا برسولِ الله صلى الله عليه وسلم حتى يواريه بيتُه من ابن أم عبد»[3].

١- صفة الصفوة (٢/٣٥٨)، و«الآداب الشرعية» (٢/١٤٩).

٢- غريب الحديث (٣/٣٨٤)، وقال عقبه: (قوله: إلى سمته) فالسمت يكون في معنيين:

أحدهما: حسن الهيئة والمنظر في مذهب الدين، وليس من الجمال والزينة؛ ولكن يكون له هيئة أهل الخير ومنظرهم.

وأما الوجه الآخر: فإنَّ السمت الطريق يقال: الزم هذا السمت كلاهما له معنى جيد يكون أن يلزم طريقة أهل الإسلام، ويكون أن يكون له هيئة أهل الإسلام.

وقوله: (إلى هديه ودله) فإنَّ أحدهما قريب المعنى من الآخر، وهما من السكينة والوقار في الهيئة والمنظر والشمائل وغير ذلك.

٣-معرفة القراء الكبار (١/٣٥).

المعلم الخامس: أين شباب الأمة من حفظ العلم وحضور مجالس أهله

إنَّ خير معين للنهوض بالأمة، وأنفع سلاح للوقوف في وجه أعدائها؛ هو نشر العلم النافع بين الناس، و «خيرُ العلومِ ما ضبط أصلُه، واستذكر فرعُه، وقاد إلى الله تعالى، ودلَّ على ما يَرضاه»[1]. والعلم النَّافع يمنع صاحبه من الوقوع في الضلالات والبدع، ويعصم صاحبه من الزيغ الذي يتعرض له الشباب في الفكر والمنهج بين كل حين وآخر، والعلم ينجي من التخبط والتشرذم، ومن التكفير والولوج في الدماء، ويُعرِّف الرجلَ مقامه.

في زماننا هذا نشهد فيه نهضةً علميّة كبيرة لا سيَّما في الأمور التقنية المعرفية، وهذه النهضة سهلت طلبَ العلم ولو بتحصيلِ جزءٍ منه كسماع الدروس النافعة، والمحاضرات الماتعة؛ -وإن كان أصل العلم لا ينال إلا بثني الركب، وحضور القلب، وأخذه من أهله العارفين به، العاملين بما فيه- ومع ذلك لا يزال الجهل مطبقًا على المجتمعات، ولا تزال المخالفات تلوح في الأفق، وتعلو للسماء؛ تذكرت حينما وجدت أبناء زماننا ممَّن يركضون خلف شراء العقارات، وتأثيث البيوت وهي كالمقابر خلا منها الذكر، وعلا بين أهلها الجهل، وهم يتفاخرون بالسيارات، وملابسهم

١- التمهيد (١٤/١٣٣-١٣٤).

الفانيات، ويعرضون نساءهم كأنَّهن كاسيات عاريات، بقول الله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم:٧].

قال الحسن: «إنَّ أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه ولا يخطىء، وهو لا يحسن يصلي!!»[١].

وقال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم:٢٩] قال القرطبي في «تفسيره»: «أي إنَّما يبصرون أمر دنياهم ويجهلون أمر دينهم».

قال الفراء: «صغرهم وازدرى بهم، أي ذلك قدر عقولهم ونهاية علمهم أنْ آثروا الدنيا على الآخرة»[٢].

وعن عثام بن علي، يقول: سمعت الأعمش، يقول: «إذا رأيتَ الشيخ، لم يقرأ القرآن، ولم يكتب الحديث، فاصفع له، فإنَّه من شيوخ القمر».

قال أبو صالح: قلت لأبي جعفر: ما شيوخ القمر؟

قال: «شيوخ دهريون، يجتمعون في ليالي القمر، يتذاكرون أيام الناس، ولا يحسن أحدهم أن يتوضأ للصلاة»[٣].

وعن محمد بن عبيد، يقول: جاء رجل وافرَ اللحية إلى الأعمش فسأله

١- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٥/٤٥).
٢- (٤٠/٢١) عالم الكتب.
٣- شرف أصحاب الحديث (ص٩٢).

عن مسألة من مسائل الصبيان، يحفظها الصبيان، فالتفت إلينا الأعمش، فقال: «انظروا إلى لحية تحتمل حفظ أربعة ألف حديث، ومسألته مسألة الصبيان»[١].

فيا شباب الأمة، ويا من أنعم الله عليه بالمال وهو بين يديه، عليك بالعلم واستمع لهذه النصيحة المجربة، قال عبد الملك بن مروان لبنيهِ: «يا بنيّ تعلموا العلم، فإنْ استغنيتم كان لكم كمالًا، وإنْ افتقرتم كان لكُم مالًا»[٢].

١- الفقيه والمتفقه (٢/١٥٩)، وهو في «المحدث الفاصل» (ص٢٩٦).
٢- جامع بيان العلم (١/٢٤٤).

المعلم السادس: النبوغ والعلم رزق

عن أبي الأحوص، عن عبد الله رضي الله عنه، قال: «إنَّ أحدًا لا يولد عالماً، والعلم بالتعلم»[1].

وعن إسرائيل، قال: كثُر من يطلب الحديث في زمن الأعمش، فقيل له: يا أبا محمد، ما ترى ما أكثرَهُم؟

قال: «لا تنظروا إلى كثرتهم، ثلثهم يموتون، وثلثهم يلحقون بالأعمال، وثلثهم من كلِّ مائة يفلح واحد»[2].

وعن يحي بن سلمة بن كهيل، قال: كان سفيان الثوري يجئ إلى أبي وهو غلام عليه أقبية يسمع منه، فكان أبي يعيرني به ويقول: «انظر إلى هذا الغلام يجئ من بني ثور رغبة في الحديث، وأنت ها هنا لا ترغب فيه»[3].

وقال الزبيري: كانت لمالك ابنة تحفظ علمه -يعني الموطأ-، وكانت تقف خلف الباب فإذا غلط القارئ نقرت الباب فيفطن مالك فيرد عليه.

وكان ابنه محمد يجيء وهو يحدث وعلى يده باشق ونعل كيساني، وقد

١- العلم لزهير (١١٥).
٢- الجامع لأخلاق الراوي (١/١١٤)، وفي «تهذيب الكمال» للمزي (٢٧/٦٠) قال عباس الترقفي عن الفريابي: قال لي سفيان الثوري يومًا، وقد اجتمع الناس عليه: «يا محمد ترى هؤلاء ما أكثرهم! ثلث يموتون، وثلث يتركون هذا الذي يسمعونه، ومن الثلث الآخر ما أقل من ينجب».
٣- ميزان الاعتدال في نقد الرجال (٤/٣٨١).

أرخى سراويله عليه؛ فيلتفت مالك إلى أصحابه، ويقول: «إنَّما الأدبُ أدب الله هذا ابني وهذه ابنتي؟»[١].

وهذا الشافعي يقول عن المزني: «وددتُ لو أنَّ لي ولدًا مثله وعليَّ ألف دينار لا أجد لها قضاء»[٢].

وقال جعفر بن سليمان: حدثنا مالك بن دينار، قال: أتينا أنسًا أنا، وثابت، ويزيد الرقاشي، فنظر إلينا، فقال: «ما أشبهكم بأصحاب محمد ﷺ لأنتم أحب إليَّ من عدة ولدي، إلا أن يكونوا في الفضل مثلكم، إنِّي لأدعو لكم في الأسحار»[٣].

وقال ابن الجوزي البغدادي: «ولقد تأملت نفسي بالإضافة إلى عشيرتي الذين أنفقوا أعمارهم في اكتساب الدنيا، وأنفقت زمن الصبوة والشباب في طلب العلم، فرأيتني لم يفتني مما نالوه؛ إلا ما لو حصل لي، ندمت عليه.

ثمَّ تأملت حالي، فإذا عيشي في الدنيا أجود من عيشهم، وجاهي بين الناس أعلى من جاههم، وما نلته من معرفة العلم لا يقاوم. فقال لي إبليس: ونسيت تعبك وسهرك؟! فقلت له: أيها الجاهل! تقطيع الأيدي

١- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (١/٨٦- ٨٧)، والنص الأخير نحوه في «المحدث الفاصل» (ص٢٣٣).
٢- الوافي بالوفيات (٣/٢٧٢)، و«وفيات الأعيان» (٤/١٩٤).
٣- السير (٥/٣٦٣-٣٦٤).

لا وقع له عند رؤية يوسف، وما طالت طريق أدت إلى صديق»[1].

١- الوافي بالوفيات (٣/٢٧٢).

المعلم السابع: الفقر لا يمنع من النبوغ وتحصيل العلم

إنَّ من حكمة الله تعالى أن يكون جلَّة العلماء في الغالب فقراء؛ لأنَّ الفقير نفسه أقرب إلى التواضع، وقلبه مفرغ من كدِّ العيش في الضياع والمنازل.

وبهاتين الصفتين: التواضع، وتقليل العوائق والشواغل عن القلب؛ يُنال العلم، ويحصل الحفظ والفهم.

قلتُ للفَقْرِ: أينْ أنتَ مُقيمٌ؟ قَال لي: في عَمَائمِ الفُقهاءِ
إنَّ بيْني وبينَهُم لإِخاءً وعزيزٌ عليَّ قَطْعُ الإخَاءِ!

وفقر العلماء فقر جيب لا قلب، فقلوبهم بما تحوي من الإيمان وحسن الظنِّ بالله تفوق أموالَ الأغنياء وكنوز الأثرياء، ولكن لكلِّ شيءٍ قدر، والله يعطي المال من أحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والقناعة مع العلم والعمل إلا من اختص وأحب.

والغنى بلاء كما الفقر بلاء!! وإنَّما يتفاضل الناس بالعمل الصالح، والقلب القانع الخاشع. فأمَّا العمل فهو الرفعة عند الله، فإنَّ منازل الصالحين ترتفع بقدرِ أعمالهم، وأما القلب فهو محط نظر الرب، فقد يكون الغني الثري أبغض الخلق إلى الله منظرًا، وهو في عين الناس من أحسنهم، وما ذاك إلا لأنَّ قلبه مليء بالأمراض. وصلاح القلب بصلاح الجسد، ولما

كان القلب مريضًا كان الجسد تبعًا له، فصار الإعراض عن الظاهر سببه ما في الباطن، وإنَّما يعرف قدر هذا الكلام وحقيقته من عاش على مثل هذا، وروَّض نفسه عليه، وأمَّا من كان عن حياض العلم مبعدًا، وعن الصالحين بمنأى فهيهات أن ينتفع به؛ بل إنَّما يراه طلاسمًا وكلامًا لا قيمة له!.

إِذَا قَنَعْتَ بِمَيْسُورٍ مِنْ الْقُوتِ ... أَصْبَحْتَ فِي النَّاسِ حُرًّا غَيْرُ مَمْقُوتِ

يَا قُوتَ نَفْسِي إِذَا مَا دَرَّ خَلْفَكَ لِي ... فَلَسْتُ آسَى عَلَى دُرٍّ وَيَاقُوتِ(١)

قال أبو شامة الدمشقي في «خطبة الكتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول»: «وينبغي لمن نظمه الله سبحانه في سلك العلماء أن يعرف قدر نعمته عليه، فقد قرَّبه من درجة النبوة بما أسداه إليه، فلا يحزن لما يفوته من أمر الدنيا، فما آتاه الله خير ممَّا أوتي أهلها، ولا يتبرم بما ينزل به من مصائبها فإنَّ ذلك من علامات قبوله ولحوقه بسلفه، فقد جاء في الحديث: «أشدُّ النَّاسِ بلاءً الأنبياء، ثمَّ العلماء، ثمَّ الصالحون»(٢). وفي رواية: «النبيون،

١- الآداب الشرعية والمنح المرعية (٣/٤٨٦).

٢- والحديث بهذا اللفظ عند ابن ماجه في «سننه» (٤٣١٣)، وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (٥٤٦٣)، وابن عبد البر في «جامعه» (١٥٢) من حديث عثمان رضي الله عنه مرفوعًا، وإسناده ضعيف جدًا؛ عنبسة بن عبد الرحمن بن عنبسة ذكره ابن عدي في «الكامل» (٦/٤٥٩) قال البخاري: «عنبسة بن عبد الرحمن القرشي، منكر الحديث تركوه».

وللحديث شواهد كثيرة، منها: ما رواه أحمد في «مسنده» (١٤٩٤)، والطيالسي في «المسند» (٢١٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٩٠٠)، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: سألت

ثمَّ الأمثل فالأمثل».

شُغِلْنَا بكَسْبِ العِلْمِ عن مكسَبِ الْغِنَى كما شُغِلُوا عنْ مكسَبِ العلْمِ بالوَفْرِ
وصارَ لهُم حَظٌّ من الجَهْلِ والْغِنَى وصارَ لنا حَظٌّ من الْعِلمِ والفَقْرِ[1]

وقيل لبزرجمهر: العلم أفضل أم المال؟

فقال: بل العلم.

قيل: فما بالُنا نرى العلماءَ على أبوابِ الأغنياء، ولا نكادُ نرى الأغنياءَ على أبوابِ العلماء؟ فقال: «ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال وجهل الأغنياء لفضل العلم»[2].

وقال الماوردي: «وقد كان أكثرُ أنبياءِ الله تعالى -مع ما خصهم الله به من كرامتهِ وفضلهم على سائرِ خلقه-، فقراءَ لا يجدون بلغةً، ولا يقدرونَ على شيءٍ؛ حتى صاروا في الفقرِ مثلًا، فقال البحتري:

رسول الله ﷺ: «أي الناس أشد بلاء»؟ فقال: «الأنبياء، ثمَّ الأمثل، فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان رقيق الدين ابتلي على حسب ذاك، وإن كان صلب الدين ابتلي على حسب ذاك، قال: فما تزال البلايا بالرجل حتى يمشي في الأرض وما عليه خطيئة».
وفي رواية لابن حبان في «صحيحه» (٢٩٢٠) «الأنبياء ثمَّ الأمثل فالأمثل؛ يبتلى الناس على قدر دينهم، فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه، وإنَّ الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشي في النَّاس ما عليه خطيئة»، ورجال الحديث ثقات، إلا أنَّه منقطع المسيب- وهو ابن رافع- لم يسمع من سعد.
١- صفحات من صبر العلماء (ص١٦١).
٢- أدب الدنيا (ص٣٧) و(ص٣٥).

فَقْرٌ كَفَقْرِ الْأَنْبِيَاءِ وَغُرْبَةٌ وَصَبَابَةٌ لَيْسَ الْبَلَاءُ بِوَاحِدِ

قال الشَّاعر:

كَمْ كَافِرٍ بِاَللَّهِ أَمْوَالُهُ تَزْدَادُ أَضْعَافًا عَلَى كُفْرِهِ

وَمُؤْمِنٍ لَيْسَ لَهُ دِرْهَمٌ يَزْدَادُ إِيمَانًا عَلَى فَقْرِهِ

يَا لَائِمَ الدَّهْرِ وَأَفْعَالِهِ مُشْتَغِلًا يَزْرِي عَلَى دَهْرِهِ

الدَّهْرُ مَأْمُورٌ لَهُ آمِرٌ يَنْصَرِفُ الدَّهْرُ عَلَى أَمْرِهِ [١]

يقول الشيخ محمد الخضر الحسين رحمه الله: «والإسراف في الترف يقل معه النبوغ في العلم، ذلك أنَّ النفس المحفوفة بالرفاهية من كل جانب، يضعف طموحها إلى اللذات العقلية؛ لأنَّها في لذة قد تشغلها أن تطلب لذة كلذَّة العلوم طلبًا يبلغ بها مرتبة العبقرية، ومن الجلي أن مرتبة العبقرية لا تدرَك إلا باحتمال مصاعب، واقتحام أخطار، والمسرف في الترف ضعيف العزيمة، لا يثبت أمام المكاره والشدائد»[٢].

وهذا **ربيعة بن عبد الرحمن شيخ الإمام مالك** رحمه الله كان به من الفقر ما الله به عليم ثم صار إمامًا تخرج به العلماء، وتتلمذ على يديه كبار الفقهاء، ذكر ابن القاسم عن مالك قوله: «إنَّ هذا الأمر لن ينال حتى

١- المصدر نفسه (ص٤٢) و(ص٤٣).
٢- الأعمال الكاملة «مضار الإسراف» (٤/١٣٧).

يذاق فيه طعم الفقر»، ثمَّ ذكر ما نزل بربيعة من الفقر، حتى كان يأكل ما يلقى على مزابل المدينة من الزبيب وعصارة التمر[١].

وعن سهيل، قال: كان أبو هريرة ﷺ إذا نظر إلى أبي صالح قال: «ما كان على هذا أن يكون من بني عبد مناف»[٢]. وكان أبو صالح يقول: «ما كنت أتمنى من الدنيا إلا ثوبين أبيضين أجالس فيهما أبا هريرة»[٣].

وكان أبو صالح يجلب الزيت والسمن إلى الكوفة، فانظر إلى أمنيته، وانظر لكلام أبي هريرة عنه، ثمَّ حاله وقد أصبح بعد ذلك ينعت بـ (القدوة، الحافظ، الحجة)[٤].

وقال الإمام أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢هـ): «كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مقِّلٌ رثُّ الحال»[٥]. وصار قاضي القضاة،

١- جامع بيان العلم (١/٤١٠)، وفي «الدلائل النورانية لطالب الربانية» (ص ١٥٤-١٥٥)، وعنه في «الهمة طريق القمة» (ص٤١)، يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت٥٦١هـ): «كنت أقتات بخرنوب الشوك، وقمامة البقل، وورق الخس من جانب النهر والشط، وبلغت الضائقة في غلاءٍ نزل ببغداد إلى أن بقيت أيامًا لم آكل فيها طعامًا؛ بل كنت أتبع المنبوذات أطعمها».

٢- العلم لزهير (٨٣). وأبو صالح هو مولى جويرية بنت الأحمس الغطفاني، واسمه ذكوان السمان المدني.

٣- العلم لزهير (٨٤).

٤- انظر: السير (٥/٣٦).

٥- تاريخ بغداد (٦/٥٢٢)، ووصفه الخطيب بقوله: «كان إمامًا في العلم، رأسًا في الزهد، عارفا بالفقه، بصيرا بالأحكام، حافظًا للحديث، مميزًا لعلله، قيمًا بالأدب، جمَّاعًا للغة، وصنَّف كتبا كثيرة منها: غريب الحديث، وغيره».

وإمام من أئمة أهل زمانه، وطلب العلم عنه الصغار والكبار.

والإمام الشافعي ولد يتيمًا فقيرًا ثمَّ صار كالشمس للدنيا والعافية للبدن بلغ صداه أقصى الأرض، يقول ﷺ: «كنت يتيمًا في حجر أمي فدفعتني في الكتاب، ولم يكن عندها ما تعطي المعلم، فكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام، فلمَّا ختمت القرآن دخلت المسجد فكنت أجالس العلماء، وكنت أسمع الحديث أو المسألة فأحفظها، ولم يكن عند أمي ما تعطيني أن أشتري به قراطيس قط، فكنت إذا رأيت عظمًا يلوح آخذه فأكتب فيه، فإذا امتلأ طرحته في جرة كانت لنا قديمًا»[1].

قالت: (مسائلُ سحنونٍ) لقارئِها ... بالكدِّ تُدركُ منهُ كلَّ ما اسْتَتَرا

لا يُدركُ العلمَ بطَّالٌ ولا كَسِلٌ ... ولا ملولٌ ولا مَنْ يألفُ البَشَرا[2]

وهذا الإمام إبراهيم بن إسحاق الحربي (ت ٢٣٥هـ) يقول: «ما كنَّا نعرف من هذه الأطبخة شيئًا، كنت أجئ من عشي إلى عشي وقد هيأت لي أمي باذنجانة مشوية، أو لعقة بن، أو باقة فجل»[3].

وقال حكيم من الحكماء: «يكفيك من الفجل الورق، ومن لحم

١- جامع بيان العلم (١/٤١٣)، و«مناقب الشافعي» للبيهقي (١/٩٤-٩٥).
٢- قطوف الريحان شرح حديقة ابن الونّان (ص٢٥٥).
٣- تاريخ بغداد (٦/٥٢٢)، ووصفه الخطيب بقوله: كان إمامًا في العلم، رأسًا في الزهد، عارفا بالفقه، بصيرا بالأحكام، حافظًا للحديث، مميزًا لعلله، قيمًا بالأدب، جمَّاعًا للغة، وصنَّف كتبا كثيرة منها: غريب الحديث، وغيره.

البقرالمرق»[١].

أبو الحرام مكي الماكسيني (ت ٦٠٣هـ)، المقرئ النحوي الضرير، الملقب صائن الدين. كان والده يصنع الأنطاع بماكسين[٢]، ومات فقيراً لم يخلف شيئاً، وترك ولده أبا الحرم المذكور وأمه وبنتاً، فلم تقدر أمه على القيام بمصالحه بسبب الفقر، وتضجرت منه ففارقها، وخرج من بلده وقصد الموصل، واشتغل بها بعلم القرآن والأدب، ثمَّ رحل إلى بغداد واجتمع بأئمة الأدب، وقرأ على أبي محمد ابن الخشاب وابن العصار وابن الأنباري وأبي محمد سعيد بن الدهان وقد تقدم ذكرهم ثمَّ عاد إلى الموصل وتصدر بها للإفادة، وأخذ النَّاسُ عنه، وانتشر ذكره في البلاد وبعد صيته وانتفع به خلق كثير[٣].

وهذا شيخ الإسلام وفقيه الشافعية في الأنام -في زمانه- زكريا الأنصاري (ت ٩٢٦هـ) يقول: «جئت من البلاد وأنا شاب، فلم أعكف على الاشتغال بشيء من أمور الدنيا، ولم أعلق قلبي بأحد من الخلق. وكنت أجوع في الجامع كثيراً فأخرج في الليل إلى الميضأة وغيرها، فأغسل ما أجده من قشيرات البطيخ حوالي الميضأة وآكلها، وأقنع بها

١- معجم السفر (١٠٠) (ص٤٢).
٢-قال ابن خلكان: «ماكسين بليدة من أعمال الجزيرة الفراتية على نهر الخابور، وهي على صغرها تشابه المدن في حسن بنائها ومنازلها».
٣-وفيات الأعيان (٥/٢٧٨).

عن الخبز، فأقمت على ذلك الحال سنين»[1].

وحكي عن العلامَة جمال الدّين مُحَمَّد طَاهِر الملقب بملك المحدثين الهنديّ ﷺ **(ت ٩٨٦هـ)**، أنَّه في أيام تحصيله قاسى من الطلبة وغيرهم شدائد، فنذر أن رزقه الله علمًا ليقومنَّ بنشره ابتغاء لمرضاة الله، فلمَّا تمَّ له ذلك فعل كذلك، وقام به احتسابًا لله فانتفع بتدريسه عوالم لا تحصى رحمه الله[2].

١- الكواكب السائرة للغزي (١/١٩٨).

٢- النور السافر عن أخبار القرن العاشر (ص٣٢٤)، وفي (المصدر نفسه) كان يرسل إلى معلم الصبيان ويقول: أيُّما صبي حسن ذكاؤه، وجيد فهمه؛ أرسله إليَّ. فيرسل إليه، فيقول له: كيف حالك؟ فإن كان غنيًا يقول له: تعلم. وإن كان فقيرًا يقول له: تعلم ولا تهتم من جهة معاشك، أنا أتعهد أمرك وجميع عيالك على قدر كفايتهم، فكن فارغ البال، واجتهد في تحصيل العلم. فكان يفعل ذلك بجميع من يأتيه من الضعفاء والفقراء ويعطيهم قدر ما وظفه لهم، حتى صار منهم جماعة كثيرة علماء ذووا فنون كثيرة فأنفق جميع ماله في ذلك.



المعلم الثامن: الهمة طريق يوصل إلى النبوغ والمعرفة

الهمة الهمة، والهمة: توجّه القلب وقصده بجميع قواه الروحية إلى جانب الحق لحصول الكمال له أو لغيره[1].

قال خال المؤمنين معاوية رضي الله عنه: «تهاموا فإنَّي هممت بالخلافة فنلتها»[2].

وعن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال: اجتمع في الحجر؛ عبد الله بن الزبير، ومصعب بن الزبير، وعروة بن الزبير، وعبد الله بن عمر رضي الله عنه فقالوا: تمنوا.

فقال عبد الله بن الزبير: أمَّا أنا فأتمنى الخلافة.

وقال عروة بن الزبير: أمَّا أنا فأتمنى أن يؤخذ عنّي العلم.

وقال مصعب بن الزبير: أمَّا أنا فأتمنى إمرة العراق والجمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين.

١- التعريفات للجُرجاني (ص٢٥٧).

٢- ومصداق ذلك ما جاء في «التذكرة الحمدونية» (٢/١٥) «الرياسة أصلها علو الهمة»، وقد أفردت ذلك بجزء لطيف من ولي الرئاسة أو الوزارة بعلو همته لا بالتوريث، كأبي مسلم الخراساني، ومحمد بن أبي عامر، والوزير ابن هبيرة، وغيرهم الكثير. وفي «الآداب الشرعيَّة» لابن مفلح (٢/١١٠)، قال: «وفي (فنون ابن عقيل) وجدت في تعاليق محقق أن سبعة من العلماء مات كل واحد منهم، وله ست وثلاثون سنة، فعجبت من قصور أعمارهم مع بلوغهم الغاية فيما كانوا فيه، فمنهم الإسكندر ذو القرنين وقد ملك ما ذكره الله، وأبو مسلم الخراساني صاحب الدولة العباسية، وابن المقفع صاحب الخطابة والفصاحة، وسيبويه صاحب التصانيف والتقدم في العربية، وأبو تمام الطائي في علم الشعر، وإبراهيم النظام في علم الكلام، وابن الراوندي في المخازي، وله كتاب الدامغ مما غر به أهل الخلاعة، وله الجدل».

وقال عبد الله بن عمر: أما أنا فأتمنى المغفرة.

فنالوا ما تمنوا، ولعل ابن عمر قد غفر له[١].

وشكا مزاحم إلى عمر بن عبد العزيز حاجة أهل عمر وقلة ما بأيديهم، فقال عمر: إنَّ لي نفسًا تواقة، لقد رأيتني وأنا بالمدينة غلام من الغلمان، ثمَّ تاقت نفسي إلي العلم والعربية والشعر فأخذت منه حاجتي. ثمَّ تاقت نفسي إلى السلطان فاستُعملت على المدينة، ثمَّ تاقت نفسي وأنا في السلطان إلى اللبس والعيش الطيب، فما علمت أنَّ أحدًا من أهل بيتي ولا غيرهم كان فيما كنت فيه، ثمَّ تاقت نفسي إلى الآخرة والعمل بالعدل؛ فأنا أرجو أن أنال ما تاقت إليه نفسي من أمر آخرتي، ولست بالذي أهلك آخرتي بدنياي[٢].

ولما خرج الأمير عبد الرحمن بن معاوية صقر قريش الذي أسس دولة الإسلام في بلاد الأندلس والمغرب بعد أن أزيلت في الشام، أتوه بخمر، فقال: إنِّي محتاج لما يزيد في عقلي، لا لما ينقصه، فعرفوا بذلك قدره؛ ثمَّ أهديت إليه جارية جميلة فنظر إليها وقال: إنَّ هذه من القلب والعين بمكان، وإنْ أنا اشتغلت عنها بهمتي فيما أطلبه ظلمتها، وإن اشتغلت بها

١- تاريخ الإسلام (٢/٨٨١).

٢- سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لابن رجب من «مجموع رسائله» (٢/٥٠٢-٥٠٣)، وذكرها ابن قتيبة في «عيون الأخبار» مختصراً.

عما أطلبه ظلمت همتي، ولا حاجة لي بها الآن، وردها على صاحبها[1].

وقال العلامة القرآني محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: قدمتُ على بعض المشايخ لأدرس عليه، ولم يكن يعرفُني من قبلُ، فسأل عني مَن أكون في ملإٍ من تلامذته؟ فقلت مرتجلًا:

هذا فَتًى مِنْ بَنِي جَاكَانَ قَدْ نَزَلا	بِهِ الصِّبَا عَنْ لِسانِ العُرْبِ قَدْ عَدَلا
رَمَتْ بِهِ هِمَّةٌ عَلْيَاءُ نَحْوَكُمُ	إذ شَامَ بَرْقَ عُلومٍ نُورُهُ اشتعَلا
فجَاءَ يَرْجُو رُكامًا مِن سَحَائِبِهِ	تَكْسُو لِسانَ الفَتَى أزْهَارُهُ حُلَلا
إذ ضَاقَ ذَرْعًا بِجَهْلِ النَّحْوِ ثُمَّ أبى	ألاَّ يُمَيِّزَ شَكْلَ العَيْن مِنْ فَعَلًا
وَقَد أتَى اليَوْمَ صَبًّا مولَعًا كَلِفًا	بـ "الحمْدُ لله" لا أبْغِي لهُ بَدَلًا

يريد دراسة (لامية الأفعال).

وقد مضى رحمه الله في طلب العلم قُدُمًا، وقد ألزمه بعض مشايخه بالقِران؛ أي: أن يَقْرِنَ بين كل فنَّيْن؛ حرصًا على سرعة تحصيله، وتفرُّسًا له في القدرة على ذلك، فانصرف بهمة عالية في درس وتحصيل[2].

وهذا قصة طريفة، يحكى أنَّ الدولة اليابانية أرسلت في بدء حضارتها بعوثاً دراسية إلى ألمانيا كما بعثت الأمة العربية بعوثاً، ورجعت بعوث اليابان

١- نفح الطيب من غص الأندلس الرطيب (٣/٤٢).
٢- علو الهمة للمقدم (ص١٥٢-١٥٣).



لتحضر أمتها، ورجعت بعوثنا خاوية الوفاض!! فما هو السر؟ لنقرأ هذه القصة حتى نتعرف على الإجابة. يقول الطالب الياباني أوساهير الذي بعثته حكومته للدراسة في ألمانيا: لو أنني اتبعت نصائح أستاذي الألمانيّ الذي ذهبت لأدرس عليه في جامعة هامبورج لما وصلت إلى شيء، كانت حكومتي قد أرسلتني لأدرس أصول الميكانيكا العلمية،

كنت أحلم بأن أتعلم كيف أصنع محركاً صغيراً، كنت أعرف أن لكل صناعة وحدة أساسية أو ما يسمى (موديل) هو أساس الصناعة كلها، فإذا عرفت كيف تصنع وضعت يدك على سر هذه الصناعة كلها، وبدلاً من أن يأخذني الأساتذة إلى معمل، أو مركز تدريب عمليّ، أخذوا يعطونني كتباً لأقرأها، وقرأت حتى عرفت نظريات الميكانيكا كلها، ولكنني ظللت أمام المحرك -أياً كانت قوته- وكأنني أقف أمام لغز لا يحل.

وفي ذات يوم قرأت عن معرض محركات إيطالية الصنع، كان ذلك أول الشهر، وكان معي راتبي، وجدت في المعرض محركاً قوة حصانين ثمنه يعادل مرتبي كله، فأخرجت الراتب ودفعته، وحملت المحرك وكان ثقيلاً جداً، وذهبت إلى حجرتي، ووضعته على المنضدة وجعلت أنظر إليه، وكأني أنظر إلى تاج من الجوهر، وقلت لنفسي: هذا هو سر قوة أوربا،

لو استطعت أن أصنع محركاً كهذا لغيرت تاريخ اليابان، وطاف بذهني خاطر يقول: إن هذا المحرك يتألف من قطع ذات أشكال وطبائع شتى، مغناطيس كحذوة الحصان، وأسلاك، وأذرع دافعة، وعجلات، وتروس وما إلى ذلك، لو أنني استطعت أن أفكك قطع هذا المحرك وأعيد تركيبها بالطريقة نفسها التي ركبوها بها ثم شغلته فاشتغل أكون قد خطوت خطوة نحو سر (موديل) الصناعة الأوربية.

وبحثت في رفوف الكتب التي عندي، حتى عثرت على الرسوم الخاصة بالمحركات، وأخذت ورقاً كثيراً، وأتيت بصندوق أدوات العمل، ومضيت أعمل، رسمت المحرك، بعد أن رفعت الغطاء الذي يحمل أجزاءه، ثم جعلت أفككه، قطعة قطعة، وكلما فككت قطعة رسمتها على الورقة بغاية الدقة وأعطيتها رقماً، وشيئاً فشيئاً فككته كله، ثم أعدت تركيبه، وشغلته فاشتغل، كاد قلبي يقف من الفرح، استغرقت العملية ثلاثة أيام، كنت آكل في اليوم وجبة واحدة، ولا أصيب من النوم إلا ما يمكنني من مواصلة العمل.

وحملت النبأ إلى رئيس بعثتنا فقال: حسناً ما فعلت، الآن لا بد أن أختبرك، سآتيك بمحرك متعطل، وعليك أن تفككه، وتكتشف موضع الخطأ وتصححه، وتجعل هذا المحرك العاطل يعمل، وكلفتني هذه العملية

عشرة أيام عرفت أثناءها مواضع الخلل، فقد كانت ثلاثاً من قطع المحرك بالية متآكلة، صنعت غيرها بيدي، صنعتها بالمطرقة والمبرد.

بعد ذلك قال رئيس البعثة –كان بمثابة الكاهن يتولى قيادتي روحياً– قال: عليك الآن أن تصنع القطع بنفسك، ثم تركبها محركاً، ولكي أستطيع أن أفعل ذلك التحقت بمصانع صهر الحديد، وصهر النحاس، والألومنيوم، بدلاً من أعد رسالة الدكتوراه كما أراد مني أساتذتي الألمان، تحولت إلى عامل ألبس بذلة زرقاء وأقف صاغراً إلى جانب عامل صهر المعادن، كنت أطيع أوامره كأنه سيد عظيم، حتى كنت أخدمه وقت الأكل، مع أنني من أسرة ساموراي، ولكنني كنت أخدم اليابان وفي سبيل اليابان يهون كل شيء، قضيت في هذه الدراسات والتدريبات ثماني سنوات، كنت أعمل خلالها ما بين عشرة وخمس عشرة ساعة في اليوم، وبعد انتهاء يوم العمل كنت آخذ نوبة حراسة، وخلال الليل كنت أراجع قواعد كل صناعة على الطبيعة.

وعلم (الميكادو) –الحاكم الياباني– بأمري فأرسل لي من ماله الخاص خمسة آلاف جنيه إنجليزي ذهب اشتريت بها أدوات مصنع محركات كاملة، وأدوات وآلات، وعندما أردت شحنها إلى اليابان كانت النقود قد فرغت، فوضعت راتبي وكل ما ادخرته.

وعندما وصلت إلى (نجازاكي) قيل لي: إن (الميكادو) يريد أن يراني، قلت: لن أستحق مقابلته إلا بعد أن أنشئ مصنع محركات كاملاً، استغرق ذلك ٩ سنوات، وفي يوم من الأيام حملت مع مساعدي عشرة محركات (صنع في اليابان)، قطعة قطعة، حملناها إلى القصر، ودخل (الميكادو) وانحنينا نحييه وابتسم وقال: هذه أعذب موسيقى سمعتها في حياتي، صوت محركات يابانية خالصة، هكذا ملكنا (الموديل) وهو سر قوة الغرب، نقلناه إلى اليابان، نقلنا قوة أوربا إلى اليابان ونقلنا اليابان إلى الغرب)[١].

١- مجلة المجتمع العدد (٩٩٨)، و«الهمة طريق القمة» (ص٢٩-٣١).



مواقفهم وقصصهم



عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. الإمام، القدوة، شيخ الإسلام، أبو عبد الرحمن القرشي، العدوي، المكي، ثم المدني.

أسلم وهو صغير، ثمَّ هاجر مع أبيه، واستُصغِر يوم أحد، فأول غزواته الخندق، وهو ممَّن بايع تحت الشجرة.

روى: علمًا كثيرًا نافعًا عن: النبي ﷺ وعن: أبيه، وأبي بكر، وعثمان، وعلي، وبلال، وصهيب، وعامر بن ربيعة، وزيد بن ثابت، وزيد عمه، وسعد، وابن مسعود، وعثمان بن طلحة، وأسلم، وحفصة أخته، وعائشة، وغيرهم[١].

عن سالم عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان الرجل في حياة النبي ﷺ إذا رأى رؤيا قصها على رسول الله ﷺ، وكنت غلامًا شابًا، وكنت أنام في المسجد على عهد رسول الله ﷺ، فرأيت في النَّوم كأنَّ ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النَّار؛ فإذا هي مطوية كطي البئر، وإذا لها قرنان، وإذا فيها أناس قد عرفتهم فجعلت، أقول: أعوذ بالله من النار.

قال: فلقينا ملك آخر، قال لي: لم ترع.

١- السير (٣/٢٠٤-٢٤١)، وفيه، وفي «طبقات ابن سعد» (٤/١٤٤)، و«حلية الأولياء» (١/٢٩٤). قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ من أملكِ شباب قريش لنفسه عن الدنيا عبد الله بن عمر».
وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ما منَّا أحدٌ أدرك الدنيا إلا وقد مالت به، إلا ابن عمر».
وقال ابن المسيب: «لو شهدتُ لأحدٍ أنَّه من أهل الجنة، لشهدتُ لابن عمر».

فقصصتها على حفصة فقصتها حفصة على رسول الله ﷺ فقال: «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل». فكان بعد لا ينام من الليل إلا قليلًا[١].

زاذان أبو عمر الكندي (ت ٨٢هـ) يقول: كنت غلامًا حسن الصوت، جيد الضرب بالطنبور، فكنت مع صاحب لي، وعندنا نبيذ، وأنا أغنيهم، فمر ابن مسعود رضي الله عنه، فدخل، فضرب الباطية[٢] بددها، وكسر الطنبور، ثمَّ قال: «لو كان ما يسمع من حسن صوتك يا غلام بالقرآن، كنت أنت أنت!».

ثمَّ مضى، فقلت لأصحابي: من هذا؟

قالوا: هذا ابن مسعود -رضي الله عنه-.

فألقى في نفسي التوبة، فسعيتُ أبكي، وأخذتُ بثوبه، فأقبل عليَّ، فاعتنقني، وبكى، وقال: «مرحبًا بمن أحبه الله، اجلس»[٣].

١- رواه البخاري (١٠٧٠)، ومسلم في «صحيحه (٢٤٧٩)، وهذا وإن لم يكن في صلب الموضوع؛ ففي إيراده خير وفائدة.

٢- الباطية: الناجود، وهو كل إناء يجعل فيه الخمر.

٣- روى البخاري في «صحيحه» (٦٣٩٨)، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه:أنَّ رجلاً على عهد النبي ﷺ كان اسمه (عبد الله)، وكان يلقب حماراً، وكان يضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأتي به يوماً فأُمِر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به؟ فقال النبي ﷺ : «لا تلعنوه؛ فوالله ما علمت إلا أنَّه يحب الله ورسوله».
وفي «حلية الأولياء» (٢٣٢/٤) عن مغيرة، قال: كان رجل على حال حسنة فأحدث، أو أذنب ذنبًا فرفضه أصحابه ونبذوه، فبلغ إبراهيم ذلك فقال: «تداركوه وعظوه، ولا تدعوه».

ثمَّ دخل، وأخرج لي تمرًا.

قال زبيد: «رأيت زاذان يصلي كأنَّه جذع»[1].

ولازم عبد الله بن مسعود ﵁ حتَّى تعلَّم القرآن وأخذ حظًا من العلم حتى صارَ إمامًا في العلم.

وروى عن عبد الله بن مسعود وسلمان ﵄ وغيرهما[2].

١- السير (٤/٢٨١).

٢- التوابين لابن قدامة (ص١٢٤)، وما أشبه هذا بما ذكره أبو بكر المالكي في «رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم» (٢/١٦٣-١٦٤)، في ترجمة: (أبي الغصن السوسي ت ٣٠٩ هـ)، وذلك أنَّه كان في جواره شاب بطّال ممعن في الملاهي. وأبو الغصن في كل ذلك لا يتجهم في وجه الشاب خوفًا أن يشرد منه، فأقيمت الصلاة يومًا في مسجد أبي الغصن، فقال أبو الغصن للشاب: تقدّم فصلّ بنا (فامتنع الفتى، فعزم عليه أبو الغصن وتقدم فصلّى بأبي الغصن) فلمَّا انقضت الصلاة رجع الشاب فلم يدع في بيته مسكرا ولا أداة ولا ملاهي إلاّ أهرق وكسر ثمَّ عاود العمل الصالح ونزع عمّا كان عليه ونفعه الله تعالى بتلطفِ أبي الغصن ورفقه به.

ويشبه القصة أيضًا: بما رواه الخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٤٤٨) بسندٍ ضعيف، عن عمرو بن قيس، عن ثور الكندي، أنَّ عمر بن الخطاب ﵁ كان يعسُّ بالمدينة من الليل، فسمع صوت رجل في بيت يتغنى، فتسور عليه، فوجد عنده امرأة، وعنده خمراً، فقال: يا عدو الله، أظننت أن الله يسترك وأنت على معصيته؟

فقال: وأنت يا أمير المؤمنين، لا تعجل عليَّ، إنْ أكن عصيت الله واحدة، فقد عصيت الله في ثلاث!!

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢]، وقد تجسست.

وقال الله ﷻ: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقد تسورت عليَّ، ودخلت عليَّ من ظهر البيتِ بغير إذن.

وقال الله ﷻ: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]، فقد دخلت بغير سلام.

قال عمر: فهل عندك من خيرٍ إنْ عفوت عنك؟

قال: «نعم، والله يا أمير المؤمنين، لئن عفوت عنِّي لا أعودُ لمثلها أبدًا، قال: فعفا عنه،

عبد العزيز بن مروان (ت ٨٥هـ). قال محمد بن الحارث المخزومي:

دخل رجل على عبد العزيز بن مروان يشكو إليه صهرًا له.

فقال: إن ختني فعل بي كذا وكذا، فقال له عبد العزيز مَن ختنَك؟

فقال: الذي يختن النَّاس!

فقال عبد العزيز لكاتبه: ويحكَ ما هذا الجواب؟

فقال: أيُّها الأمير إنَّك لحنت والرجل يعرف اللَحنة، وقال: ينبغي أن تقول له: من ختنُك بالضم.

فقال عبد العزيز: أراني أكلم بكلام لا يعرفه العرب؟ والله لا شاهدت النَّاس حتى أعرف اللحن، فأقام في بيته جمعة لا يظهر ومعه من يعلمه العربية، فصلى بالناس الجمعة الأخرى وهو من أفصح الناس، ثمَّ كان بعد ذلك يعطي على العربية، ويحرم على اللحن، فجَاءَه قوم من قريش زوارًا، فجعل يقول للرجل منهم: من أنت؟

فيقول: من بني فلان فيعطيه مائتي دينار، فسأل رجلًا منهم، فقال: من بنو عبد الدار، فقال للكاتب: «خذ من جائزته مائة دينار، وأعطاه مائة دينار»[1].

وخرج وتركه».

١- الوافي بالوفيات للصفدي (١٨/٣٤٤) قال ابن سعد: «كان ثقة». وقال عند الموت: «يا ليتني لم أكن شيئًا، يا ليتني كنت مثل هذا الماء الجاري».

التابعي الجليل سعيد بن جبير (ت ٩٥هـ). التمس منه أستاذه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما نبوغًا، وذلك أنَّه قال: قال لي ابن عباس: ممَّن أنت؟

قلت: من بني أسد.

قال من عربهم أو من مواليهم؟

قلت: لا بل من مواليهم.

قال: فقل أنا ممَّن أنعم الله عليه من بني أسد.

وقال سعيد بن جبير: رآني أبو مسعود البدري في يوم عيد ولي ذؤابة فقال: «يا غلام أو يا غليم إنَّه لا صلاة في مثل هذا اليوم قبل صلاة الإمام، فصل بعدها ركعتين وأطل القراءة.

وذهبت الأيام وإذ بابن عباس يقول لسعيد بن جبير: «حدث».

فقال: أحدث وأنت هاهنا؟

فقال: «أوليس من نعمة الله عليك أن تتحدث وأنا شاهد؛ فإن أصبت فذاك، وإن أخطأت علمتك؟»[١].

وعن مغيرة، قال: قيل لسعيد بن جبير: تعلم أحدًا أعلم منك؟ قال: نعم، عكرمة.

فلمَّا قتل سعيد بن جبير قال إبراهيم: ما خلَّف بعده مثله، قال: وقال

١- الطبقات الكبرى لابن سعد (٦/٢٦٧-٢٦٨).

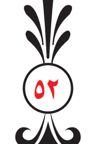
الشعبي لما بلغه موت إبراهيم: أهلك الرجل؟

قال: فقيل له: نعم.

قال: لو قلت أنعي العلم: ما خلف بعده مثله[1].

وعن أشعث بن إسحاق قال: كان يقال لسعيد بن جبير: «جهبذ العلماء».

وعن هلال بن يساف قال: «دخل سعيد بن جبير الكعبة فقرأ القرآن في ركعة»[2].





١- العلم لزهير بن حرب (ت ٢٣٤هـ) رقم (٣١).
٢- تاريخ الإسلام (٢/١١٠٠).

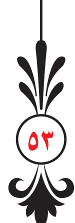
عكرمة مولى عبد الله بن عباس (ت ١٠٥هـ). أصله بربري من أهل المغرب، وهو من كبار التابعين، ويكنى أبا عبد الله، مات ابن عباس وهو عبد فاشتراه خالد بن يزيد ابن معاوية من علي بن عبد الله بن عباس بأربعة آلاف دينار فبلغ ذلك عكرمة فأتى عليًا، فقال: بعت علم أبيك بأربعة آلاف دينار، فراح علي إلى خالد فاستقاله فأقاله فأعتقه.

يقول عكرمة: «كان ابن عباس يجعل في رجلي الكبل ويعلمني القرآن والسنن»[١].

ولم تذهب السنين حتى صار إمامًا، كما قال شهر بن حوشب: «عكرمة حبر الأمة».

وقال قتادة: «أعلم النّاس بالتفسير عكرمة» وأفتى في حياة مولاه، وقال: «طلبتُ العلم أربعين سنة»[٢]. ودخل رحمه الله إفريقية وأقام بالقيروان، وبثَّ بها العلم[٣].

وذكر ابن سعد، عن عمرو بن دينار، قال: دفع إليَّ أبو الشعثاء مسائل أسأل عنها عكرمة، وقال: «هذا البحر فاسألوه»[٤].



١- صفة الصفوة (٢/١٠٣).
٢- تاريخ الإسلام (٣/١٠٦).
٣- طبقات علماء القيروان (١/١٤٦).
٤-تهذيب الأسماء واللغات (١/٣٤١).

زاهد البصرة وعالمها حبيب بن مُحَمَّد العجمي (ت ١١٩هـ).

قال مُحَمَّد بْن يَحْيَى بْن أَبِي حاتم الأزدي، عن جعفر بْن أَبِي جعفر الرازي: حَدَّثَنِي أَبُو جَعْفَرٍ السائح، قال: كَانَ حبيب رجلًا تاجرًا يعير الدراهم، فمرَّ ذات يوم بصبيان يلعبون، فَقَالَ بعضهم: قد جاء آكلُ الربا! فنكسَ رأسه، وَقَال: يا رب أفشيت سري إلى الصبيان، فرجع فلبس مدرعة من شعر وغلَّ يدَه، ووضع ماله بين يديه، وجعل يقول: يا رب إنِّي اشتري نفسي منك بهذا المال فأعتقني، فلما أصبح تصدق بالمال كله، وأخذ في العبادة فلم يُر إلا صائمًا، أو قائمًا، أو ذاكرًا، أو مصليًا، فمرَّ ذاتَ يومٍ بأولئك الصبيان الذين كانوا عيروه بأكلِ الربا، فلمَّا نظروا إليه، قال بعضهم: اسكتوا، فقد جاء حبيب العابد، فبكى وَقَال: «يا رب أنت تذم مرة وتحمد مرة فكل من عندك»، فبلغ من فضله أنه كَانَ يقال: إنه مستجاب الدعاء[1].

١- تهذيب الكمال (٥/٣٩٠)، روى عن الحسن البصري، وشهر بن حوشب. وعنه: حماد بن سلمة، ومعتمر بن سليمان، وجماعة.

الإمام ربيعة بن عبد الرحمن ربيعة الرأي (ت ١٣٦هـ). عن عبد الرحمن بن زيد قال: مكث ربيعة دهرًا طويلًا يصلي الليل والنَّهار، ثمَّ نزع عن ذلك إلى أن جالس العلماء فجالس القاسم فنطق بلب وعقل، فكان القاسم إذا سئل عن شيءٍ، قال: سلوا هذا -لربيعة- وصار ربيعة إلى فقه وفضل وعفاف، وما كان بالمدينة رجل أسخى منه(١).

الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطى (ت ١٥٠هـ) يقول: مررت يوماً على الشعبي وهو جالس، فدعاني، فقال لي: إلى من تختلف؟

فقلت: اختلف إلى السوق.

فقال: لم أعنِ الاختلاف إلى السوق، عنيتُ الاختلاف إلى العلماء.

فقلت له: أنا قليل الاختلاف إلى العلماء.

فقال لي: لا تفعل، عليك بالنَّظرِ في العلم ومجالسة العلماء؛ فإنِّي أرى فيك يقظة وحركة.

قال: «فوقع في قلبي من قوله، فتركت الاختلاف إلى السوق، وأخذت في العلم فنفعني الله بقوله»(٢).

١- تاريخ الإسلام (٦٤٧/٣)، قال النووي في «تهذيب الأسماء واللغات» (١/١٨٩-١٩٠): يقال له: ربيعة الرأي، بالهمز؛ «لأنَّه كان يعرف بالرأي والقياس».
وقال: «واتفق العلماء من المحدثين وغيرهم على توثيقه وجلالته، وعظم مرتبته في العلم والفهم».

٢- النكت في المسائل المختلف فيها بين الشافعي وأبي حنيفة لأبي إسحاق الشيرازي

قال السمعاني في حديثه عن صنعة (الخزاز): اشتهر بهذه الصنعة والحرفة جماعة من أهل العراقين من أئمة الدين وعلماء المسلمين، فأمَّا من أهل الكوفة أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي مع تبحره في العلم وغوصه على دقائق المعاني وخفيها كان يبيع الخز ويأكل منه طلبًا للحلال. وقيل: كان ذلك في ابتداء أمره ثمَّ ترك[1].

ويُحكى أنَّ أبا حنيفةَ أتى حمَّادًا فقال له: ما جاءَ بك؟ قال: أطلبُ الفِقهَ.

قال: «تعلَّم كلّ يومٍ ثلاثَ مسائل ولا تزِد عَليها شيئًا حتى يتَّفقَ لك شيءٌ من العلم» ففعل، ولزم الحلقةَ حتى فَقِه، فكان النَّاسُ يُشيرون إليه بالأصابع[2].

وقال الإمام أبو يوسف: «كنت أمشي مع أبي حنيفة إذ سمعت رجلًا، يقول لآخر: هذا أبو حنيفة لا ينام الليل، فقال أبو حنيفة: والله لا يتحدث عني ما لا أفعل! فكان يحيي الليل صلَاة ودعاءً وتضرعًا»[3].

ورأى الإمام أبو حنيفة غلاماً يلعب بالطين، فقال له: «يا غلام، إياك والسقوط في الطين، فقال الغلام للإمام: إياك أنت من السقوط، لأن

(ص٦٩)، ونحوه «تنوير بصائر المقلدين» لمرعي الكرمي (٢/٨٣).

١-الأنساب للسمعاني (٥/١١١).

٢- الفقيه والمتفقه (٢/٢٠١)، وهذا من فوائد سماع الطالب لنصائحِ أستاذه.

٣- مناقب أبي حنيفة للذهبي (ص٢١).



سقوط العالِم سقوط العالَم». فكان أبو حنيفة لا يفتي بعد سماع هذه الكلمة إلا بعد مدارسة المسألة شهرًا كاملاً مع تلامذته[1].

الإمام الحجة أبو بسطام شعبة بن الحجاج بن الورد الأزدي العتكي مولاهم الواسطي (ت ١٦٠هـ).

قال الأصمعي: لم نرَ قط أعلم من شعبة بالشعر، قال لي: كنت ألزم الطرماح فمررت يومًا بالحكم بن عتيبة، وهو يحدث فأعجبني الحديث، وقلت: «هذا أحسن من الشعر فمن يومئذٍ طلبت الحديث»[2].

قاضي مكة الأوقص محمد بن عبد الرحمن بن هشام (ت ١٦٩هـ).

قال أبو إسحاق: وكان محمد بن عبد الرحمن الأوقص عنقه داخلًا في بدنه، وكان منكباه خارجين كأنَّهما زجان، فقالت له أمه: «يا بنيَّ لا تكون في قوم، إلا كنت المضحوك منه المسخور به، فعليك بطلب العلم، فإنَّه يرفعك»، قال: فطلب العلم[3].

١- مقدمة حاشية ابن عابدين (١/٦٧).

٢- تاريخ الإسلام (ترجمة: شعبة) (٤/٧١) وكان الثوري يعظمه، ويقول: «هو أمير المؤمنين في الحديث».

وقال الشافعي: «لولا شعبة لما عرف الحديث بالعراق».

٣- الفقيه والمتفقه (١/١٤٠)، والزج: الحديدة في أسفل الرمح.

لكلّ شيءٍ حسن زينةٌ   وزينةُ العالِمِ حسنُ الأدبِ

قد يَشرفُ المرءُ بآدابهِ   فينا وإنْ كان وضيع النَّسب[١]

وقيل عنه: أنَّه كان قصيرًا دميمًا جدًا وعنقه داخلًا في بدنه ومنكباه خارجان كأنهَّما رحيان، وكان الخصم إذا جلس بين يديه لا يزال يرعد إلى أن يقوم، سمعته امرأة يومًا وهو يقول: اللهم أعتق رقبتي من النار.

فقالت: وأي رقبة لك؟

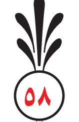
قالت له أمه: إنَّك خلقت خلقة لا تصلح معها لمعاشرة الفتيان، فعليك بالدِّين والعلم؛ فإنهَّما يتممان النقايص ويرفعان الخسايس، قال: فنفعني الله بما قالت، وتعلمت العلم حتَّى وليت القضاء[٢]. وكان قاضي مكة رحمه الله.

وكأنَّ لسان حاله:

لاَ تنظُرنّ إلى جِسْمِي وقلّتِهِ   وانظر لصدري وما يحوي من السُّننِ

فربَّ ذي منظرٍ مِنْ غيرِ مَعرفةٍ   ورُبَّ مَن تَزْدَرِيهِ العَينُ ذو فِطَنِ

ورُبَّ لُؤلُؤةٍ في عَيْنِ مِزْبلةٍ   لَمْ يُلْقَ بالٌ لهَا إلاَّ إلى زَمَنِ[٣]



١- معجم الأدباء (٢٠/١).
٢- الوافي بالوفيات (١٨٦/٣).
٣- نفح الطيب للتلمساني (٨/٢).

عمرو بن عثمان الحارثي المعروف بـ(سيبويه) (ت ١٨٠هـ). روى عبيد الله بن معاذ، قال: جاء سيبويه إلى حماد فقال: أحدثك هشام عن أبيه، في رجل رعُف في الصلاة فانصرف.

فقال له: أخطأت، إنَّما هو رَعَف.

فانصرف إلى الخليل، فسأله، فقال: صدق حماد.

قال المخزومي، وكان كثير المجالسة للخليل: ما سمعته يقول: مرحبًا بزائرٍ لَا يُمَلُّ إلا لسيبويه[1].

القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري (ت ١٨٢هـ).

قال: توفي أبي وأنا صغير، فأسلمتني أمي إلى قصار، فكنت أمر على حلقة أبي حنيفة، فأجلس فيها، فكانت أمي تتبعني، فتأخذ بيدي من الحلقة وتذهب بي إلى القصار، ثمَّ كنت أخالفها في ذلك وأذهب إلى أبي حنيفة، فلمَّا طال ذلك قالت أمي لأبي حنيفة: إن هذا صبي يتيم، ليس له شيء إلا ما أطعمه من مغزلي، وإنك قد أفسدته علي.

١- تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم للتنوخي (ص٩٣)، وذكر سببًا آخر بنحو المذكور، وهو أنَّه لزم حلقة حماد بن سلمة فاستملى منه يومًا قول النبي ﷺ: «ليس أحد من أصحابي إلا لو شئت أخذت عليه، ليس أَبَا الدَّرداء»، فقال سيبويه: ليس أَبُو الدَّرداء.

فقال له أبو حماد: لحنت يا سيبويه، ليس هذا حيث ذهبت.

فقال: سأطلب علمًا لا تلحنني فيه. فلزم الخليل.

فقال لها: اسكتي يا رعناء، ها هو ذا يتعلم العلم، وسيأكل الفالوذج بدهن الفستق.

فقالت له: إنك شيخ قد خرفت.

قال أبو يوسف: فلمَّا وليت القضاء -وكان أول من ولاه القضاء الهادي-.

قال أبو يوسف: فبينا أنا ذات يوم عند الرشيد إذ أتي بفالوذج وكنت لا أعرفها.

فقال لي: كل من هذا؛ فإنَّه لا يصنع لنا كل وقت.

فقلت: وما هذا يا أمير المؤمنين؟

فقال: هذا الفالوذج.

قال: فتبسمت.

فقال: ما لك تتبسم؟

فقلت: لا شيء، أبقى الله أمير المؤمنين.

فقال: لتخبرني: فقصصت عليه القصة من أولها.

فقال: إنَّ العلم ينفع ويرفع في الدنيا والآخرة. ثمَّ قال: «رحم الله أبا حنيفة، فلقد كان ينظر بعين عقله ما لا يراه بعينِ رأسه»[1].

وقال أبو حنيفة لأبي يوسف: «كنتُ بليدًا أخرجتك المواظبةُ، وإيَّاك

١- البداية والنهاية (٦١٦/١٣).

والكسلَ؛ فإنَّـه شؤمٌ وآفـةٌ عظـيمةٌ»[١].

وقال الفضل بن غانم: كان أبو يوسف مريضًا شديد المرض، فعاده أبو حنيفة مرارًا، فصار إليه آخر مرة فرآه ثقيلًا، فاسترجع، ثمَّ قال: لقد كنت أؤملك بعدي للمسلمين، ولئن أصيب النَّاس بك ليموتنَّ معك علم كثير، ثمَّ رزق العافية، وخرج من العلة، فأخبر أبو يوسف بقول أبي حنيفة فيه، فارتفعت نفسه، وانصرفت وجوه الناس إليه، فعقد لنفسه مجلسًا في الفقه، وقصر عن لزوم مجلس أبي حنيفة، فسأل عنه، فأخبر أنَّه قد عقد لنفسه مجلسًا، وأنَّه قد بلغه كلامك فيه فدعا رجلًا كان له عنده قدر، فقال: صر إلى مجلس يعقوب فقل له: ما تقول في رجل دفع إلى قصار ثوبا ليقصره بدرهم، فصار إليه بعد أيام في طلب الثوب، فقال له القصار: مالك عندي شيء وأنكره، ثمَّ إن رب الثوب رجع إليه فدفع إليه الثوب مقصورا، أله أجرة؟ فإنْ قال: له أجرة، فقل: أخطأت، وإن قال: لا أجرة له، فقل: أخطأت، فصار إليه، فسأله، فقال أبو يوسف: له الأجرة، فقال: أخطأت، فنظر ساعة، ثمَّ قال: لا أجرة له، فقال: أخطأت، فقام أبو يوسف من ساعته، فأتى أبا حنيفة، فقال له: ما جاء بك إلا مسألة القصار؟ قال: أجل، قال: سبحان الله، من قعد يفتي

١- تعليم المتعلم (ص٩٢).

الناس، وعقد مجلسًا يتكلم في دين الله، وهذا قدره لا يحسن أن يجيب في مسألة من الإجارات، فقال: يا أبا حنيفة، علمني، فقال: أن كان قصره بعدما غصبه فلا أجرة له لأنَّه قصره لنفسه، وإن كان قصره قبل أن يغصبه فله الأجرة لأنه قصره لصاحبه، ثمَّ قال: من ظنَّ أنه يستغني عن التعلم فليبك على نفسه[1].



١- تاريخ بغداد (١٥/٤٧٣).

أبو معاوية السلمي الواسطي هُشَيْمُ بنُ بشير (ت ١٨٣هـ). كان أبوه طباخاً للحجاج بن يوسف الثقفي، ثمَّ كان بعد ذلك يبيع الصحناة والكوامخ[١]، وكان يمنع ابنه من طلب العلم ليساعده على صناعته، فيأبى إلا أن يسمع الحديث. فاتفق أنَّ هشيمًا مرض، فجاءه أبو شيبة قاضي واسط ليعوده، ومعه خلق من النَّاسِ، فلمَّا رآه بشير فرِح بذلك، وقال له: «يا بنيَّ، أبلغَ مِن أمرِك أن جاء القاضي إلى منزلي؟! لا أمنعك بعد هذا اليوم من طلب الحديث»[٢].

١-المخللات، أو ما يؤتدم به.

٢- البداية والنهاية (١٣/٦٢٤)، و«تاريخ بغداد» (١٦/١٣٠).

الأستاذ الإمام شيخ الإسلام، الفضيل بن عياض (ت ١٨٧هـ).

عن الفضل بن موسى، قال: كان الفضيل بن عياض شاطرًا يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وكان سبب توبته أنَّه عشق جارية، فبينا هو يرتقي الجدران إليها، إذ سمع تاليًا يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُم . . . ﴾ [الحديد: ١٦]. فلمَّا سمعها، قال: بلى يا رب، قد آن.

فرجع، فآواه الليل إلى خربةٍ، فإذا فيها سابلة، فقال بعضهم: نرحل.

وقال بعضهم: حتَّى نصبح، فإنَّ فضيلًا على الطريق يقطع علينا.

قال: ففكرت، وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقوم من المسلمين ها هنا يخافوني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إنِّي قد تبت إليك، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام[١].

وكان الفضيل يقطع الطريق وحده فخرج ذات ليلة ليقطع الطريق فإذا هو بقافلة قد انتهت إليه ليلًا فقال: بعضهم لبعض: اعدلوا بنا إلى هذه القرية فإنَّ أمامنا رجلًا يقطع الطريق يقال له: الفضيل.

قال: فسمع الفضيل فأرعد فقال: يا قوم! أنا الفضيل جوزوا والله لأجتهدنَّ ألا أعصي الله أبدًا فرجع عمَّا كان عليه.

وروي من طرق أخرى: أنَّه أضافهم تلك الليلة وقال: أنتم آمنون من

١- السير (٨/٤٢٣).

الفضيل وخرج يرتاد لهم علفًا، ثمَّ رجع فسمع قارئًا يقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] قال: بلى والله قد آن! فكان هذا مبتدأ توبته[١].

ثمَّ صار الفضيل بن عياض الإمام العالم الزاهد العابد، قال إبراهيم بن شماس: قال ابن المبارك: «ما بقي على ظهر الأرض عندي أفضل من الفضيل بن عياض».

وقال أحمد بن عباد التميمي المروزي: سمعت النضر بن شميل، قال: سمعت هارون الرشيد يقول: «ما رأيت في العلماء أهيب من مالك، ولا أورع من الفضيل»[٢].

١- التوابين (ص١٢٧).
٢- تاريخ الإسلام (٤/٩٤٢).

الإمام محمد بن حسن الشيباني (ت ١٨٩هـ). قال الشيخ الأجلَّ الأستاذ فخر الدين الكاشاني: كانت جارية أبي يوسف أمانةٌ عند محمد بن الحسن فقال لها: هل تحفظين أنت في هذا الوقت عن أبي يوسف في الفقه شيئاً؟

قالت: لا، إلا أنَّه كان يكرر ويقول: «سهم الدور ساقط»، فحفظ ذلك منها، وكانت تلك المسألة مشكلة على محمد فارتفع إشكاله بهذه الكلمة. فَعُلِم أنَّ الاستفادة ممكنة من كل أحد[1].

١- تعليم المتعلم (ص١٠٥-١٠٦).

الإمام، شيخ القراءة والعربية، أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله الكسائي (ت ١٨٩هـ) ولقب: «بالكسائي»؛ لكساء أحرم فيه.

قال أبو يزيد الوضاحي: قال لي الفراء: «إنَّما تعلم الكسائي النحو على الكبر»[١]، وكان سبب تعلمه: أنَّه جاء يومًا وقد مشى حتى أعيا، فجلس إلى الهبارين فَقَالَ: قد عييت. فقالوا له: أتجالسنا وأنت تلحن؟! فَقَالَ: كيف لحنت؟

فقالوا لَهُ: إن كنت أردت من التعب فقل أعييت، وإن كنت أردت من انقطاع الحيلة والتدبير والتحير في الأمر فقل: عييت- مخففة فأنف من هذه الكلمة وقام من فوره، فسأل عمن يعلم النحو. فأرشدوه إلى معاذ الهرا، فلزمه حتى أنفذ ما عنده، ثم خرج إلى البصرة[٢].

وعن خلف، قال: «كنت أحضر بين يدي الكسائي وهو يتلو، وينقطون على قراءته مصاحفهم».

١- السير (٩/١٣٣-١٣٤).

٢- المنتظم (٦/١٦٩)، و«تاريخ بغداد» (١٥/٣٤٥). أحد أئمة القراء من أهل الكوفة، استوطن بغداد، وكان يعلم بها الرشيد، ثم الأمين من بعده، وكان قد قرأ على حمزة الزيات، فأقرا ببغداد زمانا بقراءة حمزة، ثم اختار لنفسه قراءة فأقرأ بها الناس، وقرأ عليه بها خلق كثير ببغداد وبالرقة وغيرهما من البلاد، وحفظت عنه. وصنَّف (معاني القرآن)، و(الآثار في القراءات)، وكان قد سمع من سليمان بن أرقم، وأبي بكر بن عياش، ومحمد بن عبيد الله العرزمي، وسفيان بن عيينة، وغيرهم..

قال الشافعي: «من أراد أن يتبحر في النحو، فهو عيال على الكسائي»[١].

وعَن أبي حاتم سهل بن محمد السجستاني، قال: ولِّي رجل من أهل الكوفة من بني هاشم أعمال البصرة فدخلت عليه مُسلِّمًا، فقال: مَنْ علماؤكم بالبصرة؟ قلت: المازنيُّ من أعلمهم بالنحو، والرياشي من أعلمهم بعلم الأَصْمَعِيّ، والزيادي من أعلمهم بعلم أبي زيد، وهلال الرأي من أعلمهم بالرأي، وابن الشاذكوني من أرواهم للحديث، وابن الكلبي من أكتبهم للشروط، وأنا -أصلحك الله- أُنسب إلى العلم بالقرآن.

فقال لكاتبه: اجمعهم عندي. فجمعنا عنده، فقال: أيُّكم أَبُو عثمان المازني؟ قال: ها أنا ذا. قال: ما تقول فِي كفارة الظهار، أيجوز فيه عتق غلام أعور؟ قال: وما علمي بهذا، علمه عند هلال، فالتفت إلى هلال، فقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ علَام انتصبت؟ قال: وما علمي بهذا، عِلمهُ عند الرياشي.

فالتفت إلى الرياشي، فقال: كم حديثًا روى ابن عون عَنِ الحسن؟ قال: وما علمي بهذا، علمه عند ابْن الشاذكوني. فالتفت إلى ابن الشاذكوني، فقال: ما العُنْجُد فِي كلام العرب؟ قال: وما علمي بهذا، عِلمه عند ابن الزِّيادي. فالتفت إلى الزيادي، فقال: كيف تكتب وثيقة بين رجل وامرأة

١- السير (١٣٢/٩).

أرادت الخلع بترك صداقها؟ قال: وما عِلمي بذا، عِلمه عند ابْن الكلبي. فالتفت إلى ابن الكلبي، فقال: ألا إنهم تَثنَّوني صدورهم من قرابة. قال: وما علمي بذا، علمه عند ابن السجستاني، فالتفت إليَّ فقال: كيف تكتب كتابًا إلى أمير المؤمنين تذكر فيه خصاصة أهل البصرة وما نالهم من الضياع فِي نخلهم؟ قلت: أصلحك اللَّه لستُ صاحب بلاغةٍ ولا أُحسنُ إنشاءَ الكُتُبِ إلى السلطان. فقال: ما مثلكم إلا مثل الحمار، يسعى الرجل فِي الفنِ الواحد خمسين سنة ثمَّ يزعم أنَّه عالمٌ، لكن عالمنا بالكوفة لو سُئِل عَنْ هذا كُلِّه لأجاب. قيل: إنَّه أراد الكسائي، واللَّه أعلم[1].

١-تهذيب الكمال (١٢/٢٠٦-٢٠٧).

المنذرَ بنَ عبد الله (ت ١٩٧هـ). قال أبو الحسن المدائني: سمعتُ المنذرَ بنَ عبد الله قال: رَوَيْتُ الشعرَ ثلاث عشرة سنة قبل أن أروي الحديث.

فلقي أبي هشامَ بنَ عُروة فقال له هشام: بلغَني أن ابنَك يروي الشعر.

قلت: نعم. قال: فأرسِلْهُ إليَّ.

قال المنذر: فانْصَرَف إليَّ أبي مسرورًا، قد استعار لي حمارًا، وقال لي: أُغْدُ إلى هشام بن عُروة بالعقيق، فإنه قد استزارك.

قال: فغدوتُ عليه، فوجدته جالسًا في مجلس بِئْرِ عُروة، فسلمتُ عليه وجلستُ معه.

فقال: بلغني أنّك تروي الشعرَ.

قلتُ: نعم.

قال: فلأيِّ العرَب أنت أَرْوَىٰ؟

قلتُ: لبني سُلَيْم.

قال: فترْوي لِفُلَان كَذا، وتروي لفلان كَذا.

فجعل يُنشدني لشعراء من شعراء بني سليم ما لم أكن سمعتُ بهم!

قال: ثمَّ قال لي: «يا ابن أخي، اطلب الحديث، فما أحسنَ العِلمَ بالحديث مع العلم بالشعر».

قال: فمن ذلك اليوم رويتُ الحديث![1].

الحافظ عبد الله بن وهب بن مسلم الفهري مولاهم الإمام، شيخ الإسلام، أبو محمد الفهري مولاهم، المصري (ت ١٩٧هـ).

طلب العلم وله سبع عشرة سنة، وكان من أوعية العلم، ومن كنوز العمل.

قال عبد الله بن وهب: كان أول أمري في العبادة قبل طلب العلم فولع بي الشيطان في ذكر عيسى ابن مريم عليه السلام كيف خلقه الله عز وجل؟ ونحو هذا، فشكوت ذلك إلى شيخ، فقال لي: ابن وهب.

قلت: نعم.

قال: «اطلب العلم؛ فكان سبب طلبي للعلم»[2]. ثمَّ بعد ذلك حدث عنه خلق كثير، وانتشر علمه، وبعُدَ صيته، وممن روى عنه: الليث بن سعد -شيخه- وعبد الرحمن بن مهدي، وجماعة كثر[3].

١- الفصوص لأبي العلاء صاعد بن الحسن الربعي، الفصّ (٤٧٨).

٢- جامع بيان العلم (١٢٨)، وعنه الذهبي في «السير» (٩/٢٢٤).

٣- في كتاب «الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء مالك والشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهم» (ص٤٩) عن الإمام الحافظ أحمد بن صالح قال: «حدثنا ابن وهب مائة ألف حديث، وما رأيت حجازيًا ولا شاميًا ولا مصريًا أكثر حديثا من ابن وهب؛ وقع عندنا منه سبعون ألف حديث».

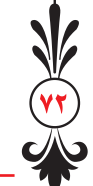
وفي «السير» (٩/٢٢٦) عن سحنون الفقيه، قال: «كان ابن وهب قد قسم دهره أثلاثًا، ثلثًا في الرباط، وثلثًا يعلم الناس بمصر، وثلثًا في الحج، وذكر أنَّه حجَّ ستًا وثلاثين حجة».

الإمام سفيان بن عيينة (ت ١٩٨هـ). قال: دخلت الكوفة ولم يتم لي عشرون سنة، فقال أبو حنيفة لأصحابه ولأهل الكوفة: جاءكم حافظ علم عمرو بن دينار. قال: «فجاء النَّاسُ يسألونني عن عمرو بن دينار، فأول من صيَّرني محدثاً أبو حنيفة»[١].

وقال غياث بن جعفر: سمعت ابن عيينة يقول: «أول من اسندني إلى الإسطوانة مسعر بن كدام».

فقلت: إني حدث.

فقال: إن عندك الزهري وعمرو بن دينار[٢].



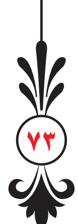
١- وفيات الأعيان (٢/٣٩٣).
٢- تهذيب الكمال (١١/١٨٨).

حسين بن علي الجعفي (ت ٢٠٤هـ). عن علي بن حرب، يقول: إنَّما حمَل حسين بن علي الجعفي على الحديث أنَّه رأى في النوم كأنَّه في روضَة خضراء، وفيها كراسي موضوعة على كرسي منها زائدة، وعلى الآخر الفضيل، وذكر رجالًا، وكرسي منها ليس عليه أحد، قال: فأهويت نحوه.

فقيل: لا تجلس.

فقلت: هؤلاء أصحابي أجلس إليهم.

قال: «إنَّ هؤلاء بذلوا ما استودعوا، وإنَّك منعته فأصبح يحدث»(١).



١- الجامع للخطيب (١/ ٣٢٤).

فقيه الأمة، وناصر السنة محمد بن إدريس الشافعي المطلبي (ت ٢٠٤هـ). يقول عنه مصعب بن عبد الله الزُّبَيْرِي: كان الشافعي في ابتداء أمره يطلب الشعر وأَيَّام الناس والأدب، ثمَّ أخذ في الفقه بَعْد.

قال: وكان سبب أخذه في الفقه أنَّه كان يومًا يسير على دابة له وخلفه كاتب لأبي، فتمثل الشافعي ببيت شعر، فقرعه كاتب أبي بسوط، ثمَّ قال له: مثلك تذهب مروءته في مثل هذا؟ أين أنت عن الفقه؟

قال: فهزه ذلك، فقصد مجالسة الزّنْجِيَ بن خالد -وكان مُفتِي مكة-. ثم قدم علينا فلزم مَالكَ ابنَ أنس[1].

وقال الإمام الشافعي عمَّا حصل بينه وبين مالك: ومن قصتي لما أن سمع كلامي نظر إليَّ ساعة -وكان لمالك فراسة- فقال لي: ما اسمك؟

فقلت: محمد.

فقال لي: يا محمد اتقِ الله واجتنب المعاصي؛ فإنَّه سيكون لك شأن من الشأن[2].

وكان يقول رحمه الله:

سَأَطْلُبُ عِلْمًا أَوْ أَمُوتُ بِبَلْدَةٍ   يَقِلُّ بِهَا هَطْلُ الدُّمُوعِ عَلَى قَبْرِي

١- مناقب الشافعي للبيهقي (١/٩٦).

٢- تاريخ دمشق (٥١/٢٨٦).

وَلَيْسَ اكْتِسَابُ الْعِلْمِ يَا نَفْسُ فَاعْلَمِي بِمِيرَاثِ آبَاءٍ كِرَامٍ وَلَا صِهْرِ
وَلَكِنَّ فَتَى الْفِتيَانِ مَنْ رَاحَ وَاغْتَدَى لِيَطْلُبَ عِلْمًا بِالتَّجَلُّدِ وَالصَّبْرِ
فَإِنْ نَالَ عِلْمًا عَاشَ فِي النَّاسِ مَاجِدًا وَإِنْ مَاتَ قَالَ النَّاسُ بَالَغَ فِي الْعُذْرِ
إِذَا هَجَعَ النُّوَامُ أَسْبَلْت عَبْرَتِي وَأَنْشَدْت بَيْتًا وَهُوَ مِنْ أَلْطَفِ الشِّعْرِ
أَلَيْسَ مِنْ الْخُسْرَانِ أَنَّ لَيَالِيًا تَمُرُّ بِلَا عِلْمٍ وَتُحْسَبُ مِنْ عُمْرِي[1]



١- غذاء الألباب (٢/٤٤٤).

الإمام، العلامة القاضي، الأمير، مقدم المجاهدين أسد بن الفرات أبو عبد الله الحراني ثمَّ المغربي (ت ٢١٣هـ).

قال بعضهم: ولد بحرّان من ديار بكر. وقيل: بل قدم أبوه وأمه حامل.

وهو أحد الكبار أصحاب مالك، روى (الموطأ) عنه، ورحل إلى الكوفة فأخذ عن أهلها.

قال أسد بن الفرات: لزمت أنا وصاحب لي مالكاً، فلمَّا أردنا الخروج إلى العراق أتيناه مودعين له، فقلنا له: أوصنا.

فالتفت إلى صاحبي وقال: أوصيك بالقرآن خيراً، والتفت إليَّ وقال: أوصيك بهذه الأمة خيراً.

قال أسد: «فما مات صاحبي حتى أقبل على العبادة والقرآن، وولي أسد القضاء»[1].

١- ترتيب المدارك (١٣٧/٢)، لله در الإمام مالك، صدق مع الله، فصدق حدسه، ووقع ما ظن حصوله، ونفع الله بكلامه وأثر في صاحبيه، إذ وصاهم وتفرس بالذي عندهم.
وبنحوه في «الجامع لأخلاق الراوي» (١٧٨١) عن يعقوب بن سفيان، قال: قال علي بن المديني: لما ودعت سفيان قال: «أما إنك ستبتلى بهذا الأمر وإن الناس سيحتاجون إليك فاتق الله ولتحسن نيتك فيه».

أبو زيد النحوي سعيد بن أوس بن ثابت الخزرجي الأنصاري (ت ٢١٥هـ). قال وكيع محمد بن خلف نا أبو العيناء، قال: سمعت أبا زيد النحوي، يقول: كان الذي حداني على طلب الأدب والنحو أني دخلت على جعفر بن سليمان فقال: ادنه فقلت: أنا دني، فقال: «لا تقل يا بني أنا دني؛ ولكن قل أنا دان»[١].

١- الجامع لأخلاق الراوي (١٠٧٦)، وانظر: «وفيات الأعيان» (٢/٣٧٩).

أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك الأصمعي (ت ٢١٦هـ). وعن أبي بكر بن دريد، أخبرنا عبد الرحمن، قال: سمعت عمي يحدث قال: «سهرت ليلة من الليالي بالبادية، وأنا نازل على رجل من أهل القصيم، وكان واسع الرحل، كريم المحل، فأصبحت وقد عزمت على الرجوع إلى العراق، فأتيت أبا مثواي، فقلت: إني هلعت من طول الغربة، واشتقت أهلي، ولم أفد في قدمتي هذه إليكم كبير علم، وإنما كنت أغتفر وحشة الغربة وجفاء البادية للفائدة.

فأظهر توجعًا، ثمَّ أبرز غذاء، فتغذيت معه، ثمَّ أمر بناقة له مهرية، كأنها سبيكة لجين فارتحلها، ثم ركب وأردفني وأقبلها مطلع الشمس، فما سرنا كبير مسير حتى لقينا شيخًا على حمار، فسلم عليه وقال: يا بن عم أتنشد أم تقول فقال: كلا.

قال: فأناخ، وقال: خذ بيد عمّك فأنزله عن حماره، ففعلت.

فقال: أنشدنا، رحمك الله، وتصدق على هذا الغريب بأبيات يعيهن عنك، ويذكرك بهن. فقال إيهًا... الله أكبر، وأنشد:

تَعَزَّ فإنَّ الصَّبْرَ بالحُرِّ أجْمَلُ ... وليسَ علىٰ رَيْبِ الزَّمانِ مُعَوَّلُ

فإنْ تَكُنِ الأيَّامُ فينا تبَدَّلَتْ ... ببُؤْسىٰ ونُعْمىٰ، والحوادثُ تَفْعَلُ

فما لَيَّنَتْ منَّا قَناةً صَلِيبةً ... ولا ذَلَّلَتْنا للَّذي ليسَ يَجْمُلُ



ولكنْ رَحَلْناها نُفُوسًا كَرِيمةً	تُحَمَّلُ ما لا يُسْتطاعُ فتَحْمِلُ
وَقيْنا بحُسْنِ الصَّبْرِ مِنَّا نُفُوسَنا	فصَحَّتْ لنا الأعْراضُ، والنَّاسُ هُزَّلُ

قال الأصمعي: فقمت، والله، وقد أنسيت أهلي، وهان عليَّ طول الغربة، وشظف العيش، سرورا بما سمعت. ثمَّ قال: «يا بنيَّ من لم يكن استفادة الأدب أحب إليه من الأهل والمال لم ينجب»[1].

وقال: كنت بالبصرة أطلب العلم، وأنا مقل، وكان على باب زقاقنا بقال، إذا خرجت باكرا؛ يقول لي: إلى أين؟ فأقول: إلى فلان المحدث، وإذا عدت مساء؛ يقول لي: من أين؟ فأقول: من عند فلان الأخباري، أو اللغوي.

فيقول: يا هذا، اقبل وصيتي، أنت شاب، فلا تضيع نفسك، واطلب معاشا يعود عليك نفعه، وأعطني جميع ما عندك من الكتب، حتى أطرحها في الدن، وأصب عليها من الماء للعشرة أربعة، وأنبذه، وأنظر ما يكون منه، والله، لو طلبت مني، بجميع كتبك، جرزة بقل، ما أعطيتك. فيضيق صدري بمداومته هذا الكلام، حتى كنت أخرج من بيتي ليلا، وأدخله ليلا، وحالي، في خلال ذلك، تزداد ضيقا، حتى أفضيت إلى بيع آجر أساسات داري، وبقيت لا أهتدي إلى نفقة يومي، وطال شعري،

١- الحث على طلب العلم (ص٢٣- ٢٣) قال الشيخ: (شظف العيش): شدته وخشونته.

وأخلق ثوبي، واتسخ بدني.

فأنا كذلك متحيرًا في أمري، إذ جاءني خادم للأمير محمد بن سليمان الهاشمي، فقال: أجب الأمير.

فقلت: ما يصنع الأمير برجل بلغ به الفقر إلى ما ترى؟ فلما رأى سوء حالي، وقبح منظري؛ رجع فأخبر محمد بن سليمان بخبري، وعاد إليَّ، ومعه تخوت ثياب، ودرج فيه بخور، وكيس فيه ألف دينار.

وقال: قد أمرني الأمير أن أدخلك الحمام، وألبسك من هذه الثياب، وأدع باقيها عندك، وأطعمك من هذا الطعام، وإذا بخوان كبير فيه صنوف الأطعمة، وأبخرك؛ لترجع إليك نفسك، ثم أحملك إليه.

فسررت سرورًا شديدًا، ودعوت له، وعملت ما قال، ومضيت معه، حتى دخلت على محمد بن سليمان، فسلمت عليه، فقربني، ورفعني.

ثمَّ قال: يا عبد الملك، قد اخترتك لتأديب ابن أمير المؤمنين، فاعمل على الخروج إلى بابه، وانظر كيف تكون؟

قال: اعلم أنَّ ولد الرجل مهجة قلبه، وثمرة فؤاده، وهو ذا أسلم إليك ابني محمدا بأمانة الله، فلا تعلمه ما يفسد عليه دينه، فلعله أن يكون للمسلمين إمامًا.

قلت: السمع والطاعة.

فأقمت معه، حتى قرأ القرآن، وتفقه في الدين، وروى الشعر واللغة، وعلم أيام الناس وأخبارهم.

واستعرضه الرشيد، فأعجب به، وقال: يا عبد الملك، أريد أن يصلي بالناس، في يوم الجمعة، فاختر له خطبة، فحفظه إياها.

فحفظته عشرًا، وخرج، فصلى بالنَّاسِ، وأنا معه، فأعجب الرشيد به، وأخذه نثار الدنانير والدراهم من الخاصة والعامة، وأتتني الجوائز والصلات من كل ناحية، فجمعت مالًا عظيمًا.

ثمَّ استدعاني الرشيد، فقال: يا عبد الملك، قد أحسنت الخدمة، فتمنَّ.

قلتُ: ما عسى أن أتمنى، وقد حزت أماني.

فأمر لي بمال عظيم، وكسوة كثيرة، وطيب فاخر، وعبيد، وإماء، وظهر، وفرش، وآلة.

فقلت: إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في الإلمام بالبصرة، والكتاب إلى عامله بها، أن يطالب الخاصة والعامة، بالسلام عليَّ ثلاثة أيام، وإكرامي بعد ذلك.

فكتب إليه بما أردت، وانحدرت إلى البصرة، وداري قد عمرت، وضياعي قد كثرت، ونعمتي قد فشت، فما تأخر عني أحد.

فلمَّا كان في اليوم الثالث؛ تأملت أصاغر من جاءني، فإذا البقَّال، وعليه

عمامة وسخة، ورداء لطيف، وجبة قصيرة، وقميص طويل، وفي رجله جرموقان، وهو بلا سراويل.

فقال: كيف أنت يا عبد الملك؟ فاستضحكت من حماقته، وخطابه لي بما كان يخاطبني به الرشيد.

وقلت: بخير، وقد قبلت وصيتك، وجمعت ما عندي من الكتب، وطرحتها في الدن، كما أمرت، وصببت عليها من الماء للعشرة أربعة، فخرج ما ترى. ثمَّ أحسنت إليه بعد ذلك، وجعلته وكيلي[1].

وقال: «من لم يحتمل ذل التعلم ساعة، بقي في ذلِ الجهل أبدًا»[2].

وقال: «كل علم لا يدخل مع صاحبه الحمام فهو زور»[3].

وقال: «إذا كانت في العالم خصال أربع، وفي المتعلم خصال أربع اتفق أمرهما وتم، فإن نقصت من واحد منهما خصلة لم يتم أمرهما.

أمَّا اللواتي في العالم: فالعقل، والصبر، والرفق، والبذل.

وأمَّا اللواتي في المتعلم: فالحرص، والفراغ، والحفظ، والعقل؛ لأن العالم إن لم يحسن تدبير المتعلم بعقله خلط عليه أمره، وإن لم يكن له صبر عليه مله، وإن لم يرفق به بغض إليه العلم، وإن لم يبذل له علمه لم ينتفع به.

١- الفرج بعد الشدة للتنوخي (٣/١٦١- ١٦٥) باختصار.
٢- أدب الإملاء (ص١٤٥).
٣- الجامع لأخلاق الراوي (٢/٢٥٠).

وأمَّا المتعلم فإن لم يكن له عقل لم يفهم، وإن لم يكن له حرص لم يتعلم، وإن لم يفرغ للعلم قلبه لم يعقل عن معلمه، وساء حفظه، وإذا ساء حفظه كان ما يكون بينهما مثل الكتاب على الماء»[1].

١- نفس المصدر (١/٣٤٣- ٣٤٤).

الإمام عبد الله بن مسلمة بن قعنب الحارثي المشهور بـ (القعنبي) (ت ٢٢١هـ). روى ابن قدامة بسنده عن أبي العباس أحمد بن محمد بن الصباح البزاز قال: «حدثني بعض القضاة عن بعض ولد القعنبي بالبصرة قال: كان أبي يشرب النبيذ، ويصحب الأحداث فدعاهم يومًا، وقد قعد على الباب ينتظرهم فمرَّ شعبة على حمارِهِ والنَّاسُ خلفه يهرعون، فقال: مَنْ هذا؟

قيل: شعبة.

قال: وأيش شعبة؟

قالوا: محدث، فقام إليه وعليه إزار أحمر، فقال له: حدثني.

فقال له: ما أنت من أصحاب الحديث فأحدثك، فأشهر سكينه، وقال: تحدثني أو أجرحك.

فقال له: حدثنا منصور، عن ربعي، عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت»، فرمى سكينه ورجع إلى منزله فقام إلى جميع ما كان عنده من الشراب فهراقه، وقال لأمه: الساعة أصحابي يجيئون فأدخليهم وقدمي الطعام إليهم، فإذا أكلوا فخبريهم بما صنعت بالشراب حتى ينصرفوا، ومضى من وقته إلى المدينة؛ فلزم مالك بن أنس فأثر عنه، ثمَّ رجع إلى البصرة وقد مات شعبة فما سمع منه غير

هذا الحديث»[1].

➡ **إبراهيم بن المهدي العباسي (ت ٢٢٤هـ)** دخل على المأمون وعنده جماعةٌ يتكلَّمون في الفقه فقال: يا عمِّ؛ ما عندك فيما يقول هؤلاء؟

فقال: يا أمير المؤمنين شغلونا في الصِّغر، واشتغلنا في الكِبرِ.

فقال: لِمْ لا تتعلمه اليوم؟

قال: أو يحسن بمثلي طلب العلم؟

قال: نعم والله؛ لأن تموت طالبًا للعلم خيرٌ من أن تعيشَ قانعًا بالجهل.

قال: وإلى متى يحسن بي طلب العلم؟

قال: ما حسنت بك الحياة[2]. قيل: فأقبل على الطلب.

١- التوابين (ص٢١٩- ٢٢١)، وفي صحتها مقال انظر: «السير» (٢٦٣/١٠)، و«فتح المغيث» (٢٨١/٣)، وكان علي بن المديني لا يقدم أحد من رواة "الموطأ" على القعنبي. وروى عنه: البخاري، ومسلم، وأبو داود، وروى عنه الترمذي والنسائي بواسطة.

٢- أدب الدنيا للماوردي (ص٨١)، وأورده في «سراج الملوك» (٢٦٥/١)، ورواه في «تاريخ دمشق» (٣٥٠/٦٠) (ترجمة: منصور بن محمد المهدي رحمه الله).

الفقيه المحدّث القاسم بن سلّام أبو عبيد اللغوي (ت ٢٢٤هـ).

كان أبوه عبدًا روميًا لرجل من أهل هراة.

ويحكى أنَّ سلّاما خرج يومًا وأبو عبيد مع ابن مولاه في الكتّاب، فقال للمعلّم: «علّم القاسم فإنَّها كيّسة».

طلب أبو عبيد العلم وسمع الحديث، ودرّس الحديث والأدب، ونظر فى الفقه وأقام ببغداد مدّة. ثمَّ ولي القضاء بطرسوس، وخرج بعد ذلك إلى مكّة فسكنها حتى مات بها رحمه الله.

وروى النَّاس من كتبه المصنّفة بضعة وعشرين كتابًا فى القرآن والفقه، وغريب الحديث والغريب المصنّف، والأمثال، ومعاني الشعر. وله كتب كثيرة لم ترو في أصناف الفقه كله.

وعادت بركة أبي عبيد رحمه الله على أصحابه، فكلهم نبغ في العلم واشتهر ذكره، وأخذ عنه وتصدّر للإفادة؛ فمنهم أبو عبد الرحمن أحمد بن سهل، وأحمد بن عاصم، وعلي بن أبي ثابت، وأبو منصور نصر بن داود الصاغاني، ومحمد بن وهب، ومحمد بن سعيد الهروي، ومحمد بن المغيرة البغداذي، وعبد الخالق بن منصور النيسابوري، وأحمد بن يوسف التغلبي، وأحمد بن القاسم، وإبراهيم بن عبد العزيز بن عبد الرحمن البغوي

وأخوه عليّ بن عبد العزيز[1].

⬅**إسحاق بن إسماعيل بن حماد (ت ٢٣٠هـ)**، ذكر القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ): ولم يكن بالحافظ. لكن ولده وآله تجردوا لمذهب مالك في أيامه، وتفقهوا فيه.

ذكر أبو بكر الخطيب عن حماد بن إسحاق عن أبيه، قال: دخلت على ابن شكلة في بقايا غضب المأمون عليه. فقلت:

هي المقاديرُ تجري في أعنَّتِها فاصبرْ فليسَ لها صبرٌ على حالِ
يوماً تُريكَ خسيسَ الحالَ ترفعُهُ إلى السماءِ ويوماً تُخفِضُ العالي

فاطرق ساعة ثمَّ قال:

عيبُ الإناءةِ إن سرَّت عواقبُهَا أن لا خلودَ وأنْ ليس الفتى حجرًا

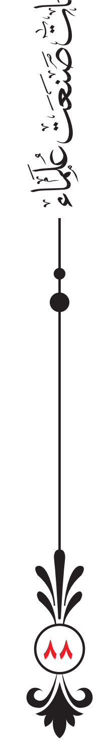
قال: فقمنا. فما مضى ذلك اليوم حتى بعث إليه المأمون بالرضا، ودعاه إلى مجالسته. قال: فالتقيت معه، في مجلسه. فقلت: ليهنك الرضا. فقال: ليهنك مثله من متيّم - جارية أهواها - فحسن موقع كلامه عندي. فقلت:

ومَنْ لِي بأنْ ترضى وقَدْ صحَّ عندَها ولُوعي بأخرى مِنْ بناتِ الأعاجمِ

١- إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي (٣/٢١-٢٢).

وجده حماد بن زيد إمام البصرة، مشهور، كان أولاً بزازاً، فلزم العلم، فانتفع وانُتفع به. وارتفع ولده به.

قال الفرغاني: فلا نعلم أحداً من أهل الدنيا بلغ مبلغ آل حماد[1].



١- ترتيب المدارك (٤/ ١٤-١٥)، والشاهد من القصة قوله: «كان أولًا بزاز فلزم العلم...».

الإمام يحيى بن يحيى الليثي (ت ٢٣٤هـ). قال الرازي: كان سبب طلب يحيي بن يحيي العلم، إنَّه كان يمر بزياد وهو يقول على أصحابه، فيميل إليه ويقعد عنده، فأعجب ذلك زياداً، وأدناه يوماً، وقال له: «يا بنيَّ إن كنت عازماً على التعلم فخذ من شعرك وأصلح زيك» وكان يرى الخدمة، ففعل ذلك بحين، فسُرَّ به زياد واجتهد بتعليمه حتى برع تلاميذه[١]. وصار إمام وقته، وواحد بلده.

الإمام إبراهيم بن خالد بن اليمان أبو ثور الكلبي (ت ٢٤٠هـ).

يقول أبو ثور: لَمَّا ورد الشافعيُّ العراقَ، جاءني حسين الكرابيسي، وكان يَختلف معي إلى أصحاب الرَّأي، فقال: قد ورد رجلٌ من أصحاب الحديث يتفقَّه، فقم بنا نسخَر به، فقمت، وذهبنا حتى دخلنا عليه، فسألَه الحسين عن مسألة، فلم يزل الشافعيُّ، يقول: «قال اللهُ، وقال رسولُ الله ﷺ، حتى أظلمَ علينا البيتُ، فتركنا بدعَتنا، واتَّبعناهُ»[٢].

١- ترتيب المدارك (٣/٣٨٠).

٢- آداب الشافعي لابن أبي حاتم (ص٥٠)، وبنحوه في «تاريخ بغداد» (٢/٤٠٤) عن أبي الفضل الزجاج، يقول: لما قدم الشافعي إلى بغداد وكان في الجامع إما نيف وأربعون حلقة أو خمسون حلقة، فلما دخل بغداد ما زال يقعد في حلقة حلقة ويقول لهم: قال الله وقال الرسول.

وهم يقولون: قال أصحابنا.

حتى ما بقي في المسجد حلقة غيره.

قلت: وهذا فضل الحديث وأهله، وفي «تاريخ الإسلام» (٥/٧١٠) قال الإمام أحمد: جاءنا نعيم ونحن على باب هشيم نتذاكر المقطعات، فقال: جمعتم حديث رسول الله ﷺ؟ فعنينا بها

وقال الأعين: «سألت أحمد عنه، فقال: لم أزل أعرفه بالسنة منذ خمسين سنة»[١].

الإمام الرباني أحمد حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ). قال أبو جعفر الأنباري: لما حُمِلَ الإمام أحمد إلى المأمون، أُخبرت، فعبرت الفرات، فإذا هو جالس في الخان، فسلمت عليه، فقال: يا أبا جعفر، تعنيت.

فقلت: يا هذا، أنت اليوم رأس، والنَّاسُ يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن، ليجيبنَّ خلْقٌ، وإن أنت لم تجب، ليمتنعنَّ خلق من النَّاسِ كثير، ومع هذا فإنَّ الرجل إن لم يقتلك فإنَّك تموت، لابدَّ من الموت، فاتقِ الله ولا تجب.

فجعل أحمد يبكي، ويقول: «ما شاء الله»[٢].

وقال: ما سمعت كلمة كانت أقوى لقلبي وَأَقَرَّ لعيني في المحنةِ من كلمةٍ سمعتها من فقيرٍ أعمى في رحبةِ طُرُقٍ، قال لي: «يا أحمد إن تهلك في الحق مِتَ شهيدًا، وإنْ عِشْت عِشْت حميدًا»[٣].

من يومئذ. وكان نعيم كاتبا لأبي عصمة نوح بن أبي مريم. وكان أبو عصمة شديد الرد على الجهمية، ومنه تعلم نعيم بن حماد.

وقال صالح بن مسمار: سمعت نعيم بن حماد يقول: «أنا كنت جهميا فلذلك عرفت كلامهم، فلما طلبت الحديث عرفت أن أمرهم يرجع إلى التعطيل».

١- توالي التأنيس بمعالي ابن إدريس لابن حجر (ترجمة: أبي ثور) (ص٧٨).

٢- السير (٢٣٩/١١)، وهو في «محنة الإمام أحمد» لعبد الغني المقدسي (ص٤٦-٤٧).

٣- الآداب الشرعية (٢٢/٢).

نجوم سماءٍ كلَّما انقض كوكبٌ بدا كوكبٌ تأوي إليه كواكب[1]

العابد أبو السري واصل الحمّي (ت ٢٥٢هـ). قال أبو ميسرة: قال واصل: جئت إلى جامع سوسة، يوم جمعة، فصليت وسحنون قريب مني، فأذّن المؤذن، وقد بقي عليّ شيء من السورة فأتممتها. وقد أخذ الإمام في الخطبة. فلمَّا سلم الإمام سأل سحنون عني. فأخبروه. فنودي بي.

فقال من أنت؟

قلت: واصل.

قال: واصل الذي يُقال!!.

قلتُ: أسأل الله بركة ما يقال.

فقال لي: رأيتُك تصلي والإمام يخطب، أطلبت شيئاً من العلم.

قلت: لا.

قال: اطلُب العلمَ أو فلا تسكن في شيء من هذه الحصون، فاختلفت إلى عون بن يوسف، سبع سنين.

قال المالكي: فتفقه به. وحفظ من العلم ما قمع به الشيطان. ثمَّ شمّر للعبادة، وقيام الليل، وصيام النَّهار، حتى مات.

١- فاكهة الخلفاء لابن عربشاه (ص٣٣).

وذكر أنَّ واصلاً كان قبل أن يتعبَّدُ، يتَّجر في حانُوتٍ بما يوزن، ويكال، فجاءته امرأته فساومته في شيءٍ، فخالفها فيه.

فقالت له: كفاك ما أنت فيه من مكيال وميزان.

فقال لها: صدقتني[1].

الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري (ت ٢٥٦هـ). يقول رحمه الله ورضي عنه: كنَّا عند إسحاق بن راهويه فقال: «لو جمعتم كتابا مختصرًا لصحيح سنة رسول الله ﷺ». قال: فوقع ذلك في قلبي، فأخذت في جمع الجامع الصحيح.

وقال أيضًا رحمه الله: رأيت النبي ﷺ، وكأنني واقف بين يديه، وبيدي مروحة اذب بها عنه، فسألت بعض المعبرين، فقال لي: «أنت تذب عنه الكذب، فهو الذي حملني على إخراج الجامع الصحيح»[2].

وقال الزرنوجي: يحكى أنَّ محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله قد بدأ كتاب الصلاة على الإمام محمد بن الحسن، فقال له: «اذهب وتعلَّم عِلم الحديث، لما رأى أنَّ علم الحديث أليق بطبعه، فطلبه حتى صار فيه مُقدَّمًا على أئمة الحديث»[3].

١- ترتيب المدارك (٤/٢٠٨-٢٠٩).
٢- فتح الباري لابن حجر (١/٧).
٣- تعليم المتعلم (ص٨٦-٨٧)، ويبورك السِملاليّ في «تمام النصيحة في إرشاد الطلبة» (ص٨٥)، وهذا القصة لا تصح فوفاة محمد كانت سنة (ت ١٨٩ هـ)، والبخاري ولادته

وقال الإمام: كنت عند أبي حفص أحمد بن حفص أسمع كتاب الجامع، -جامع سفيان-، في كتاب والدي فمر أبو حفص على حرف ولم يكن عندي ما ذكر، فراجعته فقال الثانية كذلك، فراجعته الثانية فقال كذلك، فراجعته الثالثة فسكت سويعة، ثم قال: من هذا؟ قالوا: هذا ابن إسماعيل بن إبراهيم بن بذدزبة، فقال أبو حفص: هو كما قال، واحفظوا فإنَّ هذا يومًا يصير رجلًا[1].

في سنة (ت ١٩٤هـ)، وكتاب تعليم المتعلم قيم ولكنه فيه بعض ما لا يصح نسبته، وقد استخلصت منه فوائده في كتاب سمَّيته «إفادة الطالب الألمعيّ بخلاصة تعليم المتعلم للزرنوجيّ».

١- تاريخ بغداد (٢/٣٢٢) ابن بذدزبة هو بالبخارية، وبالعربية الزراع.

شيخ الإِسلام، وحافظ نَيسابور، أبو عبد الله، محمدُ بنُ يحيى بن عبد الله الذهلي (ت ٢٥٨هـ).

قال الذُّهلي: قال لي ابنُ المديني: «أنتَ وارثُ الزَّهري»[١].

وعن الدّارقطني قال: «مَنْ أحبَّ أن يعرفَ قصور علمه فلينظرْ في علل حديث الزُّهري لمحمد بن يحيى»[٢].

وصدق ما قاله علي ابن المديني عن الذهلي، وذاك أنَّ الذهلي جمع أحاديث محمد بن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ)، والتي تعرف بـ (الزهريات)، وهي أحاديث في مجلدين[٣]. وليس المطلوب هل كان جمع الذهلي قبل كلام ابن المديني أو بعده؛ ولكن العبرة أنَّ الإنسان عندما يتكلم بكلمة جميلة فإنَّها تفعل فعلها في شحذ النفوس، ورفع الهمم ما الله به عليم، فلا يحقرنَّ عبدٌ أن يتكلم بالكلمة الطيبة فأجرها عند الله عظيم، ووقعها في النفوس كبير.



١- طبقات علماء الحديث (٢/٢٠٩-٢١٠).

٢- سير أعلام النبلاء (١٢/ ٢٨٤)

٣- الرسالة المستطرفة (١١٠).

ناصر مذهب الشافعي إبراهيم بن إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل المزني (ت ٢٦٤هـ).

قال عنه الشافعي: «المزني ناصر مذهبي».

وقال الذهبي: «بلغنا أنَّ المزني كان إذا فرغ من تبييض مسألة وأودعها مختصره صلى لله ركعتين»[١].

قال الصفدي: «وكان الشافعي معجبًا به لذكائه، وحرَّضه على الفقه»[٢].

سيد الحفاظ عبيد الله بن عبد الكريم أبو زرعة الرازي (ت ٢٦٤هـ). قال الحسن بن أحمد بن اللّيث: سمعتُ أحمدَ ابنَ حنبلَ وسألَه رجلٌ فقال: بالري شابٌّ يقال له: أبو زرعة، فغضبَ أحمدُ وقال: تقول شابٌّ؟ كالمنكِرِ عليه، ثمَّ رفعَ يَدَيه، وجعلَ يَدعو اللهَ عزَّ وجلَّ لأبي زرعةَ، ويقول: «اللهمَّ انصُره على مَن بَغى عليه، اللهمَّ عافِه، اللهمَّ ادفَع عنه البَلاءَ»، اللهمَّ، اللهمَّ، في دعاءٍ كثيرٍ.

قال الحسنُ: فلمَّا قدمتُ حكيتُ ذلك لأبي زرعةَ وحملتُ إليه دعاءَ أحمد بن حنبل له، وكنتُ كتبتُه عنه؛ فكتبَه أبو زرعة، وقال لي أبو زرعةَ: ما وقعتُ في بليَّةٍ فذكرتُ دعاءَ أحمدَ إلَّا ظننتُ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُفرِّجُ

١- سير أعلام النبلاء (١٢/٤٩٤) والوضوء بعد كتابة كل مسألة أو تبيضها- صنيع غير واحد من العلماء منهم البخاري، والزجاجي، وغيرهم.
٢- الوافي بالوفيات (٣/٢٧٢)، ومن أسباب نبوغه عناية الشافعي به وحبه له.

بدعائِه عنّي»[1].

محمد بن عوف أبو جعفر الطائي الحمصي (ت ٢٧٣هـ). قال عبد الصمد بن سعيد القاضي: سمعت محمد بن عوف يقول: كنتُ ألعب في الكنيسة بالكرة وأنا حدث، فدخلت الكرة، فوقعت قرب المعافى بن عمران الحمصي، فدخلتُ لأخذها، فقال: ابْن مَنْ أنت؟

قلت: ابن عوف بن سفيان.

قال: أَمَا إنَّ أباك كان من إخواننا، فكان ممَّن يكتب معنا الحديث والعلم، والذي كان يشبهك أن تتبع ما كان عليه والدك.

فصرت إلى أمي، فأخبرتها، فقالت: صدق، هو صديق لأبيك.

فألبستني ثوبًا وإزارًا، ثمَّ جئتُ إلى المعافى، ومعي محبرةٌ وورق، فقال لي: اكتب: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عبد ربه بن سليمان، قال: كتبت لي أم الدرداء في لوحي: «اطلبوا العلمَ صغارًا، تعملوا به كبارًا، فإنَّ لكلِّ

١- مقدمة الجرح والتعديل (١/ ٣١٠)، وشبيه هذا ما ذكره الذهبي في «السير» (٢٣/ ٤١٥)، عن محمد -بن أبي حاتم وراق البخاري-: وسمعتُ محمَّد بن إسماعيلَ يَقولُ: لَمَّا دخلتُ البَصرةَ صرت إلى مجلس بندار، فلمَّا وقعَ بصرُه عليَّ، قال: من أين الفَتى؟

قلت: من أهلِ بُخارَى.

فقال لي: كيف تركتَ أبا عبد الله؟

فأمسكتُ، فقالوا له: يرحمكَ اللهُ هو أبو عبد الله، فقامَ، وأخذَ بيدِي، وعانقنِي، وقال: «مَرحبًا بمَن أفتخرُ به منذ سِنين».

حاصدٍ ما زرع»[1].

الإمام الصالح سهل بن عبد الله التستري (ت ٢٧٣ أو ٢٨٣هـ).

لم يكن له في وقته نظير في المعاملات والورع، وكان صاحب كرامات.

كان سبب سلوكه هذه الطريق خاله محمد بن سوار فإنَّه قال: قال لي خالي يومًا: ألا تذكر الله الذي خلقك؟

فقلت له: كيف أذكره؟

فقال: قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مراتٍ من غير أنْ تحركَ به لسانك: الله معي، الله ناظر إليَّ، الله شاهدي.

فقلتُ ذلك ليالي ثمَّ أعلمته، فقال: قلها كلَّ ليلةٍ سبع مرات، فقلتُ ذلك ثمَّ أعلمته. فقال: قلها في كل ليلة إحدى عشرة مرة، فقلت ذلك، فوقع في قلبي حلاوة، فلمَّا كان بعد سنة قال لي خالي: احفظ ما علمتك، ودم عليه إلى أن تدخل القبر؛ فإنَّه ينفعك في الدنيا والآخرة.

فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لها حلاوة في سري، ثمَّ قال خالي يومًا: «يا سهل من كان الله معه وهو ناظر إليه وشاهده يعصيه؟ إيَّاك والمعصية»، فكان ذلك أول أمره[2].



١- سير أعلام النبلاء (١٢/٦١٤-٦١٥)، و«تاريخ الإسلام» (٦/٦١٦).
٢-الوافي بالوفيات (١٦/١٢).

الحافظُ الحجة أحمدُ بنُ سَلَمَة (ت ٢٨٠هـ). قال عليُّ بنُ عيسى: سمعتُ أحمدَ بنَ سلَمة يقول: دعا أبي إسحاقَ إلى طعام، وأراد أن يستشيرَه في خروجي إلى قتيبة، فقال: إنَّ ابني هذا قد ألحَّ عليَّ في خروجه إلى قُتيبة، فما ترى أنت؟ وذكر له شفقتَه عليّ، فنظر إليَّ إسحاق وقال: «هذا يجلسُ في مجلسي بالقرب مني، وقد سمع مني كثيرًا، وأبو رجاء عندَه من اللُّقى ما ليس عندنا، فأرى أن تأذنَ له عسى أن ينتفعَ يومًا ما»[١].

١- طبقات علماء الحديث (٢/٣٤٣).

الإمام، الحافظ، العلامة أبو إسحاق إبراهيم الحربي (ت ٢٨٥هـ).

قال أحمد بن جعفر بن سلم: حدثنا شيخ لنا، قال: قيل لإبراهيم الحربي: هل كسبت بالعلم شيئًا؟

قال: كسبت به نصف فلس: كانت أمي تجري علي كل يوم رغيفين، وقطيعة فيها نصف دانق، فخرجت في يوم ذي طين، وأُجمِع رأيي على أن آكل شيئًا حلوًا، فلم أر شيئًا أرخص من الدبس، فأتيت بقالًا، فدفعت إليه القطيعة فإذا فيها قيراط إلا نصف فلس، وتذاكرنا حديث السخاء والكرم.



فقال البقال: يا أبا إسحاق! أنت تكتب الأخبار والحديث، حدثنا في السخاء بحديث.

قلت: نعم، حدثني أبو بكر عبد الله بن الزبير، حدثنا أبي، عن شيخ له قال: خرج عبد الله بن جعفر إلى ضياعه ينظر إليها، فإذا في حائط لنسيب له عبد أسود، بيده رغيف وهو يأكل لقمة، ويطرح لكلب لقمة، فلما رأى ذلك استحسنه، فقال: يا أسود! لمن أنت؟

قال: لمصعب بن الزبير.

قال: وهذه الضيعة لمن؟

قال: له.



قال: لقد رأيت منك عجبًا، تأكل لقمة، وتطرح للكلب لقمة؟!

قال: إنِّي لأستحيي من عين تنظر إليَّ أن أوثر نفسي عليها.

قال: فرجع إلى المدينة، فاشترى الضيعة والعبد، ثمَّ رجع، وإذا بالعبد.

فقال: يا أسود! إنِّي قد اشتريتك من مصعب.

فوثب قائمًا، وقال: جعلني الله عليك ميمون الطلعة.

قال: وإنِّي اشتريت هذه الضيعة.

فقال: أكمل الله لك خيرها.

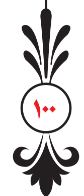
قال: وإنِّي أشهد أنَّك حر لوجه الله!

قال: أحسن الله جزاءك.

قال: وأُشِهد الله أنَّ الضيعة مني هدية إليك.

قال: جزاك الله بالحسنى.

ثمَّ قال العبد: فأشهد الله وأشهدك أن هذه الضيعة وقف منِّي على الفقراء. فرجع وهو يقول: «العبد أكرم منا»[1].



١- السير (٣٦٣/١٣-٣٦٤)، وانظر: «معجم الأدباء» (١١٩/١-١٢٠).



الإمام عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٩٠هـ). قال أبو زرعة: قال لي أحمد بن حنبل: «ابني عبد الله محظوظ من علم الحديث، لا يكاد يذاكرني إلا بما لا أحفظ»(١).

كان الإمام أحمد رحمه الله يولي عناية كبيرة لأولاده وذلك من خلال: تعليمهم، وتربيتهم، ونصحهم، والقيام بواجب الأبوة اتجاههم، ولعلَّ هذا الموقف يرسم لنا طريقة جميلة في تعامل الإمام مع أولاده، يقول عبد الله: كنت جالسًا عند أبي رحمه الله يومًا فنظر إلى رجلي وهما لينتان ليس فيهما شقاق! فقال لي: «ما هذه الرجلانِ لم لا تمشي حافيًا؛ حتى تصير رجلاك خشنتين»(٢).

ومثله ابنه صالح، يقول: «إنَّ أبي يبعث خلفي إذا جاءه رجل زاهد أو متقشف؛ لأنظر إليه، يحب أن أكون مثله»(٣).

فكانت تلك الرعاية والتربية لها أثر واضح في أولاد الإمام أحمد، وأخصهم عبد الله برعاية فقد كان أنبغ إخوانه، وأحظاهم وأحفظهم لعلم أبيه ونشره، فهو كما قال ابن المنادي: لم يكن في الدنيا أحد أروى عن أبيه منه، لأنَّه سمع «المسند» وهو ثلاثون ألفًا، و«التفسير» وهو مئة

١- طبقات علماء الحديث (٣٧٨/٢).
٢- تاريخ دمشق (٢٩٨/٥).
٣- السير للذهبي (ترجمة: صالح) (٥٣٠/١٢)، و«المقصد الأرشد» (٤٤٥/١).

ألف وعشرون ألفًا، سمع منه ثمانين ألفًا، والباقي وجادة، وسمع «الناسخ والمنسوخ»، و«التاريخ»، و«حديث شعبة»، و«المقدم والمؤخر في كتاب الله»، و«جوابات القرآن»، و«المناسك الكبير» و «الصغير»، وغير ذلك من التصانيف وحديث الشيوخ(١).

الشيخ الحافظ الصادق محدث الكوفة أبو جعفر محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي الملقب مُطيَّن (ت ٢٩٧هـ). عن أبي جعفر الحضرمي محمد بن سليمان، قال: كنت ألعب مع الصبيان في الطين وقد تطينت وأنا صبي لم أسمع الحديث إذ مر بنا أبو نعيم الفضل بن دكين، وكان بينه وبين أبي مودة فنظر إليَّ فقال: «يا مطين قد آن لك أن تحضر المجلس لسماع الحديث، ثمَّ حملت إليه بعد ذلك بأيام فإذا هو قد مات»(٢).

يقول مطين: «فلمَّا طلبتُ الحديث مات أبو نعيم، وكتبت عن أكثر من خمس مائة شيخ»(٣). فلله در الإمام الفضيل بن دكين وكلامه الذي أثر في ذلك الصبي فصار إمامًا معتبرًا، ومحدثًا ذاع صيته في العراق، وسائر البلدان والأمصار.

١- تهذيب الكمال (٢٩٠/١٤).
٢- الجامع لأخلاق الراوي (٧٦/٢)، وهو في «معرفة علوم الحديث» (ص٦٠٤) و«إرشاد طلاب الحقائق» (ص١٨٩) ط: دار السلام.
٣- السير (٤٢/١٤).

⬅نحوي زمانه، الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري الزجّاج (ت ٣١١هـ).

مصنف كتاب (معاني القرآن)، وله: كتاب (الإنسان وأعضائه)، وكتاب (الفرس)، وكتاب (العروض)، وكتاب (الاشتقاق)، وكتاب (النوادر)، وكتاب (فعلت وأفعلت) وله تآليف جمة[١].

يقول: «كنت أخرط الزجاج، فاشتهيت النحو، فلزمت المبرد لتعلمه»[٢].

وقال: أتيت أبا العباس المبرّد (ت ٢٨٦هـ) حين دخل بغداد لأقرأ عليه الكتاب -يعني كتاب سيبويه-.

فقال لي: ما صنعتُك؟

فقلت: زجّاج.

فقال لي: كم تكسب في كل يوم؟

قلت: عشرة فما دونها.

قال: جيء كلّ يوم بنصف ما تعمل، فتطرحه في هذا الصندوق -وكان عنده صندوق معمول لهذا-.

قال: فبدأت بقراءة الكتاب، وكلّما جئت بشيء طرحته في الصندوق.



١- السير (١٤/٣٦٠).
٢-تهذيب الأسماء واللغات للنووي (٢/١٧١)، وكان أبو إسحاق الزجاج من أهل الفضل والدين، حسن الاعتقاد، وحسن المذهب، له مصنفات حسان في الأدب.

ولما فرغت من الكتاب وختمته، رمى بمفتاح الصندوق إليّ، وقال لي: افتح وخذ ما تركت فيه، ففتحت وأخذت جميع ما فيه، وكان قد اجتمع شيء كثير كبير.

فرحم الله أبا العباس، فلقد آساني وأغناني وعلمني[1].

الإمام الطحاوي أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك الأزدي (ت ٣٢١هـ). انتهت إليه رياسة أصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه بمصر، وكان شافعي المذهب يقرأ على المزني، فقال له يوماً: «والله لا جاء منك شيء»، فغضب أبو جعفر من ذلك، وانتقل إلى أبي جعفر ابن أبي عمران الحنفي، واشتغل عليه، فلمَّا صنف مختصره قال: «رحم الله أبا إبراهيم -يعني المزني- لو كان حياً لكفر عن يمينه»[2].

الإمام محمد بن العباس الفربري (ت ٣٢٣هـ). يقول: أملى يومًا عليَّ -البخاري- حديثًا كثيرًا، فخاف ملالي، فقال: «طبْ نفسًا، فإنَّ أهلَ الملاهي في ملاهيهم، وأهلَ الصناعاتِ في صناعاتهم، والتَّجارَ في تجاراتهِم، وأنت مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه»[3].

وكان يقول: «سمع كتاب الصحيح لمحمد بن إسماعيل تسعون ألف رجل

١- معجم الأدباء (١/٥٤)، و«تاريخ بغداد» (٦/٦١٣)، و«الوافي بالوفيات» (٥/٢٢٨).
٢- وفيات الأعيان (١/٧١)، وانظر: «الجواهر المضية في طبقات الحنفية» (١/٥٦٣).
٣- سير أعلام النبلاء (١٢/٤٤٥).

فما بقي أحد يروى عنه غيري»[1]. فلعل تلك الكلمة الصادقة من ذلك المعلم الحريص كانت بلسمًا على قلب هذا التلميذ النجيب، فتركت أثرًا أتى أُكلَه بعد حين لينفرد الفربري برواية الصحيح! فسبحان الله الذي يقدر الأشياء بحكمته وسابق علمه.

العلّامة اللغويّ محمد بن عبد الواحد البغدادي المعروف بـ (غلام ثعلب) (ت ٣٤٥هـ). قال أبو عبد الله بن خالويه (ت ٣٧٠هـ): حدثني أبو عمر (الزاهد غلام ثعلب) قال: كان من سبب تعلمي النحو أنّي كنت في مجلس إبراهيم الحربي فقلت: قد قريت الكتاب، فعابني من حضر وضحكوا، فأنفت من ذلك وجئت ثعلبًا فقلت: أعزك الله كيف تقول: قريت الكتاب أو قرأت الكتاب؟ فقال: حدثني سلمة، عن الفراء، عن الكسائي قال: تقول العرب قرأت الكتاب إذا حققوا، وقرات إذا لينوا، وقريت إذا حولوا.

قال: ثمَّ لزمته إلى أن مات.

قال أبو عبد الله: «فصار أبو عمر أوحد عصره في اللغة إمامًا»[2].

تاريخ بغداد (٢/٣٢٢).

٢- كتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم لابن خالويه (ص١٣٢-١٣٣) بالاستفادة من «الإبداع العلمي» (ص١٨٦).

الحافظ الحسين بن علي أبو علي النيسابوري (ت ٣٤٩هـ).

ذكر ابتداء أمره، فقال: كنتُ أختلف إلى الصاغة، وفي جوارنا فقيه من الكراميَّة يعرف بالولي، فكنت أختلف إليه بالغدواتِ وآخذ عنه الشيءَ بعد الشيء من مسائل الفقه.

فقال لي أبو الحسن الشافعيّ: يا أبا علي لا تضيع أيَّامك، ما تصنع بالاختلاف إلى الولي؟ وبنيسابور من العلماء والأئمة عدِّة، فقلت له: إلى مَنْ أختلف؟

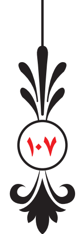
قال: إلى إبراهيم بن أبي طالب، فأوَّل ما اختلفت في طلب العلم إلى إبراهيم بن أبي طالب سنة أربع وتسعين ومائتين، فلمَّا رأيت شمائله وسمته، وحسن مذاكرته للحديث حلا في قلبي، فكنت أختلف إليه وأكتب عنه الأمالي فحدَّث يومًا عن محمد بن يحيى عن إسماعيل بن أبي أويس، فقال لي بعض أصحابنا: لِمَ لا تخرج إلى هراة فإنَّ بها شيخًا ثقة يحدث عن إسماعيل بن أبي أويس، فوقع ذلك في قلبي فخرجت إلى هراة وذاك في سنة خمس وتسعين، ثمَّ قال: وانصرفت من هراة وقد مات إبراهيم بن أبي طالب فسمعت في تلك الأيام كتاب الموطأ من علي بن الحسين الصفار عن يحيى بن يحيى[١].

١-الأنساب للسمعاني (٤/٢١)، و«تراجم حفاظ الحديث ونقَّاد الأثر» (٣/١٤٦-١٤٧).

قوام الدين أبو علي الحسن بن علي الطوسي الملقب بـ(نظام الملك) (ت ٤٨٥هـ). كان إذا دخل عليه أبو القاسم القشيري وأبو المعالي الجويني قام لهما وأجلسهما في المسند، فإذا دخل أبو علي الفارمذي قام وأجلسه مكانه وجلس بين يديه!، فعوتب في ذلك، فقال: «إنهَّما إذا دخلا عليَّ قالا: أنتَ وأنت فأزداد تيهًا».

«وأمَّا الفارمذي يذكر لي عيوبي وظلمي، فأنكسر وأرجع عن كثير من الذي أنا فيه»[١].

فكلمات الفارمذي للوزير العالم نظام الملك كانت تؤثر فيه، وتلامس حنايا قلبه، فتترك فيه أثرًا في التوقي عن الظلم، وفعل المعاصي، وغير ذلك. وما أحوج السلطان وصاحب الوزارة لمثل هذا العالم الذي يكون له عونًا على طاعة الله، ويخوفه من عقاب الله، ويحذره من التمادي في الظلم والطغيان.



١- البداية والنهاية (١٢٦/١٦).

أبو الفتيان عمر بن أبي الحسن عبد الكريم بن سعدويه الدهستاني الرواسي (ت ٥٠٣هـ). أحد حفَّاظ عصره، رحلَ، وجمع، وكتب بخراسان والعراق والشام والحجاز ومصر، وقيل لهُ الرواسي؛ لأنَّ والده كان يبيع الرؤوس بدهستان، فاتفق دخول أبي مسعود أحمد بن محمد بن عبد الله البجلي الرازيّ دهستان، واشترى من والده أبي الحسن رأسًا ليأكله، فقال له أبو الحسن: أراك رجلًا مِن أهل العلم، ويقبح أنْ تجلس في دكاني، فادخل المسجد حتى يجيئك الرأس، فلمَّا قعد في المسجد نفذ إليه رأسًا حسنًا مشويًا مع الخبز النظيف والخل والبقل على يد ابنه عمر، وكان صبيًا صغيرا، فنظر أبو مسعود إلى تلك الحالة فاستحسن من الرواس ذلك، فلمَّا فرغ من الأكل شكر الرواس، وقال: أحسنت إليّ وليس معي شيء أكافئك فهل لك في أن تسلِّم ابنك إليَّ حتى أسمعه حديث رسول الله ﷺ؟ ففرح أبوه بذلك، وحَمل عُمر معه إلى شيوخ دهستان، وسمعه الحديث وأسمعه من نفسه أيضًا شيئًا، وانفتح عينه، وطاب له هذه الصنعة، ورحل بنفسه بعد ذلك، وأكثر من الحديث حتى سمع ما لم يسمع أقرانه[1].

١-الأنساب للسمعاني (١٧٩/٦)، وعنه في «تراجم حفاظ الحديث ونقَّاد الأثر» للبدخشي (١٧٨/٣-١٧٩).

وها هنا فوائد يجمل ذكرها.

الأول: احترام الرجل العامي لذلك العالم، وما أحوج الأمة لاحترام العلماء ومعرفة مكانتهم.

قال ابن نقطة: سمعت غير واحد يقولون: «إنَّ أبا الفتيان سمع من ثلاثة آلاف وست مئة شيخ!!»[1].

وقال خزيمة بن علي المروزي الأديب: «سقطت أصابع عمر الرواسي في الرحلة من البرد الشديد!!»[2].



الثاني: الجزاء من جنس العمل، فإنَّ العالم لما رأى الاحترام الذي لقيه من ذلك الرواس قابله بتعليم ابنه بدون مقابل.

الثالث: صدق نية الوالد، فإنَّه ما فعل ذلك طمعًا بمال، أو رغبة بما سوف يتحصل لولده؛ بل صدقًا ومحبة واحترامًا.

الرابع: علو همة عمر الرواسي، فإنّه انطلق مع الشيخ وليس لديه شيء إلا صدق التوجه وعلو الهمة، ثمَّ عاد إلى بلاده وهو أحد حفاظ عصره.

١-السير (٣١٨/١٩).
٢-تاريخ الإسلام (٤٥/١١).

المازري المالكي أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر بن محمد (ت ٥٣٦هـ). قيل: إنه مرض مرضة، فلم يجد من يعالجه إلا يهوديًا، فلمَّا عُوفي على يده، قال: «لولا التزامي بحفظ صناعتي، لأعدمتك المسلمين».

فأثَّر هذا عند المازري، فأقبل على تعلم الطب، حتى فاق فيه، وكان ممن يفتي فيه، كما يفتي في الفقه[1].

تَأَخَّرتُ عَن قوم وَلَا غرو أنَّني ... سأسبقُهم بالجدِ وَالْجدُّ مِعوانُ

أَلَسْتَ ترى العنوانَ يُكْتبُ آخرًا ... وَأَوَّلُ مقروءٍ من الْكُتْبِ عنوانُ[2]

١- سير أعلام النبلاء (٢٠/١٠٥-١٠٦)، و(مازر): بليدة من جزيرة صقلية بفتح الزاي، وقد تكسر.

قال الحافظ الذهبي عنه: «مصنف كتاب (المعلم بفوائد شرح مسلم)، ومصنف كتاب (إيضاح المحصول في الأصول)، وله تواليف في الأدب، وكان أحد الأذكياء الموصوفين، والأئمة المتبحرين، وله شرح كتاب (التلقين) لعبد الوهاب المالكي في عشرة أسفار، هو من أنفس الكتب. وكان بصيرًا بعلم الحديث».

٢- اليتيمة (٤/٣٨٠)، والشعر لأبي الفتح البُستي.



العلامة أبو حامد الغزالي محمد بن محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ).

قال الإمام أسعد الميهني سمعته يقول: قطعت علينا الطريق وأخذ العيارون جميع ما معي ومضوا فتبعتهم فالتفت إلى مقدمهم، وقال: ارجع ويحك وإلا هلكت!

فقلت له: أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد عليَّ تعليقتي فقط، فما هي بشيء تنتفعون به.

فقال لي: وما هي تعليقتك؟

فقلت: كتبت في تلك المخلاة، هاجرتُ لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها.

فضحك، وقال: كيف تدعي أنَّك عرفت علمها، وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم؟!

ثمَّ أمر بعض أصحابه فسلم إلى المخلاة.

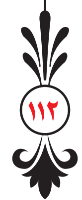
قال الغزالي: «فقلتُ هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به في أمري، فلمَّا وافيتُ طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظتُ جميع ما علقتُه، وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أتجرد من علمي»[1].

١- طبقات الشافعية للسبكي (١٩٥/٦) وذكر الذهبي نتفًا منها في «السير» (٣٣٥/١٩) قال أسعد الميهني: سمعت أبا حامد يقول: «هاجرت إلى أبي نصر الإسماعيلي بجرجان، فأقمت إلى أن أخذت عنه التعليقة».

محمد بن طاهر بن علي، أبو الفضل ابن القيسراني (ت ٥٠٧هـ).

قال: ولما دخلت بغداد في أول رحلتي إليها وذلك في سنة سبع وستين وأربعمائة كنت مع جماعة من طلاب الحديث في بعض المساجد ننتظر شيخنا فوقف علينا أبو الحسن أحمد بن الحسن المقري وكيل القضاة ببغداد فقال: «يا أصحاب الحديث اسمعوا ما أقول لكم فأنصتنا إليه فقال: (كتاب الدارقطني في الأَفراد) غير مُرتب فمن قدر منكم على ترتيبه أفاد واستفاد».

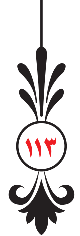
فوقع إذ ذاك في نفسي ترتيبه إلى أن سهّل الله عز وجل ذلك في سنة خمسمائة فحصلت نسخه بخط أبي الحسن علي بن محمد الميداني الحافظ نقلها في خط الدارقطني وقابلها به فاستخرت الله عز وجل ورتبته على ترتيب الأطراف؛ ليكون فائدة لكل من عرض له حديث أراد معرفته[1].



١- أطراف الغرائب والأفراد (١/٤٣-٤٤).

المُقْرئ أبو الغَنَائم النَّرْسِي. محمدُ بنُ علي بن ميمون، الكُوفي (ت ٥١٠هـ). قال محمد بن علي بن فولاذ الطَّبَري: سمِعْتُ أبا الغَنَائم الحافظ يقول: كنت أقرأ القُرْآن على المشايخ وأنا صبيٌّ، فقالوا: أنت أُبَيّ. لجودة قِراءتي[1].

فتلك الكلمة التي قيلت له، وتشبيهه بسيد القراء أبي رضي الله عنه حفرت في القلب وأثرت، ونتيجتها أنَّ أصبح النرسي مقرئًا رحمه الله.



١- طبقات علماء الحديث (٤/٣٣-٣٤).

إمام العربية المحقق عبد الله بن السّيد البطليوسي، وقيل عبد الله بن محمد بن السّيد النحوي (ت ٥٢١هـ).

كان بقرطبة مقيمًا في أيام ابن الحاج صاحب قرطبة، وكان لابن الحاج بنون ثلاثة، يسمّى أحدهم: عزون، والثاني رحمون، والثالث حسنون. وكانوا صغارًا في حدّ الحلم، وكانوا من أجمل النَّاسِ صورة، وكانوا يقرأون القرآن على المقرىء، ويختلفون إليه في الجامع. وكان أبو محمد البطليوسي قد أولع بهم، ولم تمكنه صحبتهم إذ كان من غير صنفهم وشكلهم.

وحكي عنه أنَّه قال: كان سبب طلبي للعلم أنَّ والدي كان رجلًا من أهل القرى، وكان له ثروة، فسلّم إليّ مالًا لأدخل به إلى الحاضرة للتجارة، فدخلت إلى قرطبة فاتفق أنِّي اجتزت في السوق فوجدت حلقة تباع فيها الكتب، فوقفت عليها، واستحسنت الكتب، وشريت منها بمقدار مائتي دينار للتجارة، فلمَّا خلوت بها جعلت أفتقدها وأقول: هذا جيد لا ينبغي أن يباع، وهذا جيد إلى أن اخترت لنفسي أكثرها، ثمَّ جعلت أطالعها فلا أفهم معانيها، فيضيق صدري. فسألت بعض الطلبة، وقلت له: أي العلوم أنفق؟

فقال: الناس في الأدب أرغب منهم في غيره.

قلت له: وأيّ الكتب أشهر من كتب الأدب؟

فقال: كتاب العين.

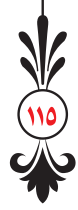
فشرعت فيه على شيخ هناك. فلم تمضِ لي شهور حتى حفظته، ثمَّ حفظت كتابًا في النحو. (ولذّ لي العلم)، فلم تمضِ إلا مدة قليلة حتَّى صرت ممَّن يشار إليه. فاشتقت إلى أهلي بعد أن أنفقت جميع ما كان معي، فخرجت إليهم واجتمعت بوالدي، فسألني عن الحال، فأخبرته بقصتي، فلم ينكره عليّ بل سرّه، وقال: «يا ولدي، هذه نعمة من الله في حقك حيث ألهمك بالعلم». وأمدني بشيء آخر من المال، ورجعت إلى المدينة، وطلبت المشايخ حتى بلغت إلى ما ترون.

وكان يقول: «المتأدبُ أحوجُ إلى تأديبِ نفسه وخُلُقِهَ منه إلى تأديبِ لِسَانه».

وقال: «الأدب نوعان: أدب خبرة، وأدب عشرة»، قال الشاعر:

يَا سَائِلِي عَنْ أَدَبِ الخَبِرَه ... أَحْسَنُ مِنْهُ أَدَبُ الْعِشْرَه

كَمْ مِنْ فتَى تَكْثُرُ آدَابُهُ ... أَخْلَاقُهُ مِنْ عِلْمُهُ صِفْرَه[1]



١- معجم الأدباء (٤/١٥٢٧- ١٥٢٩).

الحافظ الجليل محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن فرج بن الجد الفهري (ت ٥٨٦هـ). برع أولاً في العربية واقتصر عليها، ثمَّ مال إلى دراسة الفقه ومطالعة الحديث، والإشراف على الاتفاق والاختلاف بتحريض أبي الوليد بن رشد إيَّاه على ذلك لما رأى مِن سداد فطرته، واتقاد فطنته، وانتهت إليه الرياسة في الفتيا[١].

الإمام المُسنِد حنبل بن عبد الله بن فرج بن سعادة (ت ٦٠٤هـ)

قال ابن نقطة: حدثنا أبو الطاهر ابن الأنماطي بدمشق، قال: حدثني حنبل بن عبد الله، قال: لما ولدت، مضى أبي إلى الشيخ عبد القادر الجيلي، وقال له: قد ولد لي ابن، ما أسميه؟

قال: سمه حنبل، وإذا كبر سمِّعه (مسند أحمد بن حنبل).

قال: «فسمَّاني كما أمره، فلمَّا كَبِرت، سمَّعني (المسند)، وكان هذا من بركة مشورة الشيخ»[٢].

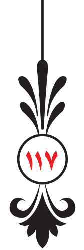


١- تاريخ الإسلام (١١٢/١٣).
٢- التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد (ص٢٦٠)، و«السير» (٤٣٢/٢١).

الإمام عبد الله بن أبي الحسن بن أبي الفرج أبو محمد الجبائي الطرابلسي الشامي (ت ٦٠٥ هـ).

قال: كنَّا نصارى، فمات أبي ونحن صغار، فقدر الله أن وقعت حروب، فخرجنا من القرية وكان فيها جماعة مسلمون يقرؤون القرآن، فأبكي إذا سمعتهم، قال: فأسلمت، وعمري إحدى عشرة سنة، ثمَّ رحلت إلى بغداد في سنة أربعين.

قال ابن النَّجار: قدم بغداد وصحب الشيخ عبد القادر، وتفقه على مذهب أحمد، وكان صالحاً عابدًا، حصل له قبول بأصبهان(١).

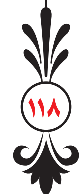


١- السير (٢١/٤٥٠-٤٥١).

الحافظ الضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي (ت ٦٤٣هـ)، يقول عن **الحافظ الإمام عبد الغني المقدسي (ت ٦٠٠هـ)**: «وكان رحمه الله مجتهدًا على الطلب، يكرم الطلبة، ويحسن إليهم، وإذا صار عنده طالب يفهم أمره بالرحلة، ويفرح لهم بسماع ما يحصلونه، وبسببه سمع أصحابنا الكثير».

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الحافظ يقول: ما رأيت الحديث في الشام كله إلا ببركة الحافظ، فإنني كل من سألته يقول: «أول ما سمعت على الحافظ عبد الغني، وهو الذي حرضني».

قال الضياء: «وحرضني على السفر إلى مصر، وسافر معنا ابنه أبو سليمان عبد الرحمن ابن عشر، فبعث معنا (المعجم الكبير) للطبراني، وكتاب (البخاري)، و (السيرة)، وكتب إلى زين الدين علي بن نجا يوصيه بنا، وسفر ابن ظفر إلى أصبهان، وزوده، ولم يزل على هذا»[1].



١- السير (٢١/٤٥٠-٤٥١).

الشيخ الزاهد الورع العلامة يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ).

قال ابن العطار الدمشقي: ذكر لي الشيخ ياسين بن يوسف المراكشي ولي الله رحمه الله قال: «رأيت الشيخ محيي الدين -وهو ابن عشر سنين- بنوى، والصبيان يُكْرِهونه على اللعب معهم، وهو يهرب منهم، ويبكي لإكراههم، ويقرأ القرآن في تلك الحال، فوقع في قلبي محبته.

وجعله أبوه في دُكَّان، فجعل لا يشتغل بالبيع والشِّراء عن القرآن.

قال: فأتيتُ الذي يُقْرِئُه القرآن، فوصيتُه به، وقلتُ له: هذا الصبيُّ يُرْجى أن يكون أعلم أهل زمانه، وأزهدهم، وينتفع الناس به.

فقال لي: أمنجِّمٌ أنت؟

فقلتُ: لا، وإنما أنطقني الله بذلك.

فذكر ذلك لوالده، فحرص عليه، إلى أن ختم القرآن وقد ناهز الاحتلام»[١].

وقال ابن فرح: «الشيخ محيي الدين قد صار إلى ثلاث مراتب، كل مرتبة منها لو كانت لشخص لشدت إليه الرحال: العلم، والزهد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[٢].

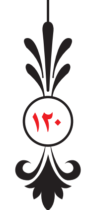


١- تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين (ص٤٤-٤٥).
٢- طبقات علماء الحديث (٤/٢٥٦).

⬅الحكيم الفاضل بهاء الدين الإسرائيلي عبد السيد بن إسحاق بن يحيى (ت ٧١٥هـ).

كان ديان اليهود وكان يحب المسلمين ويحضر مجالس الحديث ثمَّ هداه الله تعالى وأسلم وتعلَّم القرآن وجالس العلماء، وكان ماهرًا في صناعة الطب والكحل.

قال ابن كثير: «كان إسلامه يوم الثلاثاء رابع ذي الحجة سنة (٧٠١)، وحضر هو وأولاده إلى دار العدل فأسلموا جميعًا فأكرموا إكرامًا زائدًا؛ لأنهم أسلموا طائعين على بصيرة، وعمل في تلك الليلة في داره ختمة وليمة عظيمة حضرها القضاة والعلماء، وأسلم على يده جماعة من اليهود من أقاربه وخرجوا يوم عيد الأضحى يكبرون مع المسلمين وفرح الناس بهم فرحًا زائدًا وأكرموهم إكرامًا عظيمًا»[١].



١-الدرر الكامنة لابن حجر (٢/٤٧٦).

شيخ الإسلام أحمد بن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ). قال تلميذه ابن عبد الهادي: واتفق أن بعض مشايخ العلماء بحلب قدم إلى دمشق، وقال: سمعت في البلاد بصبي يقال له: أحمد بن تيمية، وأنَّه سريعُ الحفظ، وقد جئت قاصدًا لعلي أراه.

فقال له خياط: هذه طريق كُتَّابه، وهو إلى الآن ما جاء فاقعد عندنا، الساعةَ يجيء يعبُر علينا ذاهبًا إلى الكُتَّاب. فجلس الشيخ الحلبي قليلًا، فمرَّ صبيان، فقال الخياط للحلبي: هذاك الصبي الذي معه اللوح الكبير هو أحمد بن تيمية، فناداه الشيخ، فجاء إليه، فتناول الشيخ اللوحَ فنظر فيه، ثمَّ قال: يا ولدي امسح هذا حتى أملي عليك شيئا تكتبه، ففعل. فأملى عليه من متون الأحاديث أحد عشر، أو ثلاثة عشر حديثًا، وقال له: اقرأ هذا، فلم يزد على أن تأمَّله مرةً بعد كتابته إياه، ثمَّ دفعه إليه، وقال: اسمعه عليَّ، فقرأه عليه عرضًا كأحسنِ ما أنت سامع، فقال له: يا ولدي امسح هذا، ففعل، فأملى عليه عدة أسانيد انتخبها، ثمَّ قال: اقرأ هذا، فنظر فيه كما فعل أول مرة، فقام الشيخ، وهو يقول: «إنْ عاش هذا الصبيُّ؛ ليكوننَّ له شأنٌ عظيم، فإن هذا لم يرَ مثله» أو كما قال[1].

١- العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص٢٠).

القاضي جمال الدين عبد القاهر بن محمد بن عبد الواحد التبريزي ثمَّ الحراني ثم الدِّمشقي (ت ٧٤٠هـ). يقول: ماتت أمي بنت عشرين سنة، وكان أبي تاجرًا ذا مال فقدم بي إلى دمشق وأنا ابن ست سنين، فمات، وكفلني عمي عبد الخالق، ورجع بي إلى حران، وباع أملاكنا بثمانين ألفًا ورد بي ثمَّ قال لي يومًا: امض بنا، فمضى بنا نحو ميدان الحصا، وعرَّج بي فوثب عليَّ فخنقني فغشيت، فرماني في حفرةٍ وطمَّ عليَّ المدر والحجارة، فأبقى كذلك أربعة أيام، فمرَّ رجل صالحٌ كان برباطِ الإسكاف -عرفته بعد ثلاثين سنة- فبكَّر يتلو ومر بجسر ابن سواس ثمَّ إلى القطائع فجلس يبول، وكنت أحكُ رجلي فرأى المدر يتحرك فظنه حيَّة، فقلَّب حجرًا فبدتْ رجلي فاستخرجني، فقمت أعدو إلى الماءِ فشربت من شدة عطشي ووجدت في خاصرتي فزرًا من الحجارة، وفي رأسي فتحًا ثمَّ أراني القاضي أثر ذلك في كشحه، ووضع أصابعي على جورة في رأسي تسع باقلاه، قال: ودخلتُ البلد إلى إنسان أعرفه فمضى بي إلى ابن عم لنا وهو الصدر الخجندي، وكان متخفيًا بالصالحية، وله غلامان ينسخان ويطعمانه، اختفى لأمور بدت منه أيام هولاكو، وكتب معي ورقة إلى نسائه بالبلد، وكانت بنته ست البهاء التي تزوج بها الشيخ زين الدين ابن المنجا وماتت معه، هي أختي من الرضاعة، فأقمت

عندهن مدة لا أخرج حتى بلغت وحفظت القرآن بمسجد الزلاقة، فمررت يومًا بالديماس[1]. فإذا بعمي فقال: هاه جمال!! امش بنا إلى البيت، فما كلمته، وتغيرت ومعي رفيقان فقالا لي: ما بك؟ فسكتُّ وأسرعت، ثمَّ رأيته مرة أخرى بالجامع، فأخذ أموالي وذهب إلى اليمن وتقدم عند ملكها ووزر ومات عن أولاد.

وجودت الختمة على الزواوي، وتفقهت على النجم الموغاني، وترددت إلى الشيخ تاج الدين وتفقهت بابن جماعة، وقرأت عليه مقدمة ابن الحاجب وعلى الفزاري، ثم وليت القضاء من جهة ابن الصائغ وغيره[2]. فتأمل ما حصل معه، وكيف نجّاه الله، وكتب له أن يكون عالماً.

١- الحمام.

٢- الوافي بالوفيات (١٩/٣٧-٣٨).

الحافظ الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ).

يقول عن شيخه البرزالي: الإمام، الحافظ، المتقن، الصادق، الحجة، مفيدنا ومعلمنا، ورفيقنا، محدث الشام، مؤرخ العصر(١).

وقال: «وبلغ عدد مشايخه بالسماع أزيد من ألفين وبالإجازة أكثر من ألف رتب ذلك كله وترجمهم في مسودات متقنة»(٢).

كان لهذا الشيخ أثرًا في نفس الذهبي، إذ قال عنه: وهو الذي حبب إليَّ طلب الحديث، فإنَّه رأى خطي، فقال: «خطك يشبه خط المحدثين»، فأثر قوله فيَّ، وسمعت منه، وتخرجت به في أشياء(٣).

وكأن ما حصل مع الذهبي وشيخه، هو ما قاله منصور بن عبد الله: سمعت أبا جعفر سعيد بن تركان، بدمشق، يقول: «صحبت أنا وأخي علي يعقوب بن الوليد بعد صحبته الجنيد، فما عظم في قلوبنا أحد ولا تجاوز حد الجنيد، لأنَّه كان يؤدبنا تأديب شفقة، والآخرون كانوا يؤدبونا تأديب رياضة وإظهار أستاذية»(٤).

١- معجم الشيوخ الكبير للذهبي (٢/١١٥).
٢- ثلاث تراجم نفيسة للأئمة الأعلام ابن تيمية والحافظ علم الدين البرزالي والحافظ جمال الدين المزي (ص٣٩) ت: العجمي.
٣- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر (٤/٢٧٨-٢٧٩).
٤- تاريخ بغداد (١٠/ ١٥٧).

ومدحه الذهبي فقال:

إن رمت تفتيش الخزائن كلهَا وَظُهُور أَجزَاء بَدَت وعوالي
وتفوق أَشْيَاخ الْوُجُود وما رووا طالع أَو اسْمَع مُعْجم البرزالي[١]

الحافظ علاء علي بن إبراهيم بن مصطفى المارديني ابن التركماني الحنفي (ت ٧٥٠هـ). يقول عنه تلميذه محي الدين الحنفي (ت ٧٧٥هـ): «وأعظمهم عليَّ منة في ذلك وأكثرهم لي مددًا شيخنا العلامة الأوحد الأستاذ أبو الحسن علي المارديني، وكنت في كل وقت أعرض عليه ما وقع لي من التراجم، ويرشدني إلى أشياء حسنة»[٢].

العلامة محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) يقول: قال لي شيخ الإسلام رضي الله عنه وقد جعلت أورد عليه إيرادا بعد إيراد-: «لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة، فيتشربها، فلا ينضح إلا بها، ولكن أجعله كالزجاجة المصمتة، تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه، ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليك صار مقرا للشبهات»، أو كما قال؛ فما أعلم أنِّي انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك[٣].



١- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني (٥١/٢).
٢- الجواهر المضية في طبقات الحنفية (٥/١).
٣- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (٣٩٥/١)، ومثل هذا ما ذكره الذهبي

الأديب المؤرخ صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت ٧٦٤هـ). يقول عن شيخ الإسلام ابن تيمية: ثم اجتمعت به بعد ذلك مرات عديدة وكان إذا رآني قال: «أيش حس الإيرادات؟ أيش حس الأجوبة؟ أيش حس الشكوك؟ أنا أعلم أنَّك مثل القدر التي تغلي تقول: بق بق بق أعلاها أسفلها، وأسفلها أعلاها، لازمني لازمني تنتفع»، وكنت أحضر دروسه ويقع لي في أثناء كلامه فوائد لم أسمعها من غيره، ولا وقفت عليها في كتاب رحمه الله تعالى[1].

في «سير أعلام النبلاء» (٦١٧/٤).عن عبد الله بن مسلم المروزي، قال: كنت أجالس ابن سيرين، فتركته، وجالست الإباضية، فرأيت كأنِّي مع قوم يحملون جنازة النبي ﷺ.
فأتيت ابن سيرين، فذكرته له، فقال: «مالك جالست أقوامًا يريدون أن يدفنوا ما جاء به النبي ﷺ».

١- الوافي بالوفيات (١٥/٧)، ثم يقول الصفدي عن شيخ الإسلام طيب الله ثراه: وعَلى الْجُمْلَة فَمَا رَأَيْتُ وَلَا أرى مثله فِي اطّلاعه وحافظته، وَلَقَد صدَّق مَا سمعنَا بِهِ عَن الْحفاظ الأول، وَكَانَت همه علية إِلَى الْغَايَة؛ لِأَنَّهُ كَانَ كثيرًا مَا ينشد:

تَمُوت النُّفُوس بأوصابها ... وَلم تشك عوَّداها مَا بهَا
وَمَا أنصفت مهجةٌ تَشْتَكِي ... هَواهَا إِلَى غير أحبابها

وينشد أَيْضا:

من لم يقد ويدس فِي خيشومه ... رهج الْخَمِيس فَلَنْ يقُود خميسًا

شمس الدين ابن الصائغ محمد بن عبد الرحمن الحنفي (ت ٧٧٦هـ). قال الصفدي: اجتمعت به غير مرة بالديار المصرية بعد حضوره من دمشق، وصحبته من حلقة الشيخ أثير الدين -أبي حيان الأندلسي-، وقرأ عليه العربية وعلى الشيخ شهاب الدين ابن المرحل. وقرأ بالروايات، وجوَّد العربيَّة، ولم يكن له إلمامٌ بالأدب ولا له نظم، فلمَّا اجتمعتُ به كنت السبب في ميله إلى الأدب، وأخذ ينظم قليلًا قليلًا إلى أنْ مَهر وصارَ في عِداد الأدباء والشعراء، ومال إلى الأدب ميلًا كليًا، وأقبل على النَّظم، وغاص على المعاني، وراعى التورية والاستخدام في شعره[١].

الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ). قال رحمه الله عن شيخه محب الدين بن الوحدية: «اجتمع بي مرة بمصر فرآني حريصًا على سماع الحديث، وكتبه فقال: اصرف بعض هذه الهمة إلى الفقه، فأنني أرى بطريق الفراسة أنَّ علماء هذا البلد سينقرضون، وسيحتاج إليك، فلا تقصر بنفسك، فنفعتني كلمته، ولا أزال أترحم عليه لهذا السبب رحمه الله تعالى»[٢].

١- الوافي بالوفيات (٣/٢٠٠).

٢- المعجم المؤسس.

➡**إبراهيم بن أحمد بن حسن بن أحمد بن محمد بن أحمد برهان الدين العجلوني ثم المقدسي الشافعي (ت ٨٨٥هـ)** نزيل القاهرة كان أبوه برادعيًا، فنشأ هو تاجرًا في البر ببعض حوانيت القدس، وقد مات أخ له اسمه حسن، وكان عطارًا محظوظًا في التجارة خيِّرًا راغبًا في بر الطلبة، فورثه، وبواسطته كان البرهان يجتمع بالزين ماهر أحد علماء القدس وصلحائه؛ فرأى منه فطنة وذكاءً فخطبه للاشتغال ورغبَّه فيه، وقرأ عليه الحاوي الصغير في التقسيم، وأذن له بعد بيسير في التدريس بحيث عرف به، وكذا قرأ ألفية النحو على أبي علي الناصري المؤدب، وانتمى إليه جماعة من فقراء الناس وكان يحلق بهم لاقرائهم مديمًا لذلك[1].

➡**الشيخ الفقيه زكريا الأنصاري الشافعي (ت ٩٢٦هـ)**، ذكر الغزي فقره وكيف أصبح عالماً وفقيهًا كبيرًا، وذلك أنَّ والدته جاءت إلى الشيخ ربيع بن عبد الله السلمي تشتكي له، فقال لها: «إنْ أردتِ خلاصه فافرغي عنه يشتغل ويقرأ بجامع الأزهر، وعليَّ كلفته»، فسلمت إليه الشيخ زكريا على ذلك ليتنصل من الفلاحة، وكان عليه يومئٍذ خلق ثوب وزمط مقور، فلا زال يشتغل الشيخ زكريا حتى صار إلى ما صار إليه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضلِ العظيم[2].

١- الضوء اللامع (١/١١-١٢).
٢- الكواكب السائرة (١/١٩٨).

لَوْلَا الْعُلُومُ لَمَّا سَمِعْتَ لِهَالِكٍ	ذِكْرًا وَلَا خَبَرًا مِنَ الْأَخْبَارِ
كَمْ مِنْ أَدِيبٍ حَاضِرٍ فِي مِصْرِهِ	وَحَدِيثُهُ الْمَشْهُورُ فِي الْأَمْصَارِ
يُنْسَى الْأَنَامُ وَذُو الْعُلُومِ مُخَلَّدٌ	فِي النَّاسِ مِنْ بَاقٍ هُنَاكَ وَسَارِ

العلامة محمد بن علي الشوكاني رحمه الله **(ت ١٢٥٠هـ)**، قال رحمه الله:

«إنِّي لما أردت الشروع في طلب العلم ولم أكن إذ ذاك قد عرفت شيئًا منه حتى ما يتعلق بالطهارة والصلاة إلا مجرد ما يتلقاه الصغير من تعليم الكبير لكيفية الصلاة والطهارة ونحوهما، فكان أول بحث طالعته بحث كون الفرجين من أعضاء الوضوء في الأزهار وشرحه لأن الشيخ الذي أردت القراءة عليه والأخذ عنه كان قد بلغ في تدريس تلامذته إلى هذا البحث، فلما طالعت هذا البحث قبل الحضور عند الشيخ رأيت اختلاف الأقوال فيه؛ سألت والدي رحمه الله عن تلك الأقوال أيُّها يكون العمل عليه؟

فقال: يكون العمل على ما في الأزهار.

فقلت: صاحب الأزهار أكثر علمًا من هؤلاء!

قال: لا.

قلت: فكيف كان اتباع قوله دون أقوالهم لازمًا؟

فقال: أصنع كما يصنع الناس، فإنْ فتح الله عليك فستعرف ما يؤخذ





به وما يترك.

فسألت الله عند ذلك أن يفتح عليَّ من معارِفِه ما يتميز لي به الراجح من المرجوح، وكان هذا في أول بحث نظرته، وأول موضوع درسته، وقعدت فيه بين يدي العلم فاعتبر بهذا، ولا تستبعد ما أرشدتك إليه فتحرم بركة العلم وتمحق فائدته»[1].

تاج العلماء المختار بن بون الجكني (ت ١٢٣٠هـ). نشأ المختار بن بون في بيت أبيه، ولم يشتغل بالقراءة إلا بعد أن كبر، وكان في أول أمره، يضرب أقرانه من الصبيان، وينزع منهم ما بأيديهم: فاتفق أنَّه سطى ذات يوم على صبي فضربه، فانتصرت له أمه، وسبت المختار بن بون سباً قبيحاً، وعيرته بالجهل، فأنِف لذلك، وسار من غير علم أبويه، يريد المختار ابن حبيب، فوصل اليه، وشرع في قراءة الأجرومية، فلم يفهمها، ثمَّ فتح الله عليه[2].



١- أدب الطلب (ص٣٥).

٢- الوسيط في تراجم أدباء شنقيط والكلام على تلك البلاد تحديدا وتخطيطا وعاداتهم وأخلاقهم وما يتعلق بذلك (ص٢٧٧-٢٧٨)، بالاستفادة من «الإبداع العلمي» (ص١٨٧-١٨٨).

الشاعرة الأديبة عائِشَة التَّيْمُورِيَّة (ت ١٣٢٠هـ) من نوابغ مصر.

كانت تنظم الشعر بالعربية والتركية والفارسية

نشرت مقالات في الصحف، وعلت شهرتها. لها (حلية الطراز) وهو ديوان شعرها العربيّ، و (نتائج الأحوال) في الأدب، و(كشوفة) ديوان شعرها التركي. وهي شقيقة أحمد تيمور باشا[1].

يقول الشيخ علي الطنطاوي عنها: نشأت في أسرة تركية غنية، فتعلمت القراءة والكتابة في القصر على طريقة بنات الأكابر، فتنبهت في نفسها الرغبة في المطالعة والإشراف على مجالس العلم في القصر، ولكن أمها أرادتها على ما كان من شأن أترابها الخياطة والتطريز، وأبت البنت إلا ما تميل إليه فطرتها، واستمرت المعركة حتَّى برز الأب إسماعيل بن تيمور، فقال لها: دعي هذه البنت للعلم، وعليك بأختها ربيَّها كما تريدين، وأحضر لها المعلمين والمعلمات، فأخذت النحو والعروض عن فاطمة الأزهرية وستيتة الطبلاوية.

والصرف والفارسية على علي خليل رجائي، والقرآن والخط والفقه على إبراهيم تونسي، وحفظت عشرات الدواوين، وطالعت كتب الأدب حتى صارت تنظم بالعربية والفارسية والتركية، ولها دواوين جميعًا، ولم يكن

١- الأعلام للزركلي (٣/٢٣٩-٢٤٠).

يفوقها من شعراء عصرها إلا البارودي (ذاك أمَّة وحده)[1].

شيخ الشام سليم العطار (ت ١٣٠٧هـ) طلب العلم بعد أن جاوز الخامسة عشرة من عمره، وقبل ذلك لم يشتغل بالطلب، بل كان يلعب مع الصبيان، حتى مرَّ به يومًا الشيخ رضي الغزي (ت ١٢٨٦هـ) وهو يلعب، فقال له: «أليس من العار أن تكون حفيد الشيخ حامد شيخ علماء الشام وفي حجره وأنت بهذه الحالة؟!» فانتبه من غفلته، وشمَّر عن ساعد الجد والاجتهاد، ولازم الدروس، وثابر على الحفظ والقراءة، حتى تضلع في مختلف العلوم، وسبق أقرانه[2].

١- رجال من التاريخ (ص٤٢٥-٤٢٧).
٢- تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري (١/٨٩)، وترجمة التاجي في «تاريخ علماء دمشق في القرن الثالث عشر الهجري» (٢/٦٧٧).

العالم الفاضل عثمان مردم الدمشقي (ت ١٣٠٤هـ). وذلك أنَّه كان في حداثته يميل إلى الفتوة في مسلكه وملبسه، فاتفق أنَّه بينما كان واقفًا ذات يوم في مدخل حيه قرب المارستان النوري إذ رآه الشيخ هاشم التاجي أمين الفتوى في دمشق (ت ١٢٦٤هـ) يتبعه تلامذته، فسلَّم عليه وقال له: «يا بني، لا يجمل بمثلك أن يضيع أوقاته، ويقف مثل هذا الموقف، فقابلني غداً في دار هاشم التاجي». فلمّا علم أنَّ الذي كلمه هو الشيخ نفسه بكَّر إليه، وأخذ يتلقى عنه، ولبس الجبة والعمامة البيضاء، ولازمه، وتزوج إحدى بناته[1].

الأستاذ المحقق واللغوي المدقق زكي مبارك (ت ١٣٧١هـ). يقول أنا مدين للشيخ سيد المرصفي بكل شيء في حياتي اللغوية والأدبية، ولا يزاحمه في قلبي إلا إنسان واحد هو فقيد الأدب والبيان محمد المهدي.

في أحد الأيام قلت لأبي: أنا أحب أن أتعلم في الأزهر فقال: من أين وصل إليك هذا الخاطر؟

فقلت: إنَّه أمل يساورني منذ أيام ولعلَّ في تحقيقه خيرًا كثيرًا، ذهبت إلى الأزهر وسني سبعة عشرة عامًا، دخلته وجلست استمع إلى الشيخ

١- تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري (٤٢/١)، وترجمة التاجي في «تاريخ علماء دمشق في القرن الثالث عشر الهجري» (٥١٠/٢)، و«العناية بطلاب العلم» للأنيس (ص٤٠).

سيد بن علي المرصفي. وكان الدرس إنَّ الله ما عصي بشعر كما عصي بشعر عمر بن أبي ربيعة، قال الشيخ: هذه مثلبة أم منقبة؟ فأجاب أكثر الطلاب بأنها مثلبة، وأجبت وحدي بأنَّها منقبة، فقال: وكيف؟

فقلت: يريدُ ابن عباس أن شعر ابن أبي ربيعة يفعل بالقلوب ما يفعل الشراب فينقلها من الهدى إلى الضلال، فقال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في حماسة شديدة «إيه يا عروس الأدب» وكانت أول كلمة حببت إلي دراسة الأدب[1].

وما أشبه الذي قاله بما حصل مع العلامة الشمني (ت ٨٧٢هـ).

قال السخاوي وحكى لي شيخنا العلامة مفخرُ العصر تقي الدين الشُّمُنّي، وهو مِنْ تلامذته، قال: كنتُ أحضُرُ عنده بعد أن اشتغلْتُ وفهمت العِلمَ فيكرِمُني، وأفهم أنَّ سببَ ذلك كون والدي مِنْ جماعته لا لكوني طالبَ علمٍ؛ لأنَّه لم يكن اطَّلع على ذلك، إلى أن حضرتُ بين يديه مرَّةً على العادة في المحمودية، وقارئٌ يقرأ عليه حديث «فليَخْلُقوا ذرة وليخْلُقُوا حبَّةً أو شعيرة»، فوقع السؤال عَن الحكمة في التَّرقِّي، كذلك قال: فأجبتُ بأن صُنْعَ الأشياءِ الدَّقيقة فيه صعوبةٌ، والأمر لمعنى التَّعجيز، فناسبَ التَّرقِّي مِنَ الأعلى للأدنى. قال: «فأعجبه ذلك، وأقبل

١- زكي مبارك بقلم زكي مبارك (ص٢٦-٢٧)، نقلًا من كتاب «الظل والحرور» (ص١١٦-١١٧).

عليَّ، وصار يلحظُني ويُكرمني ويُصغي لمقالي»[1].

فقيه الأدباء وأديب الفقهاء الشيخ علي الطنطاوي (ت ١٤٢٠هـ).

يقول رحمه الله: أحببت الأستاذ الجندي حب الولد أباه، وعرفت قدره فكنت لا أكفّ عن سؤاله، أسأله في الصف، وألحقه في الفرصة، وأدخل معه غرفة المدرّسين؛ أشرب من معين علمه ولا أرتوي، أتزوّد من هذا المنهل العذب لسفري الطويل في بيداء الحياة.

أسأله عن الغريب فلا تغيب عنه كلمة منه، كأنَّه وعى المعاجم وغيّبها في صدره.

وأسأله عن التصريف والاشتقاق فيجيب على البديهة بما يُعيي العلماءَ جوابُه بعد البحث والتنقيب.

وأسأله عن النحو فإذا هو إمامه وحجته. وألقي إليه بالبيت اليتيم أجده في كتاب، فإذا هو ينشد القصيدة التي ينتمي إليها (أو أكثرها) ويعرّف بالشاعر الذي قالها لقد كان مدرّساً للعربية ولكنه كان أكثر من مدرس، وكان عالِماً من علماء البلد بل كان أكثر من عالِم، ورُبّ مدرّس لا يكون عالِماً، ورب عالِم لا يكون عالِماً إلا في بلده وبين أقرانه، ورب عالِم لا يكون عالِماً إلاّ بالنسبة إلى عصره وزمانه. أما الجندي فكان من أعلم

١- الجواهر والدرر (١٠٤٣/٣).

علماء العربية في هذا العصر، وكان واحداً من علماء العربية الأوّلين، ولكنه ضلّ طريقه في بيداء الزمان فجاء في القرن الرابع عشر لا في القرن الرابع!

أقرّ هذا بعدما مشيت في البلاد وجالست العلماء، فما ثَمّ عالم مشهور في العربية في الشام ومصر والعراق والحجاز والهند وماليزيا وأندونيسيا إلاّ عرفته، لقاءً به أو قراءة له أو سماعاً به. عرفت في مصر علماء الجامع الأزهر والجامعة والأدباء والكتاب، أعني الكثير منهم، وأنا أؤكد القول -صادقاً إن شاء الله- أنّي لم أجد فيهم من يفوق في حفظه وضبطه وأمانته وملَكته وإحاطته الأستاذ سليم الجندي.

وكشفت فيه يوماً بحر علم لم أكُن أعرفه من قبل. سألته عن مسألة أصولية فإذا هو أصولي، وإذا هو عارف بالفقه راوٍ للحديث عارف بالتفسير ... ومن هنا جاء علمه بالعربية. إن العربية لا تنفصل عن الإسلام.

أذكر أنه لما قدم علينا حفّظنا قصيدة المتنبي: «وا حَرَّ قلباهُ ممَّن قلبُهُ شبِمُ»، فلما كان الدرس التالي قال لنا: المتنبي شاعر مولّد لا يُحتجّ بعربيته، فأعرِضوا عن هذه القصيدة. وحفّظنا (ولا زلت أحفظ الكثير منه) المنتقَى المختار من شعر الشعراء الجاهليين والإسلاميين ممّن يُحتَجّ

به في اللغة. وكان ينهانا عن قراءة الصحف والمجلاّت خشية أن تفسد ملكاتنا وتدخل اللحن علينا.

جزى الله عنّي الشيخَين المبارك والجندي خيراً، وجزى الخيرَ كل من علمني قبلهما أو بعدهما، فمنهما أخذت جل بضاعتي في العربية.





النبوغ أسبابه ومعوقاته
ومن نبغ من العلماء في وقت متأخر



النبوغ ومعوقاته

- **النابغة أو العبقري**: «هو الذي يحدث علماً أو فناً من فنون الأدب لم يكن شيئاً مذكورًا» كما صنع الخليل بن أحمد في علم مقاييس الشعر، أو ينقله من قلة إلى كثرة؛ كما صنع عبد القاهر الجرجاني في علم البلاغة، ودون هذه الدرجة درجات[١].

وقيل: النبوغ إذا أردنا أن نصفه بألفاظ قصيرة: «هو أن يحصل الإنسان على علم كثير في وقت قصير، مع الحذق والاتقان وحسن التأمل والأداء»[٢].

- **مهيئات النبوغ**: وللنبوغ مهيئات وهي: **أن ينشأ الذكي في درس أستاذ يطلق له العنان في البحث، ويرده إلى الصواب برفق، ويثني عليه إن ناقش فأصاب المرمى.**

نقرأ في ترجمة (العلامة إبراهيم بن فتوح الأندلسي): أنَّه كان يفسح لصاحب البحث مجالًا رحبًا، بل يطلب من التلاميذ أن يناقشوه فيما يقرر، ويحثهم على ذلك، ويختار طريق التعليم به، وشأن العالم العبقري أن يقبل على التلميذ المتقد ذكاء، ويأخذ بيده في طريق التحصيل حتى يعرف كيف يكون عبقريًا.

١- رسائل الإصلاح المطبوعة لمحمد الخضر حسين (ت ١٣٧٧هـ) (ص٤١٧).
٢- أسباب النبوغ عند السلف لأبي غدة الحلبي (ص٣٧) ط: دار البشائر الإسلامية.



❑ **ومن مهيئات النبوغ**: أن يشب الألمعي بين قوم يقدرون النوابغ قدرهم، فإن نظر القوم إلى النابغة بعين التجلة، وإقبالهم عليه باحتفاء، ممَّا يزيد الناشئين الأذكياء قوة على الجد في الطلب، والسعي إلى أقصى درجات الكمال.

ولا عجب أن يظهر النابغون في العلم والأدب ببلاد الأندلس؛ فقد كان أهلها كما قال صاحب «نفح الطيب»: «يعظمون من عظمه علمه، ويرفعون من رفعه أدبه، وكذلك سيرتهم في رجال الحرب: يقدمون من قدمته شجاعته، وعظمت في الحروب مكايده».

وظهر في عالم الإسلام خلفاء وملوك ووزراء، كانوا يقدرون النوابغ، ويحتفون بهم لنبوغهم؛ مثل: المأمون العباسي، وعبد الله بن طاهر، وسيف الدولة، والصاحب بن عباد في الشرق، وعبد الرحمن الناصر، والمنصور بن أبي عامر، والمعتمد بن عباد في الأندلس.

وأسوق مثلًا لهذا التقدير: أنَّ القاسم بن سلاَّم عرض على عبد الله بن طاهر تأليفه في غريب الحديث، فقال عبد الله: «إنَّ عقلًا بعث صاحبه على عمل هذا الكتاب، حقيق بأنْ لا يحوج إلى طلب المعاش، وأجرى عليه عشرة آلاف درهم في الشهر»[1].

١- نشأ العلامة أبو عبد الله التلمساني في تلمسان، وعاش بها، ويقول الكاتبون في التعريف به: «وكان علماء الأندلس أعرف الناس بقدره، وأكثرهم تعظيمًا له».

❑ **ومن مهيئات النبوغ:** نشأة الذكي في حاضرة زاخرة بالعلوم والآداب؛ إذ في الحواضر يلاقي الناشئ جهابذة العلماء، وأعلام الأدباء، وفي الحواضر يشتد التنافس في العلوم والفنون، ويتسع مجال المحاورات والمناظرات.

❑ **ومن مهيئات النبوغ:** قراءة مؤلفات النابغين في العلم بعد الاطلاع على دراسة الكتب التي تسوق المسائل مجردة من أدلتها، غير معنية بالغوص على أسرارها، وإنَّما يرجى منه النبوغ متى وضعت تحت نظره كتب يرى مؤلفيها كيف يستمدون آراءهم من الأصول العالية.

❑ **ومن مهيئات النبوغ:** الرحلة، والتقلّب في كثير من البلاد، ولا سيَّما بلادًا تختلف بعاداتها وأساليب تربيتها ومناهج حياتها العلمية والسياسية، ولعلَّ نبوغ (ابن خلدون) في شؤون الاجتماع ذلك النبوغ الرائع؛ إنَّما جاءه من نشأته في تونس، ثمَّ سياحته في بلاد الجزائر والمغرب الأقصى والأندلس ومصر سياحة اعتبار، سياحة اتصل فيها برؤساء حكوماتها، وأكابر علمائها، بل سياحة كان يقبض فيها -أحيانًا- على طرف من سياسة تلك البلاد.

وأشار إلى هذا المعنى بعض من نشأ أو أقام بين قوم لم يقدروا فضل براعته، فقال:

وما أنا إلا المسك في غير أرضكم　　　يضوع وأما عندكم فيضيع

❑ **كيف نصعد بأبنائنا في مراقي النبوغ؟** تختلف نفوس الناشئين في الميل إلى العلوم، كل نفس تميل إلى ما يوافق طبعها، فنرى نفسا تختار علما، ونفسا تختار علما غيره، ولندع الفلسفة تبحث عن سر موافقة هذا العلم لطبع هذه النفس، ونكتفي بأن نعلم أن هذه النفس تميل إلى هذا العلم. لنتوجه بها إلى التخصص به، فتطلبه برغبة زائدة عن رغبتها فيه من حيث إنه علم، وقد أدرك هذا علماؤنا من قبل، فنقرأ في التعريف بحياة العلامة أبي عبد الله التلمساني: أنَّه كان يترك كل طالب يتخصص بالعلم الذي تميل إليه نفسه.

ومناهج التعليم اليوم تقتضي تخصص كل طائفة بقسم من العلوم، ولا يكفي توجه الطالب إلى التخصص بقسم من العلوم لأن يكون نابغًا فيه، وما فتح أبواب التخصص إلا أحد المهيئات للنبوغ، وقد تفوت الطالب القريحة الوقادة، والألمعية المهذبة، أو تفوته الهمة التي تطمح به إلى بلوغ الذروة في العلم، فعلى القائمين على شؤون التعليم العام أن لا يكتفوا بأن تخرج أقسام التخصص في كل عام فرقًا يؤدون الامتحان، ويحرزون شهادات تخولهم ولاية بعض المناصب، بل واجبهم أن يوجهوا عنايتهم إلى ذوي الذكاء المتقد، وإن كانوا من أبناء البيوت الخاملة، ويربون فيهم الهمة الطامحة إلى أسمى الغايات، ويقوون عزائمهم بكل وسيلة ممكنة، حتى

يسيروا في طريق العبقرية؛ فإن سلامة الأمة وسيادتها على قدر ما تخرجه معاهدها وجامعاتها من أساتذة أجلاء، أساتذة لا يتركون في العلم الذي يتخصصون به غامضًا إلا استكشفوه، ولا بابًا من أبوابه إلا نفذوا منه[1].



١- المصدر السابق باختصار وانتقاء (ص٤١٩-٤٢٦).

ومن عوائق النبوغ. ترك السؤال والاستفسار عن العلم وتحصيل المعرفة بالطريقة الصحيحة. قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: «قرنت الهيبة بالخيبة، والحياء بالحرمان»[١].

وعن ابن عباس قال: «إن كنت لآتي الرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا رأيته نائماً لم أوقظه، وإذا رأيته مغموماً لم أسأله، وإذا رأيته مشغولاً لم أسأله»[٢].

وقال ابن شهاب الزهري: «إنَّمَا هذا العلم خزائن ومفتاحها المسألة»[٣].

وقال الحافظ ابن عبد البر: «فمن سأل مستفهمًا راغبًا في العلم ونفي الجهلِ عن نفسهِ باحثًا عن معنى يجب الوقوف في الديانة عليه؛ فلا بأس به، فشفاء العيِّ السؤال، ومن سأل معنتًا غير متفقه ولا متعلم؛ فهذا لا يحل قليل سؤاله ولا كثيره»[٤].

وقال ابن الجوزي: إنَّ أبا بكر أحمد بن محمد الدينوري الحنبلي أنشدني:

١- جامع بيان العلم (١/٣٨٣).
٢- الجامع لأخلاق الراوي (١/٢١٢).
٣- الطيوريات (١١٨٢)، وأخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/٣٦٣) من طريق أبي همام، والبيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (ص٢٩١-٢٩٢) من طريق عبد الله بن عبد الحكم وبحر بن نصر، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/٣٢) من طريق زيد بن بشر.
٤- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٢١/٢٩٢).

أَخِي لَنْ تَنَالَ الْعِلْمَ إِلَّا بِسِتَّةٍ سَأُنْبِيكَ عَنْ مَكْنُونِهَا بِبَيَانِ
ذَكَاءٍ وَحِرْصٍ وَاجْتِهَادٍ وَبُلْغَةٍ وَإِرْشَادِ أُسْتَاذٍ وَطُولِ زَمَانِ[1]

➢ **إيثار الراحة**. والذي شهد به القاصي والداني أنَّ من أهم العوامل المساعدة على النبوغ والعبقرية وبلوغ القمم؛ هو الصبر والجلد والتحمل[2].

والنفسُ راغبةٌ إذا رغّبتَها وإذا تُردُّ إلى قليلٍ تقنعُ

وحكي عن بعض فضلاء القضاة أنَّه رؤي وهو طاعن في السن وهو يتعلم أشكال الهندسة، فقيل له في ذلك، فقال: «وجدته علمًا نافعًا فكرهت أن أكون لجهلي به معاديًا»[3].

بالعلمِ سادَ النَّاسُ في عصرهِمْ واخترقوا السبع الطِّباقَ الشِّدادْ
أيطلُبُ المجدَ ويبغي العُلا قومٌ لسُوقِ العلمِ فيهم كَسادْ
ما أصعبَ الفِعلَ لمَنْ رامَهُ وأسهلَ القولَ على من أرادْ!

قال ابن عبد البر: وأنشدت لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي في أبي

١- الآداب الشرعية (٢١٦/١)، وذكره برهان الإسلام الزرنوجي في «تعليم المتعلم» (ص٧٦) وعزاه لعلي رضي الله عنه.
٢- قال أديسون: «واحد من المئة من العبقرية نبوغٌ وإلهامٌ، وتسعة وتسعون في المئة عَرَقٌ واجتهاد». كما في «موسوعة روائع الحكم» (ص٢٦٢)، و«الموسوعة العربية العالمية» (٤٢٤/١)، وعنه في «الإبداع العلمي» (ص٧٣).
وقال هاملتون: «العبقريةُ ثمرةُ الجهاد الشاقّ، والتفكير العميق. «موسوعة روائع الحكم» (ص٢٦٢)، و«الإبداع العلمي» (ص٧٣).
٣- مفتاح السعادة لطاش كبرى (ص٢٩) بتصرف.

مسلم بن فهد:

أَبَا مُسْلِمٍ إِنَّ الْفَتَى بِجَنَانِهِ وَمَقُولِهِ لَا بِالْمَرَاكِبِ وَاللُّبْسِ
وَلَيْسَ ثِيَابُ الْمَرْءِ تُغْنِي قُلَامَةً إِذَا كَانَ مَقْصُورًا عَلَى قِصَرِ النَّفَسِ
وَلَيْسَ يُفِيدُ الْعِلْمَ وَالْحِلْمَ وَالتُّقَى أَبَا مُسْلِمٍ طُولُ الْقُعُودِ عَلَى الْكُرْسِي[1]

وكان أبو الفضل المراغي يقرأ بمدينة السلام، فكانت الكتب تأتي إليه من بلده، فيضعها في صندوق، ولا يقرأ منها واحدا مخافة أن يطلع فيها على ما يزعجه أو يقطع به عن طلبه، فلمَّا كان بعد خمسة أعوام، وقضى غرضا من الطلب، وعزم على الرحيل شد رحله، وأبرز كتبه، وأخرج تلك الرسائل وقرأ منها ما لو أنَّ واحدة منها قرأها في وقت وصولها ما تمكن بعدها من تحصيل حرف من العلم، فحمد الله تعالى، ورحل على دابته، وخرج إلى باب الحلبة طريق خراسان، وتقدمه الكري بالدابة، وأقام هو على فامي[2] يبتاع منه سفرته؛ فبينما هو يحاول ذلك معه إذ سمعه يقول لفامي آخر: أي فل، أما سمعت العالم يقول يعني الواعظ: إن ابن عباس يجوز الاستثناء ولو بعد سنة، لقد اشتغل بالي بذلك منه منذ سمعته يقوله: وظللت فيه متفكرًا؛ ولو كان ذلك صحيحًا لما قال الله تعالى

١- جامع بيان العلم (١/٣٨٥).
٢- الفامي: بائع الطعام من بقول وخبز ونحوها.

لأيوب: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤].

وما الذي كان يمنعه من أن يقول حينئذ: قل إن شاء الله؟ فلما سمعته يقول ذلك قلت: بلد يكون الفاميون به من العلم في هذه المرتبة أخرج عنه إلى المراغة[١]؟ لا أفعله أبدًا؛ واقتفى أثر الكري، وحلله من الكراء، وصرف رحله. وأقام بها حتى مات رحمه الله[٢].

➢**ترك السماع من أهل العلم الثقات العدول**. فالمعلم والمربي يختصر للطالبِ الطريق لما تمحض له من طول التجربة، وتحصل له بكثرة الخلطة والممارسة، فكم من طالب نابغ تبلد وتشتت؛ لأنَّه لم يجد من يدله ويأخذ بيده ويرشده، كالأرض الخصبة إذا تركت دون حرث وغرس، لا يثمر بها نبات، ولا ينتج منها محصول.

والنَّارُ في أحْجَارِهَا مخبوءةٌ ليستْ تُرى إنْ لم تُثِرْها الأزنُدُ[٣]

روى الترمذي في «الجامع»، عن أبي هارون العبدي، قال: كنَّا نأتي أبا سعيد، فيقول: مرحبًا بوصية رسول الله ﷺ، إنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ النَّاس لكم تبع، وإن رجالًا يأتونكم من أقطار الأرضين يتفقهون في



١- المراغة: مدينة بأذربيجان.
٢- أحكام القران لأبي بكر بن العربي (١٥٤/٢).
٣- تاريخ بغداد (٤٠١/١٠).

الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرًا»[1].

وسئل حاتم الأصم: ما سبب أننا لم نجد ما وجد الأولون؟ قال: «فاتكم خمسة: المعلم النَّاصح، والصاحب الموفق، والجهد الدائم، والكسب الحلال، والزمان المساعد»[2].

وقيل: **آلاتُ العلم أربعة**: «الأول: شيخٌ فتّاح، والثاني: عقلٌ رجّاح، والثالث: كُتبٌ صِحاح، والرابع: مداومة وإلحاح»[3].

وقيل: **الشيخ في الدِّين ينقسم إلى ثلاثة أقسام**:«

شيخ تعليم.

وشيخ تربية.

وشيخ ترقية، وهو الذي ينبهه على الطريق والأدبِ، ويتوجه إلى الله تعالى في أن يطهرهُ منها بحوله وقوته، فيُربِّيه بهمَّته»[4].



١- (باب ما جاء في الاستيصاء بمن يطلب العلم) (٢٦٥٠) ثم قال: قال علي: قال يحيى بن سعيد: «كان شعبة يضعف أبا هارون العبدي». قال الحافظ ابن رجب الحنبلي «ورثة الأنبياء شرح حديث أبي الدرداء» (٢/٢٨٣) ت: النجار. (وينبغي للعالم أن يرحب بطلبة العلم ويوصيهم بالعمل. كما قال الحسن لأصحابه -وقد دخلوا عليه-: «مرحبًا بكم وأهلًا، حيَّاكم الله بالسلام، وأدخلنا وإيَّاكم دار السلام، هذه علانية حسنة إن صبرتم وصدقتم وأيقنتم، لا يكونن حظكم من هذا الخير -رحمكم الله- أن تسمعوه بهذه الأذن فيخرج من هذه الأذن»).

٢- الجواهر المضية في بيان الآداب السلطانية للمناوي (ص٢٤٥).

٣- انظر: الفوائد المكية فيما يحتاجه طلبة الشافعية (من ص٧٩ إلى ص٩٦) في شرح هذه المعاني. ط: الرسالة.

٤- **والشيخ يراد به**: الشيخ المسن. وقيل: من الخمسين إلى إحدى وخمسين إلى آخر عمره. وقد يطلق الشيخ على الرئيس المدبر أمور قبيلة أو قرية أو جماعة؛ لأنَّ الكبير يرجع إلى قوله

فإنَّ من مهام الأستاذ اللبيب الحريص أن يزرع في قلب طالبه حب الخير، وأن يحثه عليه، ويرفع من منزلته، ويقوي من عزيمته، ويضرب له الأمثال في علو همته، وأن يحسن من الأسماء والألقاب ما يبعث ذلك في خاطره[1].

قال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل: سمعت أبي، يقول: كان شعبة يتفقد أصحاب الحديث، فقال يومًا: «ما فعل ذاك الغلام الجميل؟» يعني: شبابة[2].

لأمرين:

أحدهما: أنَّه جدير بالتوقير لسنه.

الثاني: أنَّه أقدم وأقوى خبرةً وتجربةً، ولذلك اشتهر عند أهل سياسة الحرب أنَّ الشباب أولى بالإقدام، والمشيخة أولى بالكيد.

وقد يطلق الشيخ على مفيد العلم. فكل من أفادك علمًا بقوله أو فعله أو حاله، فهو شيخك فيه. انظر: فهرسة اليوسي، للعلامة أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي (ت ١١٠٢هـ) (ص٤٤-٤٦).

١- يقول أبو حفص البزار (ت ٧٤٩هـ) في كتابه «الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية» (ص٤٩-٥٠) «ولقد بالغ معي في حال إقامتي بحضرته في التواضع والإكرام حتى إنَّه لا يذكرني باسمي، بل يلقِّبني بأحسن الالقاب، ويظهر لي خصوصًا بين أصحابي من الإكرام والتبجيل والإدناء منه، بحيث لا يتركني اجلس إلاَّ إلى جانبه، قصيرًا كان مجلسه أو طويلًا، خاصًا أو عامًا. ولازمني في حال قراءتي (صحيح البخاري). وكان قصدي قراءته على راويه منفردًا، لاستصغاري نفسي عن القراءة هناك بمحضر من الناس، ولقصدي تعجيل فراغي منه انتهازا للفرصة، وخوفًا من فوات ذلك الشيخ الراوي لكونه تفرَّد بروايته سماعًا على أصحاب أبي الوقت السجزي.

فلمَّا سمع الشيخ بذلك ألزمني قراءته بمجمع كثير من النَّاسِ رجالاً ونساءً، وصبيانًا وقال: ما ينبغي إلا على صفةٍ يكون نفعها متعديًا إلى المسلمين»

٢- أدب الكتاب لأبي بكر الصولي (٢٧/١).

ومهمة الأستاذ والمعلم لا تقف على مجرد تلقين العلم فحسب بل على التربية والتنشئة الصالحة، وعلى الإعداد والتجهيز لعالم أو أستاذ ثان يحل محله إذا ما كبر سنه، أو بلي عظمه.

قال هشام: كان أبي عروة يقول لنا: «إنا كنَّا أصاغر قومٍ ثمَّ نحن اليوم أكابر، وإنَّكم اليوم أصاغر قوم وستكونون كبارًا؛ فتعلموا العلم تسودوا به قومكم، ويحتاجون إليكم»[1].

وقال أبو بكر بن عياش: قال رجل للأعمش: هؤلاء الغلمان حولك قال: «اسكت، هؤلاء يحفظون عليك أمر دينك»[2].

وقال يحي بن أبي طالب، حدثني بعض البصريين قال: مرَّ رجل بحماد بن سلمة، وحوله صبيان، فقال: يا أبا سلمة ما هذا؟ قال: «هؤلاء الذين يحفظون عليك أمر دينك»[3].

وقال السخاوي (ت ٩٠٢هـ) في ترجم شيخه العلامة أمير المؤمنين في الحديث الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله: «وأما شدَّة رغبته في العلم ومحبتُّه في المذاكرة به والمباحثة فيه، فوراء العقل، مع كثرة الإنصاف ولو على نفسه، وعدم استنكاف سماع الفائدة ولو مِنْ صغار آحاد طلبته،

١- جامع بيان العلم (٧٤٩) ط: ابن الجوزي.
٢- الكفاية في أصول علم الرواية (٢٠٢/١) ط: ابن الجوزي.
٣- المحدث الفاصل (ص١٧١)، ويحي بن أبي طالب مُتكلَّم فيه.

بل يستحسِنُها ويأمرُ الحاضرين بسماعها، حتَّى رأيتُه مرَّةً يقول، وقد تكلَّم شابٌّ بشيءٍ وهو خارج الحلقة: اسمعُوا ما يقولُ الشَّابُّ، فإنَّه يقول جيدًا. وطال ما يقول: مقالة هذا هي الصواب، مع كونه كان قرَّرَ خلافها رجوعًا منه إلى الحق، وإنصافًا وعدم محاباة»[1].

وقال العلامة عبد الرحمن بن علي الديبع (ت ٩٤٤هـ)، عن شيخه الحافظ السخاوي (ت ٩٠٢هـ)، «وكان يجلني ويشير إليَّ ويعظمني، ويقدمني على سائر الطلبة ويؤثرني، وأحسن إليَّ وجزاه الله خيرًا»[2].

وكل أستاذ لا يكون ذلك في نيته، ولا يعرف في خصاله وهمته، فهو أقرب للغش منه للأمانة، ومن الكتم للخيانة[3]، فأمانة العلم تقتضي هذا الشيء فعلًا وقولًا، وحالًا وعملًا[4]، ومن ظنَّ غير ذلك فقط ضلَّ

١- الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (١٠٤٢/٣-١٠٤٣).
٢- بغية المستفيد (ص٢٣١)، و«النور السافر عن أخبار القرن العاشر» (ص١٨٩)، و«العناية بطلاب العلم» للأستاذ الأنيس وهو كتاب قيم نافع مفيد (ص١٢٤) وقد استفدت منه أثابه الله بالخير والبركة.
٣- قال ابن حجر الهيتمي (ت ٩٧٤هـ): «واعلم أنَّه ما تخلف بقوم عن الاستفادة إلا غش مشايخهم لهم عند الإفادة، وقد أطبقوا على أنَّ من سعادة الطالب المؤذنة برفعه إلى أعلى المراتب، أن يرزقه الله معلمًا ناصحًا، وقريحة قابلة، وفهمًا صقيلًا، وكفاية مؤنة، وصدق رغبته في الطلب. انظر: «ثبت ابن حجر» (٨٦)، نقلًا عن «المجالس الفقهية» للرومي (ص٧٩-٨٠).
٤- في جامع بيان العلم (٧٥٣)، وهو في «الحلية» لأبي نعيم (١١٨/٩)، واللفظ من جامع بيان العلم لابن عبد البر بسندهِ، عن محمد بن يوسف الهروي قال: سمعت الربيع بن سليمان يقول: قال لي الشافعي رحمه الله: «يا ربيع، لو قدرت أن أطعمك العلم لأطعمتك إيَّاه» فتأمل!
وفي «طبقات الشافعية الكبرى» (١٣٤/٢) قال القفال في «فتاويه»: كان الربيعُ بطيء

سلوك الطريق، وعميت عليه معرفة جادة الصواب والوصول، ومن فعل خلاف ذلك فقد تبين من حاله ما هو ماثل أمامك.

فالمعلم يدلك على ما ينفعك من العلوم، ويوصيك بالتدرج حتى لا تمل، ويرشدك إلى ما فيه خير لك.

وذكر السخاوي عن الحافظ عبد الرحيم بن حسين العراقي، أنّه نظر في الفقه وأصوله فحضر في الفقه دروس ابن عدلان، ولازم العماد محمد بن إسحق البلبيسي والجمال الأسنوي، ثمَّ قال: وفي أثناء ذلك أقبل على علم الحديث بإشارة العز بن جماعة فإنَّه قال له وقد رآه متوغلا في القراءات، فقال له: «إنَّه علم كثير التعب قليل الجدوى وأنت متوقد الذهن فاصرف همتك إلى الحديث»، فأخذه بالقاهرة عن العلاء التركماني الحنفي وبه تخرج وعليه انتفع..إلخ[1].

وقال عبد الله بن أبي موسى التستري: قيل لي: «حيثُ ما كنت فكن قُرب فقيهٍ»، قال: فأتيتُ بيروت إلى الأوزاعي فبينا أنا عنده إذ سألني عن أمري فأخبرتُه، قال: وكان أسلم، فقال لي: ألك أبٌ؟

قلت: نعم.

الفهم، فكرر الشافعي عليه مسألة واحدة أربعين مرة! فلم يفهم وقام من المجلس حياء، فدعاهُ الشافعيُّ في خلوة، وكرر عليه حتى فهم.

١- الضوء اللامع (١٧٢/٤).

قال: فهل لك أن ترجع لعلَّ اللهَ يهديه على يديك!

قال: قلت: ترى لي ذاك؟

قال: نعم.

فأتيتُ أبي فوجدتُه مريضًا، فقال لي: يا بني! أي شيءٍ أنت عليه؟ وسائله عن أمره قال: فأخبرتُه أني أسلمتُ.

قال: فقال لي: فاعرُض عليَّ دينك، قال: فأخبرتُه بالإسلام وأهلِه، قال: فإنِّي أشهدُكَ أنِّي قد أسلمتُ، قال: فمات في مرضه ذلك فدفنتُه ورجعتُ إلى الأوزاعي فأخبرتُه»[1].

وهذا الإمامُ أحمد يقول: «إنَّما النَّاسُ بشيوخهِم، فإذا ذهب الشُّيوخُ تودَّع من العَيشِ»[2].

وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل، يقول: «كنَّا عند عبيدِ اللهِ بن عمر القواريري يومَ نُعي إليه يحيي بن معين فبكى واسترجعَ، ثمَّ روى عن بعض شيوخِه، عن هشام بن حسان، عن الحسن أنَّه قال: «إنَّ من أعظمِ النَّاسِ مُصيبةً عليك، مَن إذا رأيتَه وجدت عندَه نَصيحةً فبينا أنت كذلك إذ فقدته» وإنَّ أبا زكريّا من أعظم النَّاسِ مُصيبةً عندنا به[3].

١- التاريخ الكبير المعروف بـ (تاريخ ابن أبي خيثمة-السفر الثالث). (٣/٢٥٠).
٢- طبقات الحنابلة (١/٢٧٤).
٣- الإرشاد في طبقات علماء الحديث للخليلي (٢/٥٩٢).

وقال زياد وهو على منبرِ الكوفةِ: «إنَّما النَّاسُ بأعلامِهِم، وعلمائِهِم، وذوي أسنانِهِم»[1].

وقال الحافظُ السخاوي: «إنَّما النَّاسُ بشيوخهم، فإذا ذهب الشيوخُ فمع مَن العَيشُ؟!»[2].

وقد يتحصل السماع والعلم؛ ولكن يبتلى الإنسان بمن يستجهل هذا العلم، ويقلل من شأنه ويحقره، كما قال ابن الجوزي: وقد دنت حيلة إبليس إلى جماعة من المتصوفة، حتى منعوا من حمل المحابر تلامذتهم، وحتى قال جعفر الخلدي[3]: لو تركني الصوفية، جئتكم بإسناد الدنيا، كتبت مجلسًا عن عباس الدوري[4]، فلقيني بعض الصوفية، فقال: «دع علم الورق، وعليك بعلم الخرق»[5].

➢ **عدم اغتنام الوقت ومعرفة قيمته**. فإنَّ هؤلاء الذين أثَّرت بهم تلك الكلمات، وصنعت في نفوسهم وقلوبهم، ثمَّ انعكست على قالبهم وأثرت في حياتهم، وأثروا هم بعد ذلك في غيرهم، غنموا أوقاتهم، وجعلوها عامرةً

١- جامع بيان العلم (٢٦٠) (١/٢٣٤).

٢- فتح المغيث (٣/٢٩٥)

٣- جعفر بن محمد بن نصير أبو محمد الخلدي (ت ٣٤٨هـ) شيخ الصوفية في أيامه ببغداد وأعلمهم بالحديث، كان خواصًا: يصنع الخوص من سعف النخل، نسبته إلى قصر الخلد وهو قصر من قصور الخلافة في بغداد.

٤- أبو الفضل عباس بن محمد الدوري البغدادي (ت ٢٧١هـ) الإمام الحافظ، الثقة، الناقد.

٥- صيد الخاطر (ص١١٢).

بالعلم والمعرفة، والذكر والطاعة، فلم يتكلوا على نبوءة، ولا اعتمدوا على مقولة قيلت لهم، بل إنَّما كان ذلك بداية الطريق وأوله، ثمَّ ساروا بهمم تناطح القمم، وبأوقات عامرةٍ يسودها النفع والفائدة. قال بعض السلف: «إذا أتى عليَّ يوم لا أزداد فيه علمًا يقربني إلى الله تعالى، فلا بُورِك لي في طلوع شمس ذلك اليوم»[1].

وقال ابن المقفع: «على العاقل أنْ لا يكون راغبًا إلا في إحدى ثلاث خصال: تزود لمعاد، أو مرمة لمعاش، أو لذة في غير محرم»[2].

وفي (منشور الحكم): «من الفراغ تكون الصبوة، ومن أمضى يومه في غير حق قضاه، أو فرض أدَّاه، أو مجدٍ أثله، أو حمدٍ حصَّله، أو خير أسسه، أو علم اقتبسه؛ فقد عقَّ يومه، وظلم نفسه»[3].

وقال العباس بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب: «اعلم أنَّ رأيك لا يتسع لكلِّ شيءٍ، ففرغه للمهم، وأنَّ مالك لا يغني الناس كلهم، فخص به أهل الحق، وأن كرامتك لا تطيق العامة، فتوخ بها أهل الفضل، وأنَّ ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجتك وإن دأبت فيهما، فأحسن قسمتهما بين عملك ودعتك من ذلك، فإن ما شغلك من

١- مفتاح دار السعادة (١/٣٤١)، وعنه السفاريني في «غذاء الألباب» (٢/٤٤٤).
٢- الأدب الصغير (ص٣١).
٣- فيض القدير للعلامة المناوي رقم (٩٢٨٠).

رأيك في غير المهم إزراء بالمهم، وما صرفت من مالك في الباطل فقدته حين تريده للحق، وما عمدت من كرامتك إلى أهل النقص أضر بك في العجز عن أهل الفضل، وما شغلت من ليلك ونهارك في غير الحاجة أزرى بك في الحاجة»[1].

وعن ابن مهدي: كنَّا مع الثوري جلوسًا بمكة، فوثب، وقال: «النَّهارُ يعملُ عمله»[2].

إذا رقَدَ السُّمّارُ أسهَرتُ ناظري   وأنشَدتُّ بيتًا وهْوَ من أفخَر الشِّعرِ

أليسَ من الخُسران أنَّ لياليًا   تمرُّ بلا نَفعٍ وتُحسَبُ من عُمري[3]

ومن نظر في سير أهل النبوغ والعلم والأدب، وجد بأنَّ أحدهم يوصف بأنَّه: «يقرأ، فإنْ لم يكن يقرأ يصلي، فإنْ لم يكن يصلي، يذكر الله، فإنْ لم يكن في ذكر، كان في فعلٍ خيرٍ وأمر بالمعروف ونهيٍ عن المنكر، فإنْ لم يكن في هذه، كان في درسه وبين طلابه أو كتبه، وهكذا لا يفتر من شأنٍ حتى يدخل في آخر، فلله درهم»[4].

يقولون: كم تَشْقَى بدرسٍ تديمُهُ   وتُمعِنُ فيهِ دَائبًا كُلَّ إمْعَانِ

١- تاريخ بغداد (٦/١٤).
٢- سير أعلام النبلاء (٧/٢٤٣) وهكذا كونوا يا طلاب العلم.
٣- قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، في ترجمة «الوزير أبي القاسم المغربي» (٣/٣٣٥).
٤- انظر: كتابي (لذة العلم والسماع عند المحدثين والعلماء) (ص٣٥٤).

فقلْتُ: ذروني إنَّما أنا كادحٌ لأكْمِل ذاتي أو لأَجبر نُقصاني

إذَا لَمْ يكُنْ نُقصانُ عُمْري زيادةً لِعلمي؛ فإنّها والبهيمة سيانِ

وقال ابن الجوزي: «رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعًا عجيبًا: إن طال الليل، فبحديث لا ينفع، أو بقراءة كتاب فيه غزاة وسمر! وإن طال النهار، فبالنوم! وهم في أطراف النهار على دجلة أو في الأسواق! فشبهتهم بالمتحدثين في سفينة، وهي تجري بهم، وما عندهم خبر!»[١].

ويذكر عن العلامة جمال الدين القاسمي الدمشقي: أنه تحسر مرة وهو واقف أمام مقهى امتلأ بأناس فارغين يزجون الوقت في اللهو والتسلية، فقال لبعض محبيه: «آه، كم أتمنى أن يكون الوقت مما يباع لأشتري من هؤلاء جميعاً أوقاتهم»[٢].

وقال بعض السلف: «إذا أتى عليَّ يوم لا أزداد فيه علمًا يقربني إلى الله تعالى، فلا بُورِك لي في طلوع شمس ذلك اليوم»[٣].

إذا رقَدَ السُّمّارُ أسهرتُ ناظري وأنشَدتُّ بيتًا وهْوَ من أفخَر الشّعرِ

أليسَ من الخُسران أنَّ لياليًا تمرُّ بلا نَفعٍ وتُحسَبُ من عُمري[٤]

١- صيد الخاطر (ص١٥٧).

٢- الفضل المبين على عقد الجوهر الثمين.

٣- مفتاح دار السعادة (١/٣٤١)، وعنه السفاريني في «غذاء الألباب» (٢/٤٤٤).

٤- قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، في ترجمة «الوزير أبي القاسم المغربي» (٣/٣٣٥).

➤ **التصدر قبل التأهل**. قال الخليل: «حين أردتُ النَّحوَ أتيتُ الحلقةَ فجلستُ سنةً لا أتكلَّمُ إنَّما أَسمَعُ، فلمَّا كان في السَّنَةِ الثَّانيةِ: نظرتُ، فلمَّا كان في السَّنَةِ الثَّالثةِ: تدبَّرتُ، لَمَّا كان في السَّنَةِ الرَّابعةِ: سألتُ وتكلَّمتُ»(١).

وقيل لأبي حنيفةَ رحمه الله: في المسجد حلقةٌ ينظرون في الفِقهِ. فقال: لهم رأسٌ؟ قالوا: لا! قال: «لا يَفقهُ هؤلاء أبدًا»(٢).

وقال سفيان: «مَن ترأس سريعاً أضر بكثير من العلم، ومن لم يترأس طلب وطلب حتى بلغ»(٣).

وقال أبو الطيب الصعلوكي: «من تصدر قبل أوانه، فقد تصدى لهوانه»(٤).

يَظُنُّ الْغَمْرُ أَنَّ الْكُتْبَ تَهْدِي ... أَخَا فَهْمٍ لِإِدْرَاكِ الْعُلُومِ

وَمَا يَدْرِي الْجَهُولُ بِأَنَّ فِيهَا ... غَوَامِضَ حَيَّرَتْ عَقْلَ الْفَهِيمِ

إِذَا رُمْتَ الْعُلُومَ بِغَيْرِ شَيْخٍ ... ضَلَلْتَ عَنْ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ

١- الفقيه والمتفقه (٢/ ٢٠٠).
٢- نصيحة أصحاب الحديث (ص٤٣).
٣- الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص٣٣)، ط: مكتبة ابن تيمية، وفي «الجامع لأخلاق» الراوي (٧٠٧) قال أبو إسحاق الفزاري: قال لي سفيان الثوري: «تحب الرئاسة؟ تهيأ للنطاح، كان يقال: (من طلب الرئاسة وقع في الدياسة)».
٤-سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٠٨).

وَتَلْتَبِسُ الْعُلُومُ عَلَيْك حَتَّى تَصِيرَ أَضَلَّ مِنْ تُوِّمَا الْحَكِيمِ[١]

وقال أبو عاصم النبيل: «الرياسة في الحديث بلا دراية؛ رياسة نذلة»[٢].

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْرِفْ لِذِي السِّنِّ فَضْلَهُ عَلَيْكَ فَلَا تُنْكِرْ عُقُوقَ الْأَصَاغِرِ[٣]

١- الآداب الشرعية والمنح المرعية، (٢/١٢٥-١٢٦).

٢- المحدث الفاصل (ص٢٤٣).

٣- جامع بيان العلم (١/٦٧٤)، وأنشد القاضي عبد الوهاب المالكي (ت ٤٢٢هـ) كما في «وفيات الأعيان» (٣/٢٢١).

متى يَصِلُ العطاشُ إلى ارتواءٍ إذا استقَتِ البحارُ من الرَّكايا

ومَنْ يثني الأصاغِرَ عَن مرادٍ وقد جلس الأكابر في الزَّوايا

وإنَّ ترفُّعَ الوضعاءِ يوماً على الرفعاء من إحدى الرَّزايا

إذا استوتِ الأسافلُ والأعالي فقد طابتْ مُنادمةُ المنايا

وفي «المحدث الفاصل» (ص١٩٤)، و«مقدمة الجرح والتعديل» (١٢٦) عن سليمان بن موسى قال: كان يقال: «لا تقرءوا القرآن على المصحفيين، ولا تحملوا العلم عن الصحفيين».



➢ **التكبر وترك السماع.** الأصل في الطلب أن يكون بطريق التلقين والتلقي عن الأساتيذ، والمثافنة للأشياخ، والأخذ من أفواه الرجال لا من الصحف وبطون الكتب، والأول من باب أخذ النسيب عن النسيب الناطق، وهو المعلم أمَّا الثاني عن الكتاب، فهو جماد، فأنَّى له اتصال النسب؟!

وقد قيل: «من دخل في العلم وحده؛ خرج وحده»[1]؛ أي: من دخل في طلب العلم بلا شيخ؛ خرج منه بلا علم، إذ العلم صنعة، وكل صنعة تحتاج إلى صانع، فلا بد إذاً لتعلمها من معلمها الحاذق[2].

وهذا يكاد يكون محل إجماع كلمة من أهل العلم؛ إلا من شذ مثل: علي بن رضوان المصري الطبيب (ت ٤٥٣هـ)، وقد ردَّ عليه علماء عصره ومن بعدهم.

قال الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى في ترجمته له: «ولم يكن له شيخ، بل اشتغل بالأخذ عن الكتب، وصنف كتاباً في تحصيل الصناعة من الكتب، وأنها أوفق من المعلمين، وهذا غلط»[3].

١- الجواهر والدرر للسخاوي (١/٥٨).

٢- قلت أبو إسحاق: حكى أبو علي الدينوري: «أنَّ المبرد كان أعلم بكتاب سيبويه من ثعلب؛ لأنه قرأه على العلماء، وثعلب قرأه على نفسه» كما في «تاريخ الإسلام» (٦/٩٠٠).

٣- سير أعلام النبلاء (١٨/١٠٥). وانظر: «شرح الإحياء» (١/٦٦)، و«بغية الوعاة» (١/١٣١-٢٨٦)، و«شذرات الذهب» (٥/١١)، و«الغنية» للقاضي عياض (ص١٦-١٧).

وقد بسط الصفدي في «الوافي» الرد عليه، وعند الزبيدي في «شرح الإحياء» عن عدد من العلماء معللين له بعدة علل؛ منها ما قاله ابن بطلان في الرد عليه[1].

ولأهمية السؤال يقول التابعي الجليل مجاهد بن جبر (ت١٠٤هـ): «لا يتعلَّمُ العلمَ مَستحيٍ ولا مُستكبِر»[2].

ومعنى ذلك: أنَّ على طالب العلمِ أن يتواضعَ، وأن يَلين جانبه، ويطيبَ كلامُه في سماع مَن يأخذُ عنه، وإلَّا فلن يَنتفع بعمله؛ لأنَّ العلمَ بلا احترام وأدب كنارٍ بلا حطبٍ.

وهذ الإمام عبد الرَّحمن بن مهدي رحمه الله يصفُ حالَ طلابِ العلمِ الصَّادقين المثابرينَ فيقولُ: «كان الرَّجلُ إذا لقي مَنْ هو فوقَه في العلمِ تواضعَ له، وإذا لقي مَنْ هو مثله في العِلمِ، فهو يومُ غنيمةٍ، دارسه وذاكره، وإذا لقي مَن هو دونَه في العلم، تواضعَ له وعلَّمَه، ولا يكون إمامًا في العلمِ مَن روى كلّ ما سمعَ، ولا يكون إمامًا في العلمِ مَن روى الشاذَّ من العلمِ، ولا يكون إمامًا في العلم مَن روى عن كلِّ أحدٍ»[3].

١- شرح الإحياء (/٦٦)، بالاستفادة من «حلية طالب العلم» للعلامة بكر أبو زيد (ص١٥٨-١٥٩).

٢- رواه البخاري في «صحيحه» (١/٦٠)، وأوصله ابن حجر في «تغليق التعليق» (٢/٩٣)، وقال: «رواه عبد الغني بن سعيد في (أدب المحدث)، والبيهقي في (المدخل)».

٣- العلم والحلم لإياس بن معاوية (٦٤٣)، ومن غربة العلم أن يكون الحال، كما أخبر أبو حازم بقوله: «صار الناس في زماننا يعيب الرجل من هو فوقه في العلم ليري الناس أنَّه ليس

وقال وكيع[1]: «لا يكملُ الرَّجلُ حتى يكتبَ عمَّن هو فوقَه، وعمَّن هو مثلَه، وعمَّن هو دونَه»[2].

➢ **صحبة البطالين والمجتمع المعارض للنهوض والنبوغ**. والصحبة لها تأثير في الصاحب قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والنَّاسُ كأسرابِ القطا مجبولون على تشبه بعضهم البعض»[3].

وقال نجم الدين ابن قدامة رحمه الله: «قد تُكتسب الأخلاق الحسنة بمصاحبة أهل الخير، فإنَّ الطبع لص يسرق الخير والشر»[4].

وما صاحبُ الإنسانِ إلا كرقعةً ... على ثوبِهِ فليتخذْ مَنْ يشاكله[5]

يا طالِباً لِخِصالٍ سادَ جامِعُها ... وَسائِلاً مَن حَواها سُؤلِ مُبتَهِلِ

لا تَأخُذ العِلمَ إِلا عَن أَخي ثِقَةٍ ... يُعطي الرَشادَ بِهِ في واضِحِ السُبُلِ

وَدَع سُؤالِ الَّذي دَقَت دِيانَتُهُ ... وَاحذَر حُضورَكَ في الدَرسِ وَالجَدلِ

به حاجة إليه، ولا يذاكر من هو مثله، ويزهو على من هو دونه فذهب العلم وهلك النَّاس».

١- أبو سفيان وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي الرؤاسي الكوفي، محدث العراق، كان من بحور العلم، وأئمة الحفظ.

قال يحيى بن يمان: «لما مات سفيان الثوري، جلس وكيع موضعه» كما في «السير» (٩/١٤٠-١٤٢).

٢- سير أعلام النبلاء (٩/١٥٩).

٣- مجموع الفتاوى (٢٨/١٥٠).

٤- مختصر منهاج القاصدين (ص١٥٣).

٥- الآداب الشرعية (٣/٥٥٧).



فَالطَبعُ لِصٌ فَلا تَجلِس إِلى فُسقٍ ... فَقُل أَن يَسلَمِ الآتِيه مِن زُلَلِ

كَجالِسِ الكيرِ إِن تَحضَد مُجالَسَةً ... وَفاتُكَ الشَوكُ لَم تَسلَم مِن الشُعَلِ[(١)]

قال أبو بكر الأبهري (ت ٣٧٥هـ): دخلت جامع طرسوس وجلست لسارية من سواريه، فجاءني رجل، فقال لي: إن كنت تقرأ فهذه حلقة القرآن، وإن كنت مقرئاً فاجلس يقرأ عليك، وإن كنت فقيهاً، فاجلس يحلق إليك، وإن كنت متفقهاً فهذه مجالس الفقه، قم إليها. فإنَّ أحداً لا يجلس في جامعنا دون شغل[(٢)]. وهذا من خير الأدلة على أنَّ المجتمع والمكان الذي يولد فيه الإنسان من خير وسائل زرع القيم، والنهوض بالنفس لبلوغ القمم.

وذكر الحافظ السخاوي في ذكرِ ما أعان شيخه ابن حجر في تحصيل العلم قائلًا ومنها: «الرفاق الذي كانوا غاية في الديانة والتواضع والاعتناء بالشأن والاهتمام بفنونه، والبعد عن التوغل في الغل والحسد والكتمان، وتكرر ذكر ما يقتضي الامتنان، فهذا يعين رفيقه نوبة بالقراءة ومرة بالكتابة، وأخرى بالعارية، ووقتًا بالمذاكرة»[(٣)].

وقال ابن جماعة (ت ٧٣٣هـ) وهو يبين المعين له بعد الله على تأليف

١- آداب الأكل للأقفهسي (ص٨).

٢- ترتيب المدارك (١٩٢/٦).

٣- الجواهر والدرر (١٦٩/١).

كتابه: «تذكرة السامع والمتكلم»، «وجمعت ذلك مما اتفق في المسموعات، أو سمعته من المشايخ السادات، أو مررت به في المطالعات، أو استفدته في المذاكرات»[(١)].

والحافظ العالم المعمر أبو طاهر السلفي (ت ٥٧٦هـ)، كان أول سماع حضره متفرجًا مع الصبيان مجلس رزق الله التميمي الحنبلي، إذ قدم عليهم رسولًا أصبهان، فقال السلفي فيما قرأته على عبد المؤمن الحافظ أخبرنا ابن رواج، أخبرنا السلفي، قال: شاهدت رزق الله يوم دخوله إلى البلد، وكان يوما مشهودا كالعيد، بل أبلغ في المزيد، وحضرت مجلسه في الجامع الجورجيري.

وقال لي أحمد بن معمر العبدي: قد استجزته لك في جملة من كتبت من صبياننا[(٢)].

١- تذكرة السامع والمتكلم (ص٣٣).

٢- السير (٢١/٨) فتأمل قول أحمد بن معمر العبدي، وحرصه وسلامة قلبه على أن يتحصل النبوغ لهذا الصبي الصغير.

ومثل هذا حصل مع أبو بكر بن الإمام أبي داود السجستاني صاحب السنن المعروف في رحلتهم إلى مصر للسماع على محدثها أحمد بن صالح المصري، والحرص الشديد من والده في تحقق السماع لابنه، والخبر في «تاريخ دمشق» (٨١/٢٩)، و«تاريخ بغداد» (٣١٩/٥)، ونحوه في «السير» (٢٢٧/١٣)، والمثبت من (تاريخ دمشق). كان أحمد بن صالح يمتنع على المرد من رواية الحديث له تعففا وتنزها، ونفيا للظنة عن نفسه.

وكان أبو داود يحضر مجلسه، ويسمع منه. وكان له ابن أمرد يحب أن يسمعه حديثه، وعرف عادته في الامتناع عليه من الرواية، فاحتال أبو داود بأن شد على ذقن ابنه قطعة من الشعر ليتوهم ملتحيا، ثم أحضره المجلس، وأسمعه جزءًا، فأخبر الشيخ بذلك، فقال لأبي داود: أمثلي

وقال ابن عقيل: «عصمني الله في شبابيَ بأنواعٍ من العصمةِ، وقصَّر محبتي على العلمِ، وما خالطت لعابًا قط، ولا عاشرتُ إلا أمثالي من طلبةِ العلم، وأنا في عشر الثمانين أجدُ من الحرصِ على العلم أشدّ ممَّا كنت أجده وأنا ابن عشرين»[1].

وذكر السمعاني في "المنتخب"، القاضي أبو جعفر، محمد بن عبد الله بن أبي الحسين، الصَّائغي، المروزي (ت ٥٣٠هـ).

كان في حالة الصغر يحثني على حفظ القرآن، والاشتغال بالفقه

يعمل معه مثل هذا؟! فقال له: أيها الشيخ لا تنكر عليَّ ما فعلته، واجمع ابني هذا مع شيوخ الفقهاء والرواة، فإن لم يقاومهم بمعرفته فاحرمه حينئذ من السماع.

قال: فاجتمع طائفة من الشيوخ، فتعرض لهم هذا الابن مطارحا، وغلب الجميع بفهمه. ولم يرو له الشيخ مع ذلك شيئا من حديثه، وحصل له ذلك الجزء الأول.

قال الشيخ: أنا أرويه، وكان ابن أبي داود يفتخر برواية هذا الجزء الواحد.

وفي «السير» (٦/١٢) في ترجمة: **(يحيى بن أكثم بن محمد)** قال عبد الله بن أحمد: سمع من ابن المبارك صغيرًا، فصنع أبوه طعامًا، ودعا النَّاس، وقال: «اشهدوا أنَّ ابني سمع من عبد الله».

وفيه (٣٠٥/١٩) في ترجمة **(الحداد أبو علي الحسن بن أحمد بن الحسن)** قال السمعاني: «كان عالماً ثقةً صدوقًا من أهل العلم والقرآن والدين، عمَّر دهرًا، وحدَّث بالكثير، كان أبوه إذا مضى إلى حانوته لعمل الحديد يأخذ بيد الحسن، ويدفعه في مسجد أبي نعيم».

وفيه (٢٧٥/٢١-٢٧٦) **(ابن بونه عبد الحق بن عبد الملك بن بونه العبدري)**. قال الأبار: سمعه أبوه صغيرا، ورحل به، فأورثه ذلك نباهة.

وفيه: (٩٠/٢٢-٩١) في ترجمة: **(الشيخ الفاضل، المسند، ربيب الدين، أبو البركات داود بن أحمد بن محمد بن منصور بن ثابت بن ملاعب البغدادي)** قال ابن النجار: «كان أبوه ديوانيًا –يعمل في الديوان–، فاعتنى به، وكان متيقظًا، متوددًا، صحيح السماع، وله مروءة ونفس حسنة يحدث من أصوله».

١- السير (٤٤٦/١٩).

والأحكام، وكان يكرمني ويحبني، وسمعت كلامه في المسائل، وكان في غاية السلاسة والعذوبة[١].

وقال عن شيخه الحافظ أبي عبد الله محمد بن الحسين بن محمد بن الحسين بن علي بن عبد الله بن إبراهيم بن يعقوب (ت ٥٥٩هـ).

وكان يحثني على سماع الحديث وكتبته، ثم على الجمع والتصنيف[٢].

وقال العلامة محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) **عن شيخه الحسن بن إسماعيل بن الحسين بن محمد المغربي (ت ١٢٠٨هـ)**: وكان رحمه الله يقبل عليَّ إقبالًا زائدًا، ويعينني على الطلب بكتبه، وهو من جملة من أرشدني إلى شرح (المنتقى)[٣] وشرعت في حياته؛ بل شرحت أكثره وأتممته بعد موته، وكان كثيرًا ما يتحدث في غيبتي أنَّه يخشى عليَّ من عوارض العلم الموجبة للاشتغال عنه، فما أصدق حدسه وأوقع فراسته؛ فإنِّي ابتليت بالقضاء بعد موته بدون سنة[٤].

ومن معارضة المجتمع، أنَّ البعض الذين لا يدركون قيمة الكتب وقدرها عندك ومكانتها في نفسك، يسألك: ماذا تريدُ بهذه الكتب كلها؟

١-المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (٣/١٤٧٦-١٤٧٧)، ط: جامعة الإمام.
٢-المصدر السابق (٣/١٤٣٧-١٤٣٨).
٣-منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار، وشرحه في كتابه المشهور (نيل الأوطار).
٤-البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (١/١٩٧)، وقال عن الحسين بن يحيى بن إبراهيم الديلمي الذماري، كما في «المصدر ذاته«(١/٢٢٣) «وهو من جملة من رغبني في شرح المنتقى، فلمَّا أعان الله على تمامه صار يراسلني في الإرسال إليه بنسخة

سؤال تعجب، يظنون غير الحق أنَّك تجمعها هوايةً كما يجمع هواة الطوابع طوابع البريد، وقال لي أحد العامة: ماذا تريد بهذه المصاحف؟ يظنُّ جميع المجلدات مصاحف، واقترح عليَّ أن أجعلها في المساجدِ لينتفع بها الناسُ، ولبعض الشعراءِ:

أتانا أنَّ سهلًا ذمَّ جهلًا علومًا ليس يدركُهُنَّ سهلُ
علومًا لو دراها ما قلاها ولكنَّ الرضا بالجهلِ سهلُ[1]

➢ **الكلام المؤذي الجارح.** وهذا من البلايا التي يقع بها بعض المدرسين[2]، وكذلك الوالدين، وهذا خلاف ما كان عليه السلف، فإنَّ السلف كانوا يصنعون النابغ من خلال الكلام النافع والمواقف المفيدة، والاستفادة من مجالسة الرجل الصالح العالم إذا زار البيت لعلَّ ذلك ينقدح في نفس الولد ويترك أثرًا إيجابيًا يؤتي أكله بمرور الأيام، ومن ذلك قول صالح بن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: «إنَّ أبي يبعث خلفي إذا جاءه

١- خاطرات للحربي (ص١٢٢).
٢- يقول الأستاذ أحمد الطيار في كتابه: «عبارات أثرت عليَّ وغيرت في حياتي» (ص١٠) «تلقيت تعليمي في المرحلة الابتدائية في مدرسة صلاح الدين بمحافظة الزلفي، وكنت خلالها ضعيفًا في الدراسة، تخرجت منها بأقل الدرجات، ودائمًا أوصف بالبلادة والإهمال بل والغباء! حتى ترسخ في ذهني أنِّي كذلك، وهذه مشكلة كان كثيرٌ من أبناء جيلي يعاني منها، وهي التثبيط وعدم التشجيع».
وكذلك حصل لأديسون، حيث فصل من المدرسة؛ لأنَّ مدرِّسيه، قالوا: «إنَّه أبلهُ، ضعيف العقل، لا يصلح للتعلُّم!» فلم يفتَّ ذلك في عضدهِ، بل اتجه عندها للميكانيكا، فنبغ فيها، وما مات حتى سُجل باسمه (١٠٩٣) اخترع، كما في «الإبداع العلمي» (ص١٨٨).

رجل زاهد أو متقشف؛ لأنظر إليه، يحب أن أكون مثله»[1].

وكانوا يمدحون الطالب ويقبلون عليه، وييسرون العلم له، قال ابن الوزير اليماني: «وإنّما بلغنا أنّ أهل العلم يحبّون من علت همّته، وظهرت فطنته، ويرغّبونه بأنواع التّرغيب، ويجعلون التّصويب له مكان التّثريب»[2].

وذكر الشوكاني عن أبي حيان الأندلسي، بأنَّه له «إقبال على أذكياء الطلبة، يعظمهم، وينوّه بقدرهم»[3].

وعن سحنون قال: «كنت أول طلبي إذا انغلقت عليَّ المسائل، آتي ابن أبي حسان»[4].

وعن قابوس بن أبي ظبيان، قال: «صلينا يومًا خلف أبي ظبيان ونحن شباب كلنا من الحي إلا المؤذن فإنَّه شيخ؛ فلمَّا سلَّم التفت إلينا ثمَّ جعل يسأل الشباب من أنت؟ من أنت؟ فلمَّا سألهم، قال: «إنَّه لم يبعث نبي إلا وهو شاب، ولم يؤتَ العلم خير منه وهو شاب»[5].

وقال السبكي: «وكنت أنا كثير الملازمة للذهبي، أمضي إليه في كل

١- السير للذهبي (ترجمة: صالح) (٥٣٠/١٢)، و«المقصد الأرشد» (٤٤٥/١).
٢- الروض الباسم (٨٤/١).
٣- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٢٨٨/٢).
٤- تاريخ الإسلام (ترجمة: عبد الله بن أبي حسان ت ٢٣٠هـ) (٥٩٤/٥).
٥- العلم لزهير بن حرب (٨٠).

يوم مرتين بكرة والعصر، وأمَّا المزي فما كنت أمضي إليه غير مرتين في الأسبوع، وكان سبب ذلك أنَّ الذهبي كان كثير الملاطفة لي والمحبة فيَّ، بحيث يعرف من عرف حاله معي أنَّه لم يكن يحب أحدًا كمحبته فيَّ، وكنت أنا شابًا فيقع ذلك منّي موقعًا عظيمًا، وأمَّا المزي فكان رجلًا عبوسًا مهيبًا»(١).

وقال الضياء المقدسي عن الموفق بن قدامة: «وما علمت أنَّه أوجعَ قلب طالب»(٢).

➢ **ترغيبهم بفعل الخير والعادات الحسنة**. قال إبراهيم بن أدهم: قال لي أبي: «يا بنيَّ، اطلب الحديث، فكلَّما سمعت حديثًا، وحفظته، فلك درهم فطلبت الحديث على هذا»(٣).

وقال الحميدي: كان الشافعي سيد علماء أهل زمانه، وربما ألقى عليَّ وعلى ابنه أبي عثمان المسألة، فيقول: «أيُّكما أصاب فله دينار!»(٤).

وقال الحسن بن علي بن غسان المعروف بابن شاكر البصري لابنه: أمَّا بعد: فَإِنَّ الْعلم أفضل مَا التمس، وأنفع مَا اقتبس، وَبِه يحاز الْجمال وَالْأَجْر، وَهُوَ الْغَايَة فِي الشّرف وَالْفَخْر.

١- طبقات الشافعية الكبرى (١٠/٣٩٨).
٢- سير أعلام النبلاء (٢٢/١٧٠).
٣- شرف أصحاب الحديث (ص٩١) ط: البصيرة.
٤- مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ٢٦٨).



إذا مَـا فـاخـر المثرون يَوْمًا بِمَا حـازوه مـن مَـال ووفر

فخرتُ عَلَيْهِـم بِالْعلمِ إِنِّي وجدتُ الْعلم غَايَة كلَّ فَخر[١]

➢ **أو من خلال التسمية**. فالاسم أول ما يواجه المولود إذا خرج من ظلمات الأرحام، والاسم أول صفة تميزه في بني جنسه، والاسم أول فعل يقوم به الأب مع مولوده مما له صفة التوارث والاستمرار، والاسم أول وسيلة يدخل بها المولود في ديوان الأمة[٢].

وقلَّ إنْ بصرت عيناك ذا لقبٍ إلَّا ومعناهُ في اسمٍ مِنْهُ أو لَقَبِ

➢ **أو التطبيق العلمي**. كالذي جرى مع الإمام سفيان الثوري، قال وكيع: قالت أم سفيان لسفيان: اذهب، فاطلب العلم، حتى أعولك بمغزلي، فإذا كتبت عدة عشرة أحاديث، فانظر هل تجد في نفسك زيادة، فاتبعه، وإلا فلا تتعنَ![٣].

وقال أحمد بن خالد بن يزيد المعروف بحباب (ت ٢٤٦هـ): «كانت

١- الوافي بالوفيات (١٢/٨٧).

٢- تسمية المولود للشيخ العلامة بكر أبو زيد (ص٢١) ط: دار الراية.

٣- سير أعلام النبلاء (٧/٢٦٩)، وفي «تاريخ الإسلام» (ترجمة: سفيان) (٤/٣٨٢) قال علي بن ثابت: سمعته يقول: «طلبت العلم، فلم تكن لي نية، ثم رزقني الله النية».
وعن داود بن يحيي بن يمان، سمعت أبي يقول: قال الثوري: «لما هممت بطلب الحديث، ورأيت العلم يدرس، قلت: أي رب إنه لا بد لي من معيشة، فاكفني أمر الرزق، وفرغني لطلبه، فتشاغلت بالطلب، فلم أر إلا خيرا إلى يومي هذا».

أمي تغزل، وأبيعُ غزلها، فأشتري به الرق والكتب»[1].

وعن عبد الوهاب بن عطاء، قال: حدثني مشيخة أهل المدينة أنَّ فروخًا والد ربيعة خرج في البعوث إلى خراسان أيام بني أمية غازيًا وربيعة حمل، فخلَّف عند الزوجة ثلاثين ألف دينار، ثمَّ قدم المدينة بعد سبع وعشرين سنة، فنزل عن فرسه، ثمَّ دفع الباب برمحه، فخرج ربيعة، فقال: يا عدو الله أتهجم على منزلي! وقال فروخ: يا عدو الله أنت رجل دخلت على حرمتي، فتواثبا واجتمع الجيران وجعل ربيعة يقول: لا والله لا فارقتك إلى السلطان، وجعل فروخ يقول كذلك، وكثر الضجيج فلمَّا بصروا بمالك سكت الناس كلهم، فقال مالك: أيُّها الشيخ لك سعة في غير هذه الدار، فقال: هي داري وأنا فروخ مولى بني فلان، فسمعت امرأته كلامه فخرجت وقالت: هذا زوجي وقالت له: هذا ابنك الذي خلفته وأنا حامل، فاعتنقا جميعًا وبكيا ودخل فروخ المنزل، وقال: هذا ابني؟ قالت: نعم، قال: فأخرجي المال وهذه أربعة آلاف دينار معي، قالت: إنَّي قد دفنته وسأخرجه. وخرج ربيعة إلى المسجد فجلس في حلقته وأتاه مالك، والحسن بن زيد، وابن أبي علي اللهبي والأشراف فأحدقوا به، فقالت امرأة فروخ: اخرج إلى المسجد فصل فيه، فنظر إلى حلقة وافرة،

١-ترتيب المدارك (١٤٩/٣)، من طبعة الرسالة ناشرون.

فأتى فوقف ففرجوا له قليلا ونكس ربيعة يوهم أنه لم يره، وعليه طويلة فشك فيه أبو عبد الرحمن، فقال: من هذا؟ قالوا: هذا ربيعة، فرجع وقال لوالدته: لقد رأيت ولدك في حالة ما رأيت أحدًا من أهل العلم والفقه عليها، قالت: فأيُّما أحب إليك ثلاثون ألف دينار أو هذا الذي هو فيه من الجاه؟ قال: لا والله إلا هذا، قالت: فإنِّي قد أنفقت المال كله عليه، قال: فوالله ما ضيعته(١).

وهذا أبو المعالي الجُويني (ت ٤٧٨هـ). يقول ابن خلكان: كانت أمه جارية اشتراها والده من كسب يده من النسخ، وأمرها ألا يرضعه غيرها فاتفق أنَّ امرأة دخلت عليها فأرضعته مرة؛ فأخذه الشيخ أبو محمد فنكسه ووضع يده على بطنه ووضع أصبعه في حلقه ولم يزل به حتى استقاءِ كل ما كان في بطنه من لبن تلك المرأة، قال: فربمَّا حصل لإمام الحرمين في بعض مجالس المناظرة فتور فيقول: هذا من آثار تلك الرضعة(٢).

١-تاريخ الإسلام للذهبي (٦٤٧/٣)، وهي موجودة في المجالسة (المستدرك منه) (٣١٨/٨) وقال الذهبي: قلت: حكاية معجبة لكنها مكذوبة لوجوه: **منها**: أن ربيعة لم يكن له حلقة، وهو ابن سبع وعشرين سنة بل كان ذلك الوقت شيوخ المدينة مثل القاسم، وسالم، وسليمان بن يسار، وغيرهم من الفقهاء السبعة.

الثاني: أنَّه لما كان ابن سبع وعشرين سنة كان مالك فطيما أو لم يولد بعد.

الثالث: أنَّ الطويلة لم تكن خرجت للنَّاسِ، وإنما أخرجها المنصور فما أظن ربيعة لبسها، وإن كان قد لبسها فيكون في آخر عمره، وهو ابن سبعين سنة لا شابًا.

الرابع: كان يكفيه في السبع والعشرين سنة ألف دينار أو أكثر.

٢- البداية والنهاية (٩٦/١٦).



وقصة أبي الوقت من خير ما يحكى في هذا المقام[1]، يقول يوسف بن أحمد الشيرازي في (أربعين البلدان) له: لما رحلت إلى شيخنا رحلة الدنيا ومسند العصر أبي الوقت، قدَّر الله لي الوصول إليه في آخرِ بلاد كرمان، فسلمت عليه، وقبلته، وجلست بين يديه.

فقال لي: ما أقدمك هذه البلاد؟

قلت: كان قصدي إليك، ومعولي بعد الله عليك، وقد كتبت ما وقع إليَّ من حديثك بقلمي، وسعيتُ إليك بقدمي، لأدرك بركة أنفاسك، وأحظى بعلو إسنادك.

فقال: وفقك الله وإيَّانا لمرضاته، وجعل سعينا له، وقصدنا إليه، لو كنت عرفتني حق معرفتي لما سلمت علي، ولا جلست بين يدي.

ثمّ بكى بكاء طويلًا، وأبكى من حضره، ثمَّ قال: اللهم استرنا بسترك الجميل، واجعل تحت الستر ما ترضى به عنا، يا ولدي تعلم أنِّي رحلت أيضًا لسماع الصحيح ماشيًا مع والدي من هراة إلى الداوودي ببوشنج، ولي دون عشر سنين، فكان والدي يضع على يدي حجرين ويقول: احملهما.

١- أبو الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب السجزي الشيخ، الإمام، الزاهد، الخير، الصوفي، شيخ الإسلام، مسند الآفاق، أبو الوقت عبد الأول ابن الشيخ المحدث المعمر أبي عبد الله عيسى بن شعيب بن إبراهيم بن إسحاق السجزي، ثمَّ الهروي، الماليني.

فكنت من خوفه أحفظهما بيدي، وأمشي وهو يتأملني، فإذا رآني قد عييت، أمرني أنْ ألقي حجرًا واحدًا، فألقي، ويخف عني، فأمشي إلى أن يتبين له تعبي، فيقول لي: هل عييت؟

فأخافه وأقول: لا.

فيقول: لم تقصر في المشي؟

فأسرع بين يديه ساعة، ثمَّ أعجز، فيأخذ الآخر فيلقيه، فأمشي حتى أعطب، فحينئذ كان يأخذني ويحملني.

وكنَّا نلتقي جماعة الفلاحين، وغيرهم، فيقولون: يا شيخ عيسى، ادفع إلينا هذا الطفل نركبه وإياك إلى بوشنج.

فيقول: معاذ الله أن نركب في طلب أحاديث رسول الله ﷺ بل نمشي، وإذا عجز أركبته على رأسي إجلالًا لحديث رسول الله، ورجاء ثوابه.

فكان ثمرة ذلك من حسن نيته أني انتفعت بسماع هذا الكتاب وغيره، ولم يبق من أقراني أحد سواي، حتى صارت الوفود ترحل إليَّ من الأمصار، ثمَّ أشار إلى صاحبنا عبد الباقي بن عبد الجبار الهروي أنْ يقدم لي حلواء.

فقلت: يا سيدي، قراءتي لـ (جزءِ أبي الجهم) أحبُّ إليَّ من أكلِ الحلواء، فتبسم، وقال: إذا دخل الطعام، خرج الكلام.

وقدم لنا صحنا فيه حلواء الفانيد، فأكلنا، وأخرجت الجزء، وسألته

إحضار الأصل، فأحضره، وقال: لا تخف ولا تحرص، فإني قد قبرت ممن سمع علي خلقًا كثيرًا، فسل الله السلامة. فقرأت الجزء، وسررت به، ويسر الله سماع (الصحيح) وغيره مرارا، ولم أزل في صحبته وخدمته إلى أن توفي ببغداد، في ليلة الثلاثاء من ذي الحجة[١].

١- السير (٢٠/٣٠٧- ٣٠٨)، وفي كتاب «الإمام الرباني العلامة الشيخ أبو الخير الميداني»، للأستاذ محمد مطيع الحافظ (ص ٦) قال العلامة الشيخ أبو الخير الميداني رئيس رابطة العلماء بدمشق (١٢٩٣-١٣٨٠هـ): درست أولاً بمدرسة الشيخ عيد السفرجلاني بالمدرسة الجقمقية بالكلاسة، وكانت أمي تدخر المال البسيط لكي أتم دراستي، وكانت عادة هذه المدرسة أنْ يبقى التلميذ من الصباح إلى قبل الغروب، ويتناول التلاميذ طعام الغداء في المدرسة. فكان أولاد الأغنياء يحضر لهم آباؤهم أنواع الأطعمة الفاخرة، فكنت أشتهي تلك المآكل فأرجع إلى أمي مساءً وأخبرها بما يأكله زملائي، فتشفق وتتألم ولا تستطيع أنْ تقدم لي إلا الخبز، وتقول لي: «يا بني ارضَ بما قَسَمَ الله لك، فإنَّ الله سيكرمك ويعوضك خيراً». فامتثلت ورضيت، بعدها كنت أنظر إلى التلاميذ وهم يأكلون أنواع الأطعمة فأتذكر كلام أمي، فإذا اشتهيت نوعاً منها وجدت طعمه في فمي، وأشعر أيضاً بدسومته.

[فصل: في ذكر بعض صور من نبغ من العلماء]

اعلم أنَّ العلم رفعة لصاحبه، وعزة لحامله، وبركة لمن عمل به، فهو يجمع صنوف الخير لمن اتسم به وعمل بما فيه. يرفع الصغير فيكون في المقام كالكبير[١]، ويجلُّ العبد فيكون كالسيد الحر[٢]، وقد نبغ جماعة من العلماء في العلم لمواقف حصلت معهم فأثرت بهم، فرفع الله شأنهم، وأعلا منزلتهم. ولله درُّ الإمام شيخ الإسلام عثمان الدارمي (ت ٢٨٠هـ)، وقال له يومًا رجل كبير يحسده: ماذا أنت لولا العلم؟ فقال له: «أردت شينًا فصار زينًا»[٣].

وقال الإمام محمد بن إدريس الشافعي: «لولا أصحابُ الحديث لكنَّا بُياع الفول»[٤].

١- قال هارون الرشيد رحمه الله: «العلم ينفعُ ويرفعُ في الدُّنيا والآخرة» كما في «البداية والنهاية» (١٣/٦١٦).

وعن عبد الرزاق، قال: سمعت الثوري، يقول لرجل من العرب: «اطلبوا العلم ويحكم فإنِّي أخاف أن يخرج منكم فيصير في غيركم، اطلبوه ويحكم فإنَّه عز وشرف في الدنيا والآخرة» كما في «حلية الأولياء» (٦/ ٣٦٨).

٢- عن محمد بن عبد الرحمن القرشي: كان علي بن حسين يجلس إلى زيد بن أسلم، ويتخطى مجالس قومه، فقال له نافع بن جبير بن مطعم: تخطى مجالس قومك إلى عبد عمر بن الخطاب رضي الله عنه؟ فقال: «إنَّما يجلسُ الرجل إلى من ينفعه في دينه» كما في «التاريخ الكبير» للإمام البخاري (٣/٣٨٧).

٣- سير أعلام النبلاء (١٣/٣٢٤).

٤- ذم الكلام للهروي (٣/١٦).

وقال نعيم بن حماد، سمعت أبا معاوية يقول: قال الإمام الأعمش: «لولا العلم لكنت بقالًا من بقّالي الكوفة»، وقال:«وأنا لولا العلم لكنت بزازًا من بزازي سجستان»[١].

العلمُ مِنْ شرطِهِ لمنْ خدَمَهُ أنْ يجعلَ النَّاس كلهمَ خدمه[٢]

وعنه -الأعمش- قال: «وأنا ممَّن رَفعه الله بِالقُرآنِ لَولا ذَاك كَانَ على رقبتي دن من صحناء أبيعه»[٣].

لكلّ شيءٍ حسن زينةٌ وزينةُ العالِمِ حسنُ الأدبِ

قد يَشرفُ المرءُ بآدابهِ فينا وإنْ كان وضيع النَّسبِ

وقال آخرٌ:

ذخائرُ المالِ لا تَبقى على أحدٍ والعلمُ تذخرُه يَبقى على الأبدِ

والمرءُ يَبلغُ بالآداب منزلةً يذلُّ فيها له ذو المالِ والعقدِ[٤]

قال محمد بن يوسف الفريابي: كنت أمشي مع ابن عيينة، فقال لي: يا محمد، ما يزهدني فيك إلا طلب الحديث.

١- رسالة لطيفة في أحاديث متفرقة ضعيفة لابن عبد الهادي الصالحي (ص٧٨) ط: دار الهدى.
٢- تعليم المتعلم (ص١٠٤).
٣- تاريخ ابن معين رواية الدوري (٣/٣٨٧)، الصحناء: بكسر الصاد: إدام يتخذ من السمك يمد ويقصر، والكامخ، ما يؤتدم به، أو المخللات المشهية، والكلمتان معربتان.
٤- معجم الأدباء (١/٢٠).



قلت: فأنت يا أبا محمد، أي شيء كنت تعمل لولا طلب الحديث؟

فقال: «كنت إذ ذاك صبيًا لا أعقل»[1].

وكان لقمان الحكيم. على ما يروى في كتب التاريخ والتراجم والتفسير بأنَّه كان عبدًا حبشيًا نجارًا.

قال الإمام أبو إسحاق الثعلبي في كتاب «العرائس في القصص»: كان لقمان مملوكًا، وكان أهونَ مملوكي سيده عليه.

قال: وأول ما ظهر من حكمته أنَّه كان مع مولاه، فدخل مولاه الخلاء، فأطال الجلوس، فناداه لقمان: «إن طول الجلوس على الحاجة تيْجَع منه الكبدُ، ويورث الباسور، ويصعد الحرارة إلى الرأس، فاقعُد هوينًا وقم»، فخرج مولاه وكتب حكمته على باب الخلاء[2].

وحكي عن الشعبي، قال: لما قدم الحجاج الكوفة قال لابن أبي مسلم: اعرض على العرفاء، فعرضهم عليه فرأى فيهم وحشًا من وحش النَّاس، قال: ويحك: هؤلاء خلفاء الغزاة في عيالهم؟

قال: نعم.

قال: اطرحهم واغد عليَّ بالقبائل، فغدا عليه بالقبائل على راياتها، فجعلوا يعرضون عليه فإذا وقعت عينه على رجل دعاه، فدعا بالشعبيين

١- سير أعلام النبلاء (٨/٤٦٣).
٢-تهذيب الأسماء واللغات (٢/٧١)، فلله دره رفعه العلم وخلده القرآن لحكمته.

فمرت به السنة الأولى فلم يدع منهم أحدًا، ومررت به السنة الثانية فدعاني، فقال: من أنت؟ فأخبرته؟ فقال: اجلس، فجلست، فقال: قرأت؟ قلت: نعم، قال: رويت الشعر؟ قلت: قد نظرت في معانيه، قال: نظرت في الحساب؟ قلت: نعم، فقال: لابن أبي مسلم: إنا لنحتاج إليه في بعض الدواوين، قال: رويت مغازي رسول الله ﷺ؟ قلت: نعم قال: حدثني بحديث بدر، قال: فابتدأت له من رؤيا عاتكة حتى أذن المؤذن للظهر، ثمَّ دخل وقال: لا تبرح، فخرج فصلى الظهر وأتممتها له، فجعلني عريفًا على الشعبيين ومنكبًا على جميع همدان وفرض لي في الشرف، فلم أزل عنده بأحسن منزلة حتى كان عبد الرحمن بن الأشعث، فأتاني قراء أهل الكوفة فقالوا: يا أبا عمرو! إنَّك زعيم القراء، فلم يزالوا لي حتى خرجت معهم فقمت بين الصفين أذكر الحجاج وأعيبه بأشياء قد علمتها، قال: فبلغني أنَّه قال: ألا تعجبون من هذا الشعبي الذي جاءني وليس في الشرف من قومه، فألحقته بالشرف، وجعلته عريفًا على الشعبيين ومنكبًا على همدان(١).



١- الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي لابن النهرواني (ص٥٤).

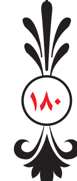
ودخل الإمام عطاء بن أبي رباح على عبد الملك وهو جالس على السرير، وحوله الأشراف، وذلك بمكة، في وقت حجه في خلافته، فلما بصر به عبد الملك، قام إليه، فسلم عليه، وأجلسه معه على السرير، وقعد بين يديه، وقال: يا أبا محمد، حاجتك؟

قال: يا أمير المؤمنين! اتقِ الله في حرم الله، وحرم رسوله، فتعاهده بالعمارة، واتقِ الله في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنَّك بهم جلست هذا المجلس، واتقِ الله في أهل الثغور، فإنَّهم حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين، فإنَّك وحدك المسؤول عنهم، واتقِ الله فيمن على بابك، فلا تغفل عنهم، ولا تغلق دونهم بابك.

فقال له: أفعل.

ثمَّ نهض، وقام، فقبض عليه عبد الملك، وقال: يا أبا محمد! إنَّما سألتنا حوائج غيرك، وقد قضيناها، فما حاجتك؟

قال: ما لي إلى مخلوق حاجة. ثمَّ خرج، فقال عبد الملك: «هذا -وأبيك- الشرف، هذا -وأبيك- السؤدد»[1].



١- سير أعلام النبلاء (٥/٨٤- ٨٥).



أبو القاسم أحمد بن بيطير القرطبي (ت ٣٠٣هـ). قال ابن الحارث: مولى الأمير محمد. قال القاضي عياض: قرأتُ بخطِّ ابن عتَّاب مولى لامرأةٍ من أهل القَصْرِ، ولاء عتاقة.

قال ابن حارث: «وبيْطير أبُوه هو المعتق نفسه، طلبَ ابنه أحمد هذا العلم، فسادَ فيه، وهو مِنْ مناجيبِ أبناء الموالي»(١).

وكان النَّهشلي المغربي (ت ٤٠٥هـ). يوصف بأنَّ فيه غفلة شديدة، حتى قال له بعض إخوانه: الناسُ يزعمون أنَّك أبله.

فقال: هم البله! هل أنا أبله في صناعتي؟

قال: لا

قال: فما على الصائغ ألا يكون نساجًا، ولم يهج أحدًا قط. ومع ذلك كان نابغة، وشاعرًا مقدَّمًا، عارفًا باللغة، خبيرًا بأيَّام العرب وأشعارها، بصيرًا بوقائعها وآثارها(٢).

وكان أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن طلحة بن محمد بن عثمان النعالي الحافظ (ت ٤٩٣هـ)، كان شيخًا يحفظ الثياب في حمام بالكرخ، وكان أبو نصر اليونارتي الأصبهاني إذا روى عنه كان يقول في روايته عنه: «الحافظ».

١-ترتيب المدارك (١٣٧/٣)، من طبعة الرسالة ناشرون.
٢- الوافي بالوفيات (٥١/١٩).

وسمع عن جماعة من المحدثين(١).

وهذا الفقيه الشافعي النحوي اللغوي الموفق المطجن (ت ٦٢٩هـ). لقبه تاج الدين الكندي بالجدي المطجن؛ لرقة وجهه، وتجعده ويبسه، وكان دميم الخلقة، نحيلها، قليل لحم الوجه(٢). ولم يكن ليذكر إلا في صف الفقهاء، وعداد الأدباء لولا علمه، فغطى العلم عيب الشكل والجسم.

فهؤلاءالرجال رفعهم العلم، وخلَّد ذكرهم، والعلم ينفع في الدنيا والآخرة لمن أراد به وجه الله.

وممَّن نبغ من العلماء في سن متأخر: رَاوية الإسلام ومحدث الصاحبة الأعلام أبو هريرة رضي الله عنه، **يقول**: «إنَّ النَّاس يقولون: أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان في كتاب الله عز وجل ما حدثت حديثا، ثمَّ تلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [البقرة: ١٧٤] و ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ [البقرة: ١٥٩] وإنَّ إخواننا المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإخواننا الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم، وإنَّ أبا هريرة كان يلزمُ رسول الله ﷺ لشبعِ بطنه، ويحضر ما لا

١-الأنساب للسمعاني (١٩/٤)، و«تراجم حفاظ الحديث ونقَّاد الأثر»(١٢٩/٣).
٢- الوافي بالوفيات (٧٣/١٩-٧٤) ومن هذا القبيل كان أبو الحسن الأخفش الأوسط لا تنطبق شفتاه على أسنانه، وقرأ النحو على سيبويه، وكان من أكابر علماء النحو في البصرة.

يحضرون»[1].

وقال مكحول: «تواعد النَّاس ليلة من الليالي إلى قبةٍ من قباب معاوية فاجتمعوا فيها، فقام فيهم أبو هريرة يحدثهم عن رسول الله ﷺ حتى أصبح»[2].

ومنهم: النابغة قيس، وقيل: عبد الله بن عدي بن عدس (ت ٧٣هـ).

وفي الشعراء جماعةٌ يقال لكلٍّ واحدٍ منهم: النابغة.

قال ابن عبد البر: «إنَّما قيل له: النابغة؛ لأنَّه قال الشعر في الجاهلية، ثم تركه نحو ثلاثين سنة، ثمَّ نبغ فيه بعد فقاله، فقيل له: النابغة». وفي شعره في الجاهلية ضروب من التوحيد، وإثبات البعث، والجزاء، والجنة، والنار[3].

١- أبو هريرة رضي الله عنه، مثال عظيم للهمة العالية عند الصحابة في تلقي العلم وسماع الحديث، وبلغ به الحرص على ذلك، بما أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/٣٧٨) «لقد رأيتني أصرع بين منبر رسول الله ﷺ وبين حجرة عائشة رضي الله عنها، فيقول: النَّاسُ إنَّه مجنون، وما بي جنون، ما بي إلا الجوع». وهو في الأصل في «صحيح البخاري» (٦٨٩٣).

٢- العلم لزهير بن حرب (٤٣).

٣-تهذيب الأسماء واللغات (٢/٢٨٦-٢٨٧) وكان من المعمرين، عاش في الجاهلية، ثمَّ في الإسلام دهرًا طويلاً. قال ابن قتيبة في (المعارف): «عاش مائتين وعشرين سنة، ومات بأصبهان».

ومنهم: صالح بن كيسان (ت ١٤٠هـ)، قال الحاكم: «ابتدأ بالتعليم وهو ابن سبعين سنة»[١].

وقال ابن عبد الهادي: «وكان رفيقَ الزُّهريِّ في طلب العلم، وإنما طلب في الكُهولة»[٢].

ومنهم: صاحب المغازي أبو معشر نَجِيح بن عبد الرحمن (ت ١٧٠هـ). عن الفضل بن هارون البغدادي: سمعت محمد بن معشر يقول: كان أبي سنديًا، أخرم، خياطًا.

قال: وكيف حَفِظَ المغازي؟

قال: «كان التابعون يجلسون إلى أستاذه، فكانوا يتذاكرون المغازي، فحفظ»[٣].

ومنهم: الإمام الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠هـ). يقال: أنَّ الخليل لما أراد أن يضع العروض خلا في بيت ووضع بين يديه طستًا أو ما أشبه ذلك، وجعل يقرعه بعود ويقول: **(فاعلنٌ مستفعلنٌ فعولنٌ)** فسمعه أخوه فخرج إلى المسجد وقال: إنَّ أخي قد أصابه جنون، وأدخلهم عليه وهو يضرب الطست، فقالوا: يا أبا عبد الرحمن ما لك أأصابك شيء؟

١- تهذيب التهذيب (٤/٤٠٠).
٢-طبقات علماء الحديث (١/٢٣٢).
٣-سير أعلام النبلاء (٧/٤٣٩).

أتحب أن نعالجك؟

فقال: وما ذاك؟

فقالوا: أخوك يزعم أنَّك خولطت! فقال:

لَو كُنْتَ تعلمُ مَا أَقُول عذرتني	أَو كنتَ تعلمُ مَا تَقول عذلتُكا[1]
لَكِن جَهِلْتَ مَقَالَتي فعذلْتَني	وَعلِمتُ أَنَّك جَاهلٌ فعذرتُكا[2]

⬅ **ومنهم: العالم الحافظ علي بن الأحمر (ت ١٩٤هـ)**. صاحب الكسائي رجل من الجند من رجّالة النّوبة على باب الرشيد، وكان يحبُّ علم العربية، ولا يقدر على مجالس الكسائي إلا في أيام غير نوبته، وكان يرصد مصير الكسائي إلى الرشيد ويعرض له في طريقه كلّ يوم، فإذا أقبل تلقاه وأخذ بركابه ثمَّ أخذ بيده وماشاه إلى أن يبلغ الستر، وساءَله في طريقه عن المسألة بعد المسألة، فإذا دخل الكسائي رجع إلى مكانه، فإذا خرج الكسائي من الدار تلقاه إلى الستر وأخذ بيده وما شاه يسائله حتى يركب ويجاوز المضارب، ثمَّ ينصرف إلى الباب. فلم يزل كذلك يتعلم المسألة بعد المسألة حتى قوي وتمكن، وكان فطنا حريصًا.

-ولما مرض الكسائي-، قال: قد عزمت أن أستخلفك على أولاد

١- العذل: اللوم.

٢- الوافي بالوفيات (١٣/٢٤٣-٢٤٤).

الرشيد، فقال الأحمر: لعلي لا أفي بما يحتاجون إليه.

فقال الكسائي: إنَّما يحتاجون في كلّ يوم إلى مسألتين في النحو وثنتين من معاني الشعر وأحرف من اللغة، وأنا ألقنك في كلّ يوم قبل أن تأتيهم ذلك فتتحفظه وتعلّمهم.

فقال: نعم، فلما ألحّوا عليه قال: قد وجدت من أرضاه، وإنما أخّرت ذلك حتى وجدته، وأسماه لهم.

فقالوا له: إنَّما اخترت لنا رجلًا من رجال النّوبة ولم تأتِ بأحد متقدّم في العلم، فقال: «ما أعرف أحدًا في أصحابي مثله في الفهم والصيانة!»[١].

ومنهم: عيسى بن موسى غنجار أبو أحمد البخاري (ت ١٩٦هـ).

محدث ما وراء النهر رحل وحَمل عن سفيان الثوري وطبقته.

قال الحاكم: «هو إمام عصره، طلب العلم على كبر السن وطوف»[٢].

ومنهم: الإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ) ونبوغه في علم الطب.

قال الذهبي: «ومن بعض فنون هذا الإمام الطب، كان يدريه، نَقل ذلك غير واحد»[٣]، ثمَّ أورد له من الحكم الطبية ما فيه دلالة على علمه ومعرفته به.

١- معجم الأدباء (٤/١٦٧٠-١٦٧١).
٢-العبر في خبر من غبر (ص٥٤).
٣- سير أعلام النبلاء (١٠/٥٦).

ونقل البيهقي رحمه الله في «مناقبه»، أنَّه قال: «علم الفقه للأديان، وعلم الطّب للأبدان، وما سوى ذلك فَبُلْغَة مجلس».

وقال: «اثنان أَغْفَلَهما الناسُ: الطب والعربية».

وقال حرملة بن يحيى: «كان الشافعي يتلهّف على ما ضيّع المسلمون من الطب، ويقول: ضيَّعوا ثلث العلم ووكلوه إلى اليهود والنصارى»[1].

ومنهم: الطبيب النحوي حُنين بن إسحاق (ت ٢٦٠هـ). كان شيخه في العربية الخليل بن أحمد، ثمَّ بعد ذلك انتقل إلى بغداد واشتغل بصناعة الطب.

قال يوسف: وذلك أنِّي كنت أعهد حنين بن إسحق الترجمان يقرأ على يوحنا ابن ماسويه كتاب (فرق الطب) الموسوم باللسان الرومي والسرياني (بهراسيس)، وكان حنين إذ ذاك صاحب سؤال، وذلك يصعب على يوحنا ويباعده أيضًا من قلبه أنَّ حنينًا كان من أبناء الصيارفة من أهل الحيرة، وأهل جندي سابور خاصة ومتطببوها ينحرفون عن أهل الحيرة ويكرهون أن يدخل في صناعتهم أبناء التجار.

فسأله حنين في بعض الأيام عن بعض ما كان يقرأ عليه مسألة مستفهم لما يقرأ فحرد يوحنا، وقال: ما لأهل الحيرة ولتعلم صناعة الطب، سر

١- مناقب الشافعي للبيهقي (١١٦/٢).

إلى فلان قرابتك حتى يهب لك خمسين درهمًا؛ تشتري منها قفافًا صغارًا بدرهم، وزرنيخًا بثلاثة دراهم، واشتر بالباقي قلوسًا كوفية وقادسية، وزرنخ القادسية في تلك القفاف واقعد على الطريق وصح القلوس الجياد للصدقة والنفقة ربع القلوس فإنَّه أعود عليك من هذه الصناعة، ثمَّ أمر به فأخرج من داره فخرج حنين باكيًا مكروبًا، وغاب عنَّا حنين فلم نره سنتين.

وقال سليمان بن حسان: أنَّ حنينًا نهض من بغداد إلى أرض فارس، وكان الخليل بن أحمد النحوي بأرض فارس فلزمه حنين حتى برع في لسان العرب، وأدخل كتاب العين بغداد ثمَّ اختير للترجمة وأؤتمن عليها وكان المتخير له المتوكل على الله[1].

ومنهم: شاعر عصره أبو تمام حبيب بن أوس بن الحارث الطائي (ت ٢٣١هـ)، شامي الأصل من قرية جاسم بحوران، وكان بمصر في حداثته يسقي الماء في المسجد الجامع، ثم جالس الأدباء فأخذ عنهم وتعلم منهم، وكان فطنًا فهمًا، وكان يحب الشعر، فلم يزل يعانيه حتى قال الشعر فأجاد، وشاع ذكره، وسار شعره وبلغ المعتصم خبره فحمله إليه وهو (بسر من رأى) فعمل فيه قصائد، فأجازه المعتصم وقدمه على

١- عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (ص٢٥٨-٢٦٢).

شعراء وقته، فقدم بغداد فجالس الأدباء، وعاشر العلماء، وكان موصوفًا بالظرف وحسن الأخلاق وكرم النفس، وقد روى عنه أحمد بن أبي طاهر وغيره أخبارًا مسندة.

قال القاضي ابن خلكان: كان يحفظ أربع عشرة ألف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقاطيع، وغير ذلك.

وكان يقال: «في طيء ثلاثة: حاتم في كرمه، وداود الطائي في زهده، وأبو تمام في شعره»[1].

ومنهم: عبد الملك بن قطن أبو الوليد المهري القيرواني النحوي اللغوي شيخ أهل الأدب بالمغرب (ت ٢٥٦هـ). وقصته أن إبراهيم قرأ النحو قبل أخيه أبي الوليد، وكان سبب طلب أبي الوليد النحو: أنَّ أخاه إبراهيم رآه يومًا وقد مد يده إلى بعض كتبه يقلبه، فأخذ أبو الوليد منها كتابًا ينظر فيه فجذبه منه، وقال له: ما لك ولهذا؟ وأسمعه كلامًا، فغضب أبو الوليد لما قابله به أخوه، وأخذ في طلب العلم حتى علا عليه وعلى أهل زمانه، واشتهر ذكره، وسما قدره فليس أحد يجهل أمره، ولا

١- البداية والنهاية (١٤/٢٩٨)، و«السير» (١١/٦٣-٦٤)، ثمَّ عقب الحافظ ابن كثير الدمشقي قائلًا: «قلت: وقد كان الشعراء في زمانه جماعة؛ فمن مشاهيرهم أبو الشيص ودعبل بن علي، وابن أبي قيس، وقد كان أبو تمام من خيارهم دينًا وأدبًا وأخلاقًا».
وذكر الذهبي أيضًا رواية ثانية وهي: «قيل: قدم في زي الأعراب، فجلس إلى حلقة من الشعراء، وطلب منهم أن يسمعوا من نظمه، فشاع، وذاع، وخضعوا له، وصار من أمره ما صار».

يعرف إبراهيم من النَّاس إلا القليل[1].

ومنهم: أبو صالح أيوب بن سليمان (ت ٣٣٢هـ) عكف على كتاب «العروض» حتى حفظه، فسأله بعضهم عن إقباله على هذا العلم بعد الكبر، فقال: «حضرت قومًا يتكلمون فيه، فأخذني ذل في نفسي أن يكون باب من العلم لا أتكلم فيه»[2].

ومنهم: العالم الزاهد يحيى بن مجاهد الفزاري الإلبيري (ت ٣٣٦هـ).

قال القاضي أبو الوليد بن الصفار، قال: سمعت يحيي بن مجاهد الفزاري الزاهد يقول: «هذا أوان طلبي للعلم؛ إذ قوي فهمي، واستحكمت إرادتي».

قال: فقلت له: فعلمنا الطريق لعلنا ندرك ذلك في استقبال أعمارنا.

فقال: نعم كنت آخذ من كل علم طرفاً، فإن سماع الإنسان قوماً يتكلمون في علم وهو لا يدري ما يقولون غمة عظيمة أو كلاماً هذا معناه[3].

١- الوافي بالوفيات (٦٢/٦).

٢- الأعمال الكاملة لمحمد حسين (١٦٥/٥) مع تعليق لطيف عليه، وهو في «ترتيب المدارك» (١٢٦/٣)، والمثبت من طبعة مؤسسة الرسالة ناشرون. وذكره الذهبي في «السير» (٣٣٠/١٥-٣٣١): بقوله: «وكان متصرفًا في علم النحو والبلاغة والشعر».

٣- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس (ص٣٧٩)، ووصفه الذهبي في «السير» (٢٤٥/١٦): بقوله: «كان منقطع القرين، مجاب الدعوة، جربت دعوته في أشياء ظهرت، حج وعني بالقراءات والتفسير، وله حظ من الفقه، لكن غلبت عليه العبادة».

ومنهم: الإمام، العلامة الكبير، شيخ الشافعية، عبد الله بن أحمد بن عبد الله المروزي، الخراساني. أبو بكر القفال الشافعي (ت ٣٦٥هـ)، ابتدأ بطلب العلم وقد صار ابن ثلاثين سنة، فترك صنعته، وأقبل على العلم. وكان قد حذق في صنعة الأقفال حتى عمل قفلًا بآلاته ومفتاحه، زنة أربع حبات، فلمَّا صار ابن ثلاثين سنة، آنس من نفسه ذكاء مُفرطًا، وأحب الفقه، فأقبل على قراءته حتى برع فيه، وصار يضرب به المثل، وهو صاحب طريقة الخراسانيين في الفقه[١].

يقول رحمه الله: «بدأت التعلم وأنا لا أفرق بين اختصرتُ واختصرتَ»[٢].

فكان الحال بعد الصبر على العلم كما قال الفقيه ناصر العمري: لم يكن في زمان أبي بكر القفال أفقه منه، ولا يكون بعده مثله، وكنَّا نقول: «إنَّه ملك في صورةِ الإنسان»، حدَّث، وأملى، وكان رأسًا في الفقه، قدوَّة في الزهدِ[٣].

ومنهم العلامة يحي النحوي. يُحكى أنه كان ملاَّحًا، يعبر الناس في سفينته، وكان يحب العلمَ كثيرًا، فإذا عبر معه قومٌ من دار العلم والدرس التي كانت بجزيرة الإسكندرية يتحاورون فيما مضى لهم من

١- السير (١٧/٤٠٦)، وانظر: «وفيات الأعيان» (٣/٤٦)، وهو صاحب طريقة الخراسانيين، كما أن أبا حامد الإسفراييني هو صاحب طريقة العراقيين، وعنهما انتشر المذهب.

٢- طبقات الشافعية (٥/٥٤).

٣- سير أعلام النبلاء (١٧/٤٠٦).

النظر ويتفاوضونه، يسمعه فتهش نفسه للعلم، فلما قوي رأيه في طلب العلم فكَّر في نفسه، وقال: قد بلغت نيفًا وأربعين سنة وما ارتضت بشيء ولا عرفتُ غير صناعة الملاحة، فكيف يمكنني أن أتعرض لشيء من العلوم؟ وفيما هو يفكر إذ رأى نملة قد حملت نواة تمرة وهي دائبة تصعد بها، فوقعَت منها فعادَت فأخذتها، ولم تزل تجاهد مرارًا حتى بلغت بالمجاهدة غرضها، فقال: إذا كان هذا الحيوان الضعيف قد بلغ غرضه بالمجاهدة والمناصبة، فبالحريِّ أن أبلغ غرضي بالمجاهدة. فخرج من وقته وباع سفينتَه، ولزم دارَ العلم، وبدأ يتعلَّم النحو واللغة والمنطق، فبرع في هذه العلوم؛ لأنه أول ما ابتدأ بها، فنُسب إليها واشتهر بها، ووضع كتبًا كثيرة، ويحيى هذا لقي عمرو بن العاص وأعجب عمرو به[(١)].

ومنهم: أبو النضر أحمد بن محمد بن الحسن الفقيه الطرائفي (ت ٣٦٨هـ)، من أهل نيسابور، سمع الحديث ثمَّ تفقَّه على كبر السن، رأى أبا العباس محمد بن إسحاق الثقفي ثمَّ سمع الحديث بعده من مثل أبي على محمد ابن عبد الوهاب الثقفي وطبقته[(٢)]

١- علو الهمة للمقدم (ص٢٠٥)، نقلاً عن «أخبار العلماء» (ص ٢٣٤).
٢-الأنساب للسمعاني (٦٢/٩)، و«طبقات الشافعية» للسبكي (٧/٣).

ومنهم: علي بن محمد بن ينال أبو الحسن العكبري (ت ٣٧٦هـ).

قال الخطيب: قال لي عبد الواحد بن علي بن برهان الأسدي: «ابن ينال بغدادي نزل عكبرا، وتعلم الخط على كبر السن، وسمع الحديث، ورزقه الله تعالى من المعرفة، والفهم به شيئًا كثيرًا»[١].

ومنهم: أبو الحسن بشرى بن مسيس الرومي الفاتني، مولى الأمير فاتن مولى المطيع لله (ت ٤٣١هـ). أُسر من بلد الروم وهو كبير أمرد، قال: فأهداني بعض بني حمدان لفاتن، فأدبني وأسمعني، وورد أبي بغداد سرّاً ليتلطف في أخذي، فلمَّا رآني على تلك الصفة من الإسلام والاشتغال بالعلم يئس مني ورجع[٢].

ومنهم: الطبيب جرجس بن يوحنا اليبرودي. كان من النصارى اليعاقبة، وكان بقريته من جملة فلاحيها، يجمع الشيح من بر دمشق ويدخل يبيعه في دمشق، فاتفق يومًا أنْ دخلَ في باب توما فوجد طبيباً يفصد إنسانًا قد عرض له رعافٌ شديد من الجهة التي وقع الفصد فيها، فوقف ينظر إليه، وقال: لم تفعل هذا؟

قال: لقطع الدم.

فقال: إنْ كان الأمرُ هكذا فإنَّنا في موضعنا قد اعتدنا أنَّه متى كان

١-تاريخ بغداد (٦٤٥٧) (١٣/٥٦٦).
٢-الوافي بالوفيات (١٠/١٠٠).

نهر جار وأردنا قطع الماء عنه، فإنَّنا نجعل له مسيلًا إلى ناحيةٍ أخرى غير مسامتة له فافعل أنت كذلك، ففعل فانقطع الدم! فقال الطبيب لليبرودي: لو أنَّك مشتغلٌ بالطبِّ جاء منك طبيبٌ جيد.

فمالت نفسه إلى الطب واشتغل به، ولما تبصَّر في الطب قصد أبا الفرج بن الطيب كاتب الجاثليق ببغداد، وقرأ عليه الطب والحكمة إلى أنْ مهر، وعادَ إلى دمشق وأقام بها.

وتوفي اليبرودي بدمشق سنة[١] وأربعمائة[٢].

ومهم: الحافظ محمد بن علي بن محمد بن رحيم الصوري (ت ٤٤١هـ). عني على كبر وعني بالحديث أتمَّ عناية إلى أنْ صارَ فيه رأسًا[٣].

ومنهم: الفقيه الشافعي سليم بن أيوب الرازي (ت ٤٤٧هـ)، قال ابن عساكر: «بلغني أنَّ سليمًا تفقه بعد أن جاوز الأربعين»[٤].

قال النووي: «تفقه وهو كبير، وكان يشتغل في أول عمره بالنحو، واللغة، والتفسير، والمعاني، ثمَّ بالحديث، ثمَّ رحلَ إلى بغداد، واشتغل بالفقهِ على الشيخ أبي حامد الإسفراييني إمام أصحابنا العراقيين، وله عنه التعليقة

١-بياض في الأصل.
٢-الوافي بالوفيات (١١/٥٢)، ويبرود قرية إلى جانب صيدنايا من عمل دمشق.
٣-الوافي بالوفيات (٤/٩٥).
٤- طبقات المفسرين (١/٢٠٢)، و«تبيين كذب المفتري» لابن عساكر (ص٢٦٣).

المشهورة، وله مصنفات كثيرة»[1].

ولما مات أبو حامد جلس في موضعه للتدريس، فبلغ أباه بكستانة[2] أن رئاسة أصحاب الشافعي قد انتهت إلى ابنك ببغداد، فخرج من قريته وقصد بغداد ودخل القطيعة، وكان يدرس في مسجد أبي حامد، وقد فرغ من الدرس الكبير وهو يذكر درس الصبيان الصغار، فوقف على الحلقة، وقال: «سليم! إذا كنت تعلم الصبيان ببغداد فارجع إلى القرية فإنِّي أجمع لك صبيانها وتعلمهم وأنت عندنا!» فقام سليم من الدرس وأخذ بيد أبيه ودخل به إلى بيته، وقدم له شيئًا من المأكول، وخرج ودفع المفتاح إلى بعض أصحابه وقال: إذا فرغ أبي من الأكل فادفع إليه المفتاح، وقل: كلُّ ما في البيت بحكمك! وخرج سليم من فوره إلى الشام وأقام بها، وصنف ودرَّس، وانتشر علمه[3].

ومنهم: طاهر بن أحمد بن بابشاذ أبو الحسن النحوي المصري (ت ٤٦٩هـ). أحد الأئمة في هذا الشأن، والأعلام في علوم العربية، وفصاحة اللسان.

١-تهذيب الأسماء واللغات (١/٣٤١)، وقال أبو يوسف الغسولي: دخلت على ابن عيينة وبين يديه قرصان من شعير، فقال: «إنَّهما طعامي منذ أربعين سنة» فتأمل هذا، ورغم هذا الفقر والحال كان الإمام سفيان.

٢- على سبعة فراسخ من الري مما يلي طريق بغداد.

٣- المستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن الدمياطي (١/٩٣-٩٤).

وردَ العراق تاجرًا في اللؤلؤ، ثمَّ أخذ عن علمائها، ورجعَ إلى مصر واستُخدِم في ديوان الرسائل متأملًا يتأملُ ما يخرج من الدِّيوان من الإنشاء، ويصلح ما يراه من الخطأ في الهجاءِ أو في النَّحوِ أو في اللغة، وكان له حلقة أشغال بجامع مصر[1].

➡ومنهم: **الطبيب علي بن رضوان المصري (ت ٤٥٣هـ)** وكان مولده في ديار مصر بالجيزة، وكان أبوه فرانًا، ولم يزل ملازمًا للاشتغال والنَّظر في العلم إلى أن تميَّز وصارَ له الذكر الحسن والسمعة العظيمة، وخدم الحاكم وجعله رئيسًا على سائر المتطببين[2].

➡ومنهم: **العلامة المتبحر أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ)**. قال أبو محمد عبد الله بنُ محمد بن العَرَبي: «أخبرني ابن حزم أنَّ سبب تعلُّمِه الفِقْه أنَّه شَهدَ جِنَازةً، فَدَخل المسجد، فَجَلَس ولم يركع!

فقال له رجلٌ: قُمْ فصَلِّ تحيَّة المسجد، وكان ابن ستٍّ وعشرين سنة.

قال: فقُمْتُ وركعت.

فلمَّا رجعنا من الجِنَازة جئتُ المسجد، فبادرت بالتحيَّة، فقيل لي: اجلسْ

١-الوافي بالوفيات (١٦/٢٢٤).

٢- عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص٥٦٢-٥٦٣)، ومن أقواله: «أفضل الطاعات النظر في الملكوت، وتمجيد المالك لها سبحانه، ومن رزق ذلك فقد رزق خير الدنيا والآخرة وطوبى له وحسن مآب».

اجلسْ، ليس هذا وقت صلاةٍ -يعني بعد العَصْر- فانصرفت حزينًا، وقلتُ للأُستاذ الذي رَبَّاني: دُلَّني على دار الفقيه أبي عبد الله بن دَحُّون، فقصَدْتُه، وأعلمته بما جرى عليَّ، فدلَّني على (الموَطَّأ)، فبدأتُ به عليه قِراءةً، ثمَّ تتابعتْ قراءتي عليه وعلى غَيرِه ثلاثةَ أعوام، وبدأتُ بالمناظرة»[1].

وقد نعته الحافظ الذهبي: بـ (الإمام الأوحد، البحر، ذو الفنون والمعارف).

ولمَّا حرَّق المعتضد بن عباد كتبه، قال:

فَإِنْ تَحْرِقُوا القِرْطَاسَ لاَ تَحْرِقُوا الَّذِي ... تَضَمَّنَهُ القِرْطَاسُ بَلْ هُوَ فِي صَدْرِي

يَسِيرُ مَعِي حَيْثُ اسْتَقَلَّتْ رَكَائِبِي ... وَيَنْزِلُ إِنْ أَنْزِلْ وَيُدْفَنُ فِي قَبْرِي

دَعُوْنِيَ مِنْ إِحْرَاقِ رَقٍ وَكَاغَدٍ ... وَقُولُوا بِعِلْمٍ كِي يرَى النَّاسُ مَنْ يَدْرِي

وَإِلاَّ فَعُوْدُوا فِي المكَاتِبِ بَدْأَةً ... فَكَمْ دُوْنَ مَا تَبْغُونَ للهِ مِنْ سِتْرِ

كَذَاكَ النَّصَارَى يَحْرِقُوْنَ إِذَا عَلَتْ ... أَكُفُّهم القُرْآنَ فِي مُدُنِ الثَّغْرِ[2]

ومنهم: الفقيه أبو محمد الحلواني رَحِمَهُ اللهُ[3]، يقول: مات أبي وأنا ابنُ إحدى وعِشرين سنة، وكنتُ موصوفًا بالبطالةِ، فأتيتُ أتقاضى بعض سكان دار قد ورثْتُها فسمعتهم يقولون: جاءَ المدْبِرُ، أي الربيط.

فقلت لنفسي يقال عني هذا؟ فجئتُ إلى والدتي فقلت: إذا أردتِ طلبي

١- طبقات علماء الحديث (٣/٣٤٥- ٣٤٦).

٢- السير (١٨/٢٠٥).

٣- شيخ من شيوخ الحنابلة، انظر ترجمته في «ذيل طبقات الحنابلة» (١/٢٢١).

فاطلبيني منْ مسجدِ الشيخ أبي الخطاب[1]، ولازمته فما خرجت إلا إلى القضاء، فصرت قاضيًا مدة.

قلت–ابن الجوزي–: «ورأيتهُ أنا وهو يُفتي ويناظر»[2].

ومنهم: **العلامة، البليغ، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣هـ)**. كان أبوه من موالي الأزد علمه الصياغة، فلمَّا قال الشعر رحل إلى القيروان[3].

ومنهم: **أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن عاصم الجويني (ت ٥٤٤هـ)**. سكن نيسابور، وكان شيخاً فاضلاً حافظاً للأدب والشعر، وأخبار الناس، خدم الأكابر وصحبهم، ثمَّ عجز وضعف وترك ما كان فيه من خدمة أبناء الدنيا واشتغل بالعبادة، وكان له شعر حسن، ولم يسمع الحديث إلا على كبر السن من أبي القاسم إسماعيل بن الحسين الفرائضي، وأبي بكر الحسن بن يعقوب الأديب وغيرهما[4].

١– شيخ الحنابلة أبو الخطاب محفوظ بن أحمد بن حسن العراقي (ت٥١٠هـ).
٢– لفتة الكبد في نصيحة الولد لابن الجوزي (ص٤٨– ٤٩) ط: مكتبة الإمام البخاري.
٣– السير (١٨/٣٢٤–٣٢٥).
٤–التحبير في المعجم الكبير (١/٨٨).

ومنهم: الطبيب هبة الله بن علي بن ملكا أوحد الزمان (ت ٥٦٠هـ تقريبًا). كان يهوديًا، وسكن بغداد، وأسلم في آخر عمره، خدم المستنجد.

ودخل يومًا على الخليفة، فقام الحاضرون سوى قاضي القضاة، فإنَّه لم يقم له، فقال يا أمير المؤمنين: إنْ كان القاضي لم يوافق الجماعة لكوني على غير ملتهِ فأنا أسلم ولا ينقصني، فأسلم.

وكان له اهتمامٌ بالغ في العلوم، وفطرة فائقة.

وكان مبدأ تعلُّمه الطب أنَّ أبا الحسن سعيد بن هبة الله كان له تصانيف وتلامذة، وكان لا يقرئ يهوديًا، وكان أوحد الزمان يشتهي أن يقرأ عليه، وثقل عليه بكل طريق فما مكنَّه، وكان يتخادم للبواب، ويجلس في الدهليز، فلمَّا كان بعد سنة جرت مسألة، وبحثوا فيها ولم يتجه لهم عنها جواب، فدخل وخدم الشيخ، وقال يا سيدنا: بإذنك أتكلم.

فقال: قل، فأجاب بشيءٍ من كلام جالينوس، وقال: يا سيدنا، هذا جرى في اليوم الفلاني في ميعاد فلان، فاستعلم حاله فأوضحه، فقال: إذا كنت كذا فما نمنعك، فقربه وصار من أجل تلامذته[١].

١- الوافي بالوفيات (١٧٨/٢٧).

ومنهم: شيخ الشافعية أبو طالب الكرخي المبارك بن المبارك بن المبارك (ت ٥٨٥هـ). قال الموفق عبد اللطيف بن يوسف: قال شيخنا ابن عبيدة النحوي: كان أبوه عوادًا، وكان هو معي في المكتب، فضرب بالعود، وأجاد، وحذق، حتَّى شهدوا له أنَّه في طبقة معبد، ثمَّ أنِف، واشتغل بالخط، إلى أن شهد له أنَّه أكتب من ابن البواب، ولا سيَّما في الطومار والثلث، ثمَّ أنف منه، واشتغل بالفقه، فصار كما ترى، وعلم ولدي الناصر لدين الله[1]، وأصلحا مداسه[2].

ومنهم: إبراهيم بن منصور بن مسلم أبو إسحاق العراقي (ت ٥٩٦هـ). الفقيه المصري، شارح المهذب، إمام الجامع العتيق بمصر وخطيبه.

كان في مبدأ عمره يعمل النَّشاب في القاهرة.

قال ابن القليوبي في مناقب الفقيه أبي الطاهر سمعت والدي يقول: كان سبب اشتغاله بالعلم أنَّه اشترى جارية وباتت عنده، فلمَّا أصبح أتى إلى حانوته على عادته، فقال له بعض جيرانه: كيف وجدت جاريتك البارحة؟

١- وهما الأميران: أبو نصر محمد الذي تولى الخلافة بعد أبيه وعرف بالظاهر، وأبو الحسن علي الذي مات شابا، وكان يعلمهما الخط.

٢- السير (٢١/٢٢٦).

فقال له آخر: كيف يجتمع معها قبل أن يستبرئها؟!

فقال: وما الاستبراء؟

فقال: أن تحيض في ملكك.

فتجرد لطلب العلم، ورحل إلى العراق وفُتِح عليه هناك، وأقام مدةً ثمَّ قدم مصر، ومن ثَمَّ عرف بالعراقي.

وكان معظمًا في القاهرة، وعنه أخذ فقهاؤها منهم الفقيه أبو الطاهر خطيب مصر وغيره[1].

ومنهم: **العلامة أبو الفرج بن الجوزي البغدادي (ت ٥٩٧هـ)** ذكر الحافظ الذهبي «أنَّه قرأ بواسط وهو ابن ثمانين سنة بالعشر على ابن الباقلاني وتلا معه ولده يوسف» نقل ذلك ابن نقطة عن القاضي محمد بن أحمد بن الحسن[2].

ومنهم: **الرحالة المؤرخ ياقوت شهاب الدين الرومي مولى عسكر الحموي (ت ٦٢٦هـ)**. رومي الأصل، ومن البلاد البيزنطية، ولعله من عرق يوناني. وإنَّما اشتهر بابن عبد الله، لأنَّ أباه مجهول

١- طبقات الشافعية الكبرى (٧/٣٧).

٢- تذكرة الحفاظ (٤/٩٤)، وممن جمع القراءات على كبر السن أيضًا، محمد بن محمد بن محمد بن أسعد بن عبد الكريم بن سليمان بن يوسف المصري الشافعي كما في «الضوء اللامع» للسخاوي (١٧/٢)، ومثله المقرئ أبو منصور الشيباني البغدادي، كما في «معرفة القراء الكبار» للذهبي (ص٢٦١).



واشتهر بالحموي أيضًا؛ لأنَّه مولى لرجل من أهل حماة، وولد بالإجماع في سنة (٥٧٥ هـ- ١١٧٩م).

كان غريبًا عن لغته الأصلية أو كان لا يجيدها، وصارت العربية لغته الرسمية؛ ولكن بما أنَّه يعود إلى أصول أجنبية لم يصل في هذه اللغة أيضًا إلى كمالها.

ترعرع في بيئة إسلامية، وقد سعى مولاه في أمر تعليمه وإرشاده، وكان يصطحبه معه في الكثير من الرحلات التجارية، وأحيانًا يرسله للسفر وحيدًا.

ومن الرحلات التي أثرت فيه رحلته مكررًا إلى جزيرة كيش الواقعة في الخليج الفارسي؛ حيث كانت آنذاك واحدة من المراكز التجارية في العالم الإسلامي يتقاطر إليها الناس من مختلف أصقاع العالم. وخلال إحدى هذه الرحلات في (سنة ٥٩٦ هـ)، أُخبر بوفاة مولاه وتحريره إياه، فأقام من حينها في بغداد، واشتغل بالاستنساخ وبيع الكتب، ثمَّ بدأ برحلاته منذ عام (٦١٠ هـ / ١٢١٣م)، واستمرت ستة عشر عامًا إلى حين موته بفواصل قليلة[١]. وله كتاب «الأدباء» في أربعة أسفار، وكتاب «الشعراء

١- مقدمة معجم البلدان لمحققه «وذكر بأنَّ اسم ياقوت يدل على أنه كان من الموالي، إذ كان من المرسوم أن يدعون الموالي باسم الأحجار الكريمة أو العطور العبقة كزمرد وكافور. فأراد ياقوت فيما بعد أن يستبدل اسمه بيعقوب للتشابه فيما بينهما؛ ولكنه لم يوفق لذلك وبقي بين معاصريه والأجيال اللاحقة مشتهرًا بهذا الاسم».

المتأخرين والقدماء»، وكتاب «معجم البلدان»، وكتاب «المشترك وضعًا، والمختلف صقعًا» كبير مفيد، وكتاب «المبدأ والمآل في التاريخ»، وكتاب «الدول»، وكتاب «الأنساب»، وكان شاعرًا متفننًا، جيد الإنشاء[1].

ومنهم: الإمام المحدث شيخ المحدثين يوسف بن خليل بن قراجا عبد الله، أبو الحجاج الدمشقي (ت ٦٤٨هـ).

تشاغل بالسبب[2] حتى كبر وقارب الثلاثين، ثمَّ بعد ذلك حبب إليه الحديث، وعني بالرواية، وسمع الكثير، وارتحل إلى النواحي، وكتب بخطه المتقن الحلو شيئا كثيرا، وجلب الأصول الكبار، وكان ذا علم حسن ومعرفة جيدة ومشاركة قوية في الإسناد والمتن والعالي والنازل والانتخاب. وسمع بدمشق بعد الثمانين من: يحي الثقفي، ومحمد بن علي بن صدقة، وعبد الرحمن بن علي الخرقي، وأحمد بن حمزة بن علي ابن الموازيني، وإسماعيل الجنزوي، وأبي طاهر الخشوعي، وأقرانهم[3].

١- السير (٢٢/٣١٢-٣١٣).
٢- يعني بطلب الرزق.
٣- السير (٢٣/١٥١).

ومنهم: سلطان العلماء وبائع الأمراء العز بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ). ذكر السبكي: كان الشيخ عز الدين في أول أمره فقيرًا جدًا، ولم يشتغل إلا على كبر، وسبب ذلك: أنَّه كان يبيت في الكلاَّسة من جامع دمشق، فبات بها ليلة ذات برد شديد، فاحتلم فقام مسرعًا ونزل في بركة الكلَّاسة، فحصل له ألم شديد من البرد، وعاد فنام فاحتلم ثانيًا، فعاد إلى البرِكة؛ لأنَّ أبواب الجامع مغلقة وهو لا يمكنه الخروج، فطلع فأغمي عليه من شدة البرد، أنا أشك هل كان الشيخ الإمام يحكي أنَّ هذا اتفق له ثلاث مرات تلك الليلة أو مرتين فقط، ثمَّ سمع النِّداء في المرة الأخيرة: يا ابن عبد السلام، أتريد العلم أم العمل؟

فقال الشيخ عز الدين: العلم لأنَّه يهدي إلى العمل، فأصبح وأخذ «كتاب التنبيه في الفقه» فحفظه في مدة يسيرة، وأقبل على العلم فكان أعلم أهل زمانه، ومن أعبد خلق الله تعالى[١].



١- طبقات الشافعية الكبرى (٨/٢١٢-٢١٣) بتصرف يسير.

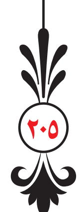
ومنهم: محمد بن محمد بن عيسى ابن نحام بن نجدة بن معتوق الشيباني النصيبي، ثم القوصي، الأديب الشاعر الفاضل المحدث (ت ٧٠٧هـ).

يقول: لما جئتُ إلى قوص وجدت بها الشيخ تقي الدين والشيخ جلال الدين الدشنائي فترددتُ إليهما، فقال لي كل منهما كلامًا انتفعتُ به، فأمَّا الشيخ تقي الدين فقال لي: أنت رجل فاضل والسعيد من تموت سيئاته بموتِه لا تهج أحدًا؛ فما هجوت أحدًا

وأما الشَّيخ جلال الدّين فقالَ لي: أَنت رجل فَاضل وَمن أهل الحدِيث ومعَ ذلِك فأشاهد عَلَيك شيئًا مَا هُوَ بِبَعِيد أَن يكون فِي عقيدتك شَيء وَكنت متشيعاً، فتبت من ذَلِك[١].

ومنهم: الشيخ أحمد بن إبراهيم بن الحسن القنائي (ت ٧٢٨ هـ)

طلب العلم وهو ابن ثلاثين سنة، وتفقه، وقرأ النحو وغيره حتى مهر، وشغل الناس ببلده، وكان يحفظ أربع مائة سطر في يوم واحد[٢].



١-الوافي بالوفيات (١/٢٠١-٢٠٢).
٢- انظر الدرر الكامنة (١/٩٥).

ومنهم: الشيخ أحمد بن عبد القادر القيسي الحنفي النحوي (ت ٧٤٩ هـ) برع في العلم، وأقبل على طلب الحديث في آخر عمره، فتكلم بعض الناس عليه، فأنكر عليهم بأبيات جميلة، قال فيها:

وعَابَ سَمَاعِي للأحَاديثِ بَعْدمَا ... كَبِرْت أناسٌ هُمْ إلى العَيْبِ أقربُ

وقالوا إمامٌ ذو عُلُومٍ كثيرةٍ ... يَرُوحُ ويَغْدُو سَامِعاً يَتَطلَّبُ

فقلتُ مُجيباً عن مَقَالتهمْ وقد ... غَدَوْتُ بجَهلٍ منهُمُ أتعجَّبُ

إذا استدركَ الإنسان مَافاتَ مِن عُلاً ... فللْحَزْمِ يُعزَى لا إلى الجهلِ يُنسَبُ[1]

ومنهم: أحمد بن عبد الله بن بدر بن مفرح العامري الغزي ثمَّ الدمشقي الشافعي (ت ٨٢٢هـ). حفظ القرآن و"التنبيه"، ثمَّ في كبره "الحاوي"، وأخذ عن قاضيها العلاء علي ابن خلف[2].

ومنهم: زين الدّين خالد بن عبد الله بن أبي بكر المصري الأزهري الوقّاد به النحوي (ت ٩٠٥هـ). اشتغل بالعلم على كبر، قيل كان عمره ستّاً وثلاثين سنة فسقطت منه يومًا فتيلة على كراس أحد الطلبة فشتمه وعيّره بالجهل، فترك الوقادة وأكبّ على الطلب، وبرع وأشغل

١- انظر ترجمته في: «الدرر الكامنة» (١/ ١٧٤ - ١٧٦)، و«بغية الوعاة» (ص ١٤٠ - ١٤٣)، و«الشذرات» لابن العماد (٦/ ١٥٩)، و«غاية النهاية» لابن الجزري (١/ ٧٠)، و«حسن المحاضرة» للسيوطي (١/ ٤٧٠)، وهو مترجم كذلك في «الجواهر المضية» (١/ ٧٥).

٢-البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (١/٧٥).

الناس، وصنّف شرحًا حافلًا على «التوضيح» ما صنّف مثله، و «إعراب ألفية بن مالك»، وشرحًا على «الآجرومية» نافعًا، وآخر على «قواعد الإعراب» لابن هشام، وآخر على «الجزرية» في التجويد، وآخر على «البردة» و «المقدمة الأزهرية» وشرحها، وكثر النّفع بتصانيفه لإخلاصه ووضوحها[1].

١- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد (١٠/٣٨-٣٩).

النوابغ الصغار

روى ابن ماجه في «السنن» عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه، قال: «كنَّا مع النبي صلى الله عليه وسلم ونحن فتيان حزاورة، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثمَّ تعلمنا القرآن، فازددنا به إيمانًا»[1].

وقال البخاري: «كان القرَّاء أصحاب مشورة عمر، كهولاً أو شبَّاناً، وكان وقَّافاً عند كتاب الله عز وجل»[2].

قال ابن الجوزي رحمه الله: «وقد كان السلف إذا نشأ لأحدهم ولد؛ شغلوه بحفظ القرآن وسماع الحديث؛ فيثبت الإيمان في قلبه»[3].

وقد ظهر في الأمة من النوابغ والمتصدرين في (الحفظ والتأليف والفتوى، وغير ذلك الشيء الكثير)، ولهذا تكلم العلماء في خصوص السن الذي يجوز فيه التحمل والسماع للحديث في كتب الحديث والاصطلاح، كما قال ابن الصلاح (ت ٦٤٣هـ): وينبغي أن يبكر بإسماع الصغير في أول زمان يصح فيه بسماعه، وأمَّا الاشتغال بكتبه الحديث، وتحصيله، وضبطه، وتقييده، فمن حين يتأهل لذلك ويستعد له، وذلك يختلف باختلاف الأشخاص، وليس ينحصر في سن مخصوص، واختلفوا في أول

١- (٦٢)، قوله: (حزاورة)، وهو الغلام إذا اشتد وقوي وحزم. (الصحاح).
٢- صحيح البخاري (٢/٢٦٨١).
٣- صيد الخاطر (ص٤٩١).

زمان يصح فيه سماع الصغير، فروينا عن موسى بن هارون الحمال -أحد الحفاظ النُّقاد- أنَّه سُئِل: متى يسمع الصبي الحديث؟ فقال: «إذا فرَّق بين البقرة والدابة»، وفي رواية: «بين البقرة والحمار».

وعن أحمد بن حنبل رضي الله عنه أنَّه سُئِل: متى يجوز سماع الصبي للحديث؟ فقال: «إذا عقل وضبط»، فذكر له عن رجل أنَّه قال: لا يجوز سماعه حتى يكون له خمس عشرة سنة، فأنكر قوله، وقال: «بئس القول».

وقال ابن الصلاح: «التحديد بخمس هو الذي استقر عليه عمل أهل الحديث المتأخرين، فيكتبون لابن خمس فصاعدًا (سمع)، ولمن لم يبلغ خمسًا (حضر)، أو (أحضر)»[1].

وقال الشيخ العلامة بكر أبو زيد رحمه الله: وإنِّي في هذا لا أغمض الشَّابَّ

١- معرفة أنواع علوم الحديث (ص١٢٩-١٣٠)، وقال السيوطي في «تدريب الراوي» (٥٨٨/١-٥٨٩). ومما قيل في ضابط التمييز: أن يحسن العدد من واحد إلى عشرين، حكاه ابن الملقن، وفرق السِّلفي بين العربي والعجمي فقال أكثرهم: على أنَّ العربي يصح سماعه إذا بلغ أربع سنين لحديث محمود، والعجمي إذا بلغ ست سنين.

وقال ابن حجر في «نزهة النظر» (ص١٤١): «وأما الأداء؛ فقد تقدم أنَّه لا اختصاص له بزمن معين، بل يقيد بالاحتياج والتأهل لذلك. وهو مختلف باختلاف الأشخاص».

وينظر: «الجامع لأخلاق الراوي» (مبلغ السن الذي يستحسن التحديث معه) (٣٢٢/١)، و«الآداب الشرعية» لابن مفلح (فصل: في أخذ العلم عن أهله وإن كانوا صغار السن) (١١٠/٢)، وفي هذا المقام يجدر ذكر أنَّ العلم قد يصله الصغير ويحرمه الكبير، كما قال عمر رضي الله عنه: «إن الفقه ليس عن كبر السن، ولكنه عطاء الله ورزقه».

وقال عبد الله بن المعتز: «الجاهل صغير وإن كان شيخًا، والعالم كبير وإن كان حدثًا».

وقال الإمام أحمد: بلغني عن ابن عيينة قال: «الغلام أستاذ إذا كان ثقة».

اليافعَ، إذ العلوم لا تُقاس بالأشبار، ولا بعظام الأجسام. وليس هو المعنيّ، وإنَّما المعني الحدث في العلم.

فإنَّ الأشياخ، وإن كانوا أشجار الوقار، ومعادنُ الاختيار، ورأي الشَّيخ خيرٌ من مشهد الغلام، فإنَّ حداثة السن ليست مانعةٌ من استقطاب الفضائل، وتحمل الرَّسائل. قال الله تعالى في شأنِ نبيه يحيى ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٠]، وقال في أهل الكهف: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١٠]، ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ [الكهف: ١٣].

وقد ولَّى النبي ﷺ عتّابًا على مكة وهو شاب، وفي مكة مشيخةُ قريش، وولَّى أسامة بن زيد رضي الله عنهما قيادةَ الجيشِ إلى الشَّام، وفيه من هو أكبر منه من الصحابة، قيل: منهم عمر رضي الله عنه.

وللمتنبي:

فَمَا الحداثةُ مِنْ حِلْمٍ بمانعةٍ ... قدْ يوجدُ الحلم في الشُّبانِ والشّيْبِ

ونختم هذه القضية بقول ابن قتيبة رحمه الله تعليقًا على أثر ابن مسعود رضي الله عنه: «لا يزال الناسُ بخيرٍ ما أخذوا العلم عن أكابرهم وأمنائهم وعلمائهم»: «لأنَّ الشيخَ قد زالت عنهُ متعةَ الشباب وحِدَّتُه وعجلتُه وسفهه، واستصحب التجربة والخبرة؛ فلا يدخل عليه في علمه الشبهة، ولا يغلب عليه الهوى،

ولا يميل به الطمع، ولا يستزله الشيطان استزلال الحدث»[1].

ومن هؤلاء النوابغ:

عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم، الحبر البحر أبو العباس (ت ٦٨هـ).

عن ابن عباس: أنَّ رسول الله ﷺ كان في بيتِ ميمونة، فوضعت له وضوءًا من الليل، قال: فقالت ميمونة: يا رسول الله، وضع لك هذا عبد الله بن عباس. فقال: «اللهم فقِّه في الدين، وعلِّمه التأويل»[2]. ابن عباس ذلك الغلام الذي ظهرت عليه علامات النَّجابة، ودلائل النَّباهة، خيرُ مثالٍ لشابٍ طلب العلم وصبر عليه حتَّى نبغ، وعلا صيته واشتهر، وصار قدوة يحتذى به، ويرحل إليه.

ولم تذهب الأيام وتأتي حتى كان ابن عباس، كما قال أبو صالح: لقد رأيتُ من ابن عباس مجلسًا لو أنَّ جميع قريش فخرت به لكان لها فخرًا، لقد رأيت النَّاس اجتمعوا حتى ضاق بهم الطريق، فما كان أحد يقدر على أن يجيء ولا أن يذهب، قال: فدخلت عليه فأخبرته بمكانهم على

١- التعالم (ص٢٤-٢٥).
٢- رواه أحمد في «مسنده» (٣١٠٢)، وابن سعد في «طبقاته» (٢/٣٦٥)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٢/١١١-١١٢)، ويعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (١/٤٩٣-٤٩٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٠٥٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣/٥٤٣) من طرق عن حماد بن سلمة، به. وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

بابه، فقال: لي: ضع لي وضوءًا، قال: فتوضأ وجلس وقال: اخرج وقل لهم: «من كان يريد أن يسأل عن القرآن وحروفه وما أراد منه فليدخل» قال: فخرجت فأذنتهم، فدخلوا حتى ملئوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثل ما سألوا عنه أو أكثر، ثمَّ قال: «إخوانكم» فخرجوا.

ثمَّ قال: اخرج فقل: من أراد أن يسأل عن تفسير القرآن وتأويله فليدخل. قال: فخرجت فأذنتهم، فدخلوا حتى ملئوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثل ما سألوه عنه أو أكثر، ثمَّ قال: «إخوانكم» فخرجوا.

ثمَّ قال: اخرج فقل: من أراد أن يسأل عن الحلال والحرام والفقه فليدخل، فخرجت فقلت لهم، قال: فدخلوا حتى ملئوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله، ثم قال: «إخوانكم» فخرجوا.

ثمَّ قال: اخرج فقل: من أراد أن يسأل عن الفرائض وما أشبهها فليدخل. قال: فخرجت فأذنتهم، فدخلوا حتى ملئوا البيت والحجرة فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله، ثمَّ قال: «إخوانكم» فخرجوا.

ثمَّ قال: اخرج فقل: من أراد أن يسأل عن العربية والشعر والغريب من الكلام فليدخل.

قال: فدخلوا حتى ملئوا البيت والحجرة فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله.

قال أبو صالح: فلو أنَّ قريشًا كلها فخرت بذلك لكان فخرًا، فما رأيت مثل هذا لأحدٍ من النَّاس[1].

وقال أبو بكر الهذلي عن الحسن قال: كان ابن عباس من الإسلام بمنزل، وكان من القرآن بمنزل، وكان يقوم على منبرنا هذا، فيقرأ البقرة وآل عمران، فيفسرهما آية آية. وكان عمر إذا ذكره قال: «ذاكم فتى الكهول،

١- حلية الأولياء (١/٣٢٠)، ومن أسباب نبوغ ابن عباس رضي الله عنه:

١-**دعاء النبي ﷺ له.**

٢-**حرصه على طلب العلم**، كما روى ابن سعد في «الطبقات» (٢/٣٦٧) عن ابن عباس، قال: لما قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلَّم فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ فإنَّهم اليوم كثير، قال فقال: واعجبًا لك يا ابن عباس! أترى النَّاس يفتقرون إليك؟ وفي النَّاس من أصحاب رسول الله ﷺ من فيهم؟! قال: فتركت ذلك وأقبلت أسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن الحديث، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتي بابه وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه تسفي الريح علي التراب فيخرج فيراني فيقول لي: يا ابن عمَّ رسول الله ما جاء بك؟ ألا أرسلت إلي فآتيك؟ فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك فأسأله عن الحديث، فعاش ذلك الرجل الأنصاري حتى رآني وقد اجتمع الناس حولي ليسألوني فيقول: «هذا الفتى كان أعقل مني».

٣-**تواضع ابن عباس لمعلمه وأستاذه**، فهو كما قال: «ذللتُ مطلوبًا فعززت طالبًا»، ففي «الجامع» للخطيب (٢١٧)، عن ابن أبي حسين، قال: «كان ابن عباس يأتي الرجل من أصحاب النبي ﷺ يريد أن يسأله عن الحديث، فيقال له: إنه نائم، فيضطجع على الباب فيقال له: ألا نوقظه؟ فيقول: لا» وقد مرَّ ذكره.

له لسان سؤول، وقلب عقول»[1].

وعن طاووس قال: قيل له: أدركتُ أصحاب محمد ﷺ وتركتهم، ورجعت إلى هذا الغلام!

وقال: «أدركت سبعين شيخًا من أصحاب رسول ﷺ يتدارؤون في الأمر فيرجعون إلى قول ابن عباس رضي الله عنه»[2].

ولما عمي ابن عباس رضي الله عنه قال:

إِنْ يَأْخُذِ اللهُ مِنْ عَيْنَيَّ نُورَهُمَا ... فَفِي لِسَانِي وَقَلْبِي مِنْهُمَا نُورُ

قَلْبِي ذَكِيٌّ، وَعَقْلِي غَيْرُ ذِي دَخَلٍ ... وَفِي فَمِي صَارِمٌ كَالسَّيْفِ مَأْثُور[3]

الإمام الحسن البصري (ت ١١٠هـ). قال محمد بن سلام: حدثنا أبو عمرو الشعاب بإسنادٍ له، قال: كانت أم سلمة تبعث أم الحسن في الحاجة، فيبكي وهو طفل، فتسكته أم سلمة بثديها، وتخرجه إلى أصحاب رسول الله ﷺ وهو صغير، وكانت أمه منقطعة إليها، فكانوا يدعون له، فأخرجته إلى عمر، فدعا له، وقال: «اللهم فقهه في الدين،

١- تاريخ الإسلام (٢/٦٥٨).
٢- المحدث الفاصل بين الراوي والواعي للرامهرمزي (ص٢٢٩)، وهو في «فضائل الصحابة» لعبد الله بن أحمد (٢/١٢٢٧).
٣- السير (٣/٣٥٧).

وحببه إلى الناس»[1]. وكان سيد أهل زمانه علمًا وعملاً[2].

الإمام معمر بن راشد أبو عروة الأزدي، مولاهم البصري (ت ١٥٣هـ) أحد الأعلام، سكن اليمن أكثر من عشرين سنة.

عن عبد الرزاق، عن معمر قال: «خرجت أنا وغلام إلى جنازة الحسن، وتلك الأيام طلبت العلم».

وعن محمد بن كثير، عن معمر قال: «سمعت من قتادة، وأنا ابن أربع عشرة سنة، فما شيء سمعت في تلك السنين إلا وكان مكتوبًا في صدري»[3].

إمام دار الهجرة مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) قال: شهدت العيد، فقلت: هذا اليوم يخلو فيه ابن شهاب فانصرفت من المصلى حتى جلست على بابه، فسمعته يقول لجاريته: أنظري من على الباب.

فنظرت فسمعتها تقول: مولاك الأشقر مالك.

قال: أدخليه، فدخلت.

فقال: ما أراك انصرفت بعد إلى منزلك؟

قلت: لا.



١- أخبار القضاة (٢/٥).
٢- السير (٤/٥٦٤-٥٦٥).
٣- تاريخ الإسلام (٤/٢٢٣).

قال: هل أكلت شيئاً؟

قلت: لا!

قال: فاطعم.

قلت: لا حاجة لي فيه.

قال: فما تريد؟

قلت: تحدثني فحدثني سبعة عشر حديثاً، ثم قال: وما ينفعك إن حدثتك ولا تحفظها؟!

قلت: إن شئت رددتها عليك، فرددتها عليه.

وفي رواية: قال: هاتِ فأخرجت ألواحي فحدثني بأربعين حديثاً.

فقلت: زدني.

قال: حسبك إن كنت رويت هذه الأحاديث فأنت من الحفاظ!

قلت: قد رويتها، فجبذ الألواح من يدي، ثمَّ قال: حدث، فحدثته بها فردها إليَّ، وقال: قم فأنت من أوعية العلم.

أو قال: إنَّك لنعم المستودع للعلم[1].

وقال رحمه الله: انقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين -وفي رواية-: ثمان سنين لم أخلط بغيره.

١- ترتيب المدارك وتقريب المسالك (١/١٣٤).

وكنت أجعل في كُمِّي تمرًا وأناوله صبيانه، وأقول لهم: «إن سألكم أحد عن الشيخ، فقولوا: مشغول».

وقال ابن هرمز يومًا لجاريته: منْ بالباب؟ فلم ترَ إلا مالكًا، فرجعت فقالت له: ما ثمَّ إلا ذاك الأشقر، فقال: «دعيهِ فذلك عالمُ النَّاس»[١].

وسئل **أبو حنيفة** حين رجع من الحج: كيف رأيت المدينة؟ قال: «رأيت بها علمًا مبثوثًا، فإن يكن أحد يجمعه فالفتى الأبيض -يعني مالكًا-»[٢].

(لطيفة): جاء في كتاب: «الفواكه الدواني» للعلامة النفراوي (ت١١٢٦ هـ)، **[مسألة]** وهي: «لو ماتت امرأة وجنينها يضطرب في بطنها فإن أمكن إخراجه من محله فعل اتفاقًا، وإن لم يمكن فلا تدفن ما دام حيًا، واختلف هل تبقر بطنها لإخراجه حيث رجي خروجه حيًا؟ وهو قول سحنون وعزي لأشهب أيضًا.

وقيل: لا تبقر؛ وهو قول ابن القاسم.

ووقعت في زمنهما وسئلا عنها فأفتى أشهب بالبقر، وأفتى ابن القاسم بعدمه، فعملوا فيها بكلام أشهب فخرج الجنين حيًا وكبر وصار عالماً يعلم العلم، ويتبع قول أشهب، ويدع قول ابن القاسم»[٣].

١- ترتيب المدارك (١/١٣١).
٢- إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال (١١/٣١).
٣- الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني (٢/٦٩٧).

فريدُ الزمان وشيخ الإسلام عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، مولاهم، التركي، ثمَّ المروزي الحافظ (ت ١٨١هـ)، طلب العلم وهو ابن بضع عشرة سنة، وأقدم شيخ له الربيع بن أنس الخراساني، ورحل سنة إحدى وأربعين ومائة فلقي التابعين، وأكثر الترحال والتطواف إلى الغاية في طلب العلم والجهاد والحج والتجارة.

قال أبو أسامة: «ابن المبارك في المحدثين مثل أمير المؤمنين في الناس».

وقال حبيب الجلاب: سألت ابن المبارك: ما خير ما أعطي الإنسان؟ قال: غريزةُ عقل، قلت: فإنْ لم يكن؟ قال: حسنُ أدب، قلت: فإن لم يكن؟ قال: أخ شفيق يستشيره، قلت: فإن لم يكن؟ قال: صمتٌ طويل، قلت: فإن لم يكن؟ قال: موتٌ عاجل(١).

مكي بن إبراهيم بن بشير بن فرقد، أبو السكن التميمي الحنظلي البلخي (ت ٢١٤هـ).

قال: طلبت الحديث ولي سبع عشرة سنة.

وقال عبد الله بن عمرو ابن العمركي: سمعت عبد الصمد بن الفضل قال: سمعت مكيا يقول: حججت ستين حجة، وتزوجت ستين امرأة. وجاورت بالبيت عشر سنين، وكتبت عن سبعة عشر من التابعين. ولو

١- تاريخ الإسلام (٨٨٢/٤).

علمت أن الناس يحتاجون إلي لما كتبت عن أحد دون التابعين[1].

أحمد بن يحيى بن يزيد أبو العباس الشيباني، مولاهم النحوي، ثعلب (ت ٢٩١ هـ). وكان يقول: «طلبت العربية سنة ست عشرة ومائتين، وابتدأت بالنظر وعمري ثمان عشرة سنة، ولما بلغت خمسًا وعشرين سنة ما بقي عليَّ مسألة للفراء إلا وأنا أحفظها، وسمعت من القواريري مائة ألف حديث»[2].

فيا طالبَ العلمِ لا تجهلنَّ ... وعُذ بالمبرّد أو ثعلبْ

تجد عند هذينِ علمَ الورى ... فلا تكُ كالجملِ الأجرب

علوم الخلائقِ مقرونةٌ ... بهذين في الشّرقِ والمغرب[3]

الإمام الأوزاعي، يقول ﷬: مات أبي وأنا صغير، فذهبت ألعب مع الغلمان، فمر بنا فلان - وذكر شيخًا جليلًا من العرب - ففرَّ الصبيان حين رأوه، وثبت أنا، فقال: ابن من أنت؟

فأخبرته، فقال: يا ابن أخي! يرحم الله أباك.

فذهب بي إلى بيته، فكنت معه حتى بلغت، فألحقني في الديوان، وضرب علينا بعثًا إلى اليمامة، فلمَّا قدمناها، ودخلنا مسجد الجامع، وخرجنا،

١- السير (٥/٤٦٤).

٢- تاريخ الإسلام (٦/٩٠٠).

٣- روضة الأعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام لابن الأزرق (٢/٦١٩-٦٢٠).

قال لي رجل من أصحابنا: رأيت يحيى بن أبي كثير معجبًا بك، يقول: ما رأيت في هذا البعث أهدى من هذا الشاب!

قال: فجالسته، فكتبت عنه أربعة عشر كتابًا، أو ثلاثة عشر، فاحترق كله[١].

الإمام سفيان بن عيينة (ت ١٩٨هـ)، قال: كان أبي صيرفيًا بالكوفة، فركبه دين، فحملنا إلى مكة، فصرت إلى المسجد، فإذا عمرو بن دينار، فحدثني بثمانية أحاديث، فأمسكت له حماره حتى صلى وخرج، فعرضت الأحاديث عليه، فقال: بارك الله فيك[٢].

وقال: «قرأت القرآن وأنا ابن اربع سنين، وكتبت الحديث وأنا ابن سبع سنين»[٣].

وقال: لما بلغت خمس عشرة سنة قال لي أبي: «يا بنيَّ، قد انقطعت عنك شرائع الصِّبا، فاختلِط بالخير تكن مِن أهله، واعلم أنَّه لن يسعد بالعلماء إلا مَن أطاعهم، فأطعهم تسعد، واخدمهم تقتبس من علمه» فجعلت أميل إلى وصية أبي ولا أعدل عنها[٤].

١- السير (٧/١١٠).
٢- السير (٨/٤٦٠).
٣- فتح المغيث للحافظ السخاوي (٢/٣١٩). ط: دار المنهاج.
٤-تهذيب الأسماء واللغات (١/٣٤١)، وقال أبو يوسف الغسولي: دخلت على ابن عيينة وبين يديه قرصان من شعير، فقال: «إنهما طعامي منذ أربعين سنة «فتأمل هذا، ورغم هذا الفقر والحال كان الإمام سفيان.

وقال: قال لي الزهري: «ما رأيتُ طالبًا للعلم أصغرَ منك». وقال: «كنتُ أحفظ الحديث قبل أن أسأل الزهري عنه»[1].

وقال أحمد بن النضر الهلالي قال: سمعت أبي يقول: كنت في مجلس ابن عيينة، فنظر إلى صبي دخل المسجد، فكأنَّ أهل المسجد تهاونوا به لصغر سنه، فقال سفيان: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤]، ثمَّ قال: لو رأيتني ولي عشر سنين، طولي خمسة أشبار، ووجهي كالدينار، وأنا كشعلة نار، ثيابي صغار، وأكمامي قصار، وذيلي بمقدار، ونعلي كآذان الفار، أختلف إلى علماء الأمصار مثل الزهري وعمرو بن دينار، أجلس بينهم كالمسمار، ومحبرتي كالجوزة، ومقلمتي كالموزة، وقلمي كاللوزة، فإذا دخلت المسجد قالوا: أوسعوا للشيخ الصغير، أوسعوا للشيخ الصغير.

ثمَّ تبسم ابن عيينة وضحك[2].

(تتمة) وحكي أنَّ ابن مزين جلس ذات يوم للإقراء، فجاءه طالبٌ يقرأ عليه، ولا يحسن فمرَّ بحرفٍ صحَّفهُ تصحيفًا منكراً. فلم يبقَ في المجلس

١- المحدث الفاصل (ص١٥٩)، و«مقدمة الكامل في ضعفاء الرجال» لابن عدي رقم (٤٩٤).
٢- فتح المغيث بشرح ألفية أهل الحديث للسخاوي (٢/٣١٨-٣١٩)، و«اللطائف من الظرائف» لأبي موسى المديني (ص٢٧١)، و«توضيح الأفكار» للصنعاني (٢/١٨٤)، ثم قال السخاوي: «اتصل تسلسله بالضحك والتبسم إلى الخطيب، مع مقال في السند، لكن القصد منه صحيح. وقد قال النووي في ترجمة ابن عيينة من تهذيبه: وروينا عن سعدان بن نصر قال: قال سفيان بن عيينة: قرأت القرآن وأنا ابن أربع سنين، وكتبت الحديث وأنا ابن سبع سنين».

أحدٌ من أهل مجلسه إلا غلبه الضحك إلا الشيخ، فلم يضحك إلا أنَّه قد احمر وجهُهُ، فقال لمن حضر: ﴿كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾[1].

الإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ). قال مسلم بن خالد الزنجي للشافعي: «افتِ يا أبا عبد الله، قد آن لك أن تفتي وهو ابن خمس عشرة سنة»[2].

وعن إسماعيل بن يحيى، قال: سمعت الشافعي، يقول: «حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين، وحفظت الموطأ وانا ابن عشر سنين»[3].

الإمام البخاري (ت ٢٥٦هـ). قال محمد بن أبي حاتم الوراق النحوي: قلت لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: كيف كان بدء أمرك في طلب الحديث؟ قال: أُلهمت حفظ الحديث وأنا في الكتَّاب. قال: وكم أتى عليك إذ ذاك؟ فقال: عشر سنين أو أقل، ثمَّ خرجت من الكتاب بعد العشر، فجعلت اختلف إلى الداخلي وغيره، وقال يومًا فيما كان يقرأ للنَّاس: «سفيان، عن أبي الزبير، عن إبراهيم».

فقلت له: يا أبا فلان إنَّ أبا الزبير لم يروِهِ عن إبراهيم.

١- تمام النصيحة (ص٨٤)، وبنحوه في «ترتيب المدارك» (٤/٢٣٩)، والعلامة ابن مزين هو يحيي بن مزين مولى رملة ابنة عثمان بن عفان. أصله من طليطلة.
قال أحمد بن عبد البر: كان جميع شيوخنا يصفونه بالفضل، والنزاهة، والدين، والحفظ، ومعرفة مذهب أهل المدينة. وكان يحفظ الموطأ، وكتبه، حفظاً، ويتقن ضبطها.

٢- الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء مالك والشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهم (ص٧١).

٣- تاريخ بغداد (٢/٣٩٢)

فانتهرني، فقلت له: ارجع إلى الأصل إن كان عندك، فدخل ونظر فيه ثمَّ خرج فقال لي: كيف هو يا غلام؟

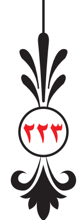
قلت: هو الزبير بن عدي بن إبراهيم.

فأخذ القلم مني وأحكم كتابه، فقال: صدقت.

فقال له بعض أصحابه: ابن كم كنت إذ رددت عليه؟

فقال: ابن إحدى عشرة فلمَّا طعنت في ست عشرة سنة، حفظت كتب ابن المبارك ووكيع وعرفت كلام هؤلاء.

ثمَّ خرجت مع أمي وأخي أحمد إلى مكة، فلما حججت رجع أخي. بها تخلفت بها في طلب الحديث، فلمَّا طعنت في ثمان عشرة جعلت أصنِّف قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم وذلك أيام عبيد الله بن موسى، وصنَّفت كتاب التاريخ إذ ذاك عند قبر الرسول ﷺ في الليالي المقمرة، وقال: «قلَّ اسم في التاريخ إلا وله عندي قصة، إلا أنِّي كرهت تطويل الكتاب»[1].



١- تاريخ بغداد (٢/٣٢٢).

الإمام العلم أبو حاتم الرازي (ت ٢٧٧هـ). ذكر ابن أبي حاتم الرازي عن والده جملةً من أخبارِهِ في كتابه القيم «الجرح والتعديل» (باب: ما لقي أبي من المقاساة في طلب العلم من الشدة). ثمَّ قال: ومِنْ أخباره قوله: «كنَّا في البحر فاحتلمت فأصبحت وأخبرت أصحابي به، فقالوا لي: أغمس نفسك في البحر.

قلت: إنِّي لا أحسن أنْ أسبح.

فقالوا: إنَّ نشُد فيك حبلًا، ونعلقك من الماءِ، فشدوا في حبلًا وأرسلوني في الماء، وأنا في الهواء! أريدُ إسباغَ الوضوء؛ فلمَّا توضأت، قلتُ لهم: أرسلوني قليلًا، فأرسلوني فغمست نفسي في الماء، قلت: ارفعوني فرفعوني»[١].

أبو زرعة عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله الدمشقي (ت ٢٨١هـ). قال أبو الميمون بن راشد: سمعت أبا زرعة، يقول: «أعجب أبو مسهر بمجالستي إيَّاه صغيرًا»[٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، قال: ذكر أحمد بن أبي الحواري أبا زرعة

١- الجرح والتعديل (١/٣٦٣- ٣٦٦)، وهو في «المقدمة» المطبوعة (ص٣٢٣-٧٢٤) ط: الناشر المتميز.

٢- سير أعلام النبلاء (١٣/٣١٣)، و «تذكرة الحفاظ» (٢/٦٢٤).



الدمشقي، فقال: «هو شيخ الشباب»[1].

ابن حيويه محمد بن عبد الله النيسابوري ثمَّ المصري الشافعي (ت ٣٣٦هـ).

قدم مصر صغيرًا، وسمعه عمه الحافظ يحيى بن زكريا الأعرج من بكر بن سهل الدمياطي، والإمام أبي عبد الرحمن النسائي، وأبي بكر أحمد بن عمرو البزار، وعبد الله بن أحمد بن عبد السلام الخفاف، وجماعة، وأخذ عن عمه[2].

عبد الله بن محمد بن محمد بن اللبان (ت ٤٤٦ هـ). يقول: حفظت القرآن ولي خمس سنين، وأحضرت عند أبي بكر ابن المقرئ، ولي أربع سنين، فأرادوا أن يسمعوا لي فيما حضرت قراءته، فقال بعضهم: إنه يصغر عن السماع، فقال لي ابن المقرئ: اقرأ سورة الكافرين، فقرأتها، فقال: اقرأ سورة التكوير، فقرأتها، فقال لي غيره: اقرأ سورة والمرسلات، فقرأتها ولم أغلط فيها، فقال ابن المقرئ: سمعوا له والعهدة علي[3].

قال ابن الصلاح: وقد بلغنا عن إبراهيم بن سعيد الجوهري قال: «رأيت صبيًا ابن أربع سنين قد حمل إلى المأمون قد قرأ القرآن، ونظر في الرأي،

١- الجرح والتعديل (٥/٢٦٧).
٢- سير أعلام النبلاء (١٦/١٦٠).
٣- تاريخ بغداد (١١/٣٧٥).

غير أنَّه إذا جاع يبكي[1].

تاج الدين الكندي (ت ٦١٣هـ) حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، وأكمل القراآت العشر وهو ابن عشر، وكان أعلى أهل الأرض إسنادًا في القراآت.

قال الشيخ شمس الدين: «فإنِّي لا أعلم أحدًا من الأمة عاش بعد ما قرأ القرآن ثلاثًا وثمانين سنة غيره»[2].

ابن الجميزي علي بن هبة الله بن سلامة اللخمي شيخ الديار المصرية، العلامة، المفتي، المقرئ (ت ٦٤٦هـ).

حفظ القرآن صغيرًا، وارتحل به أبوه، فسمع في سنة ثمان وستين من الحافظ ابن عساكر، وببغداد من شهدة الكاتبة.

وتلا بالعشر على: أبي الحسن البطائحي، وعلى القاضي شرف الدين ابن أبي عصرون، وتفقه عليه، وأكثر عنه[3].

محمد بن عُمَر بن عليّ بن عبد الصمد بن عطية بن أحمد الأموي صدر الدين بن الوكيل وابن المرحل (ت ٧١٦هـ). أفتى وهو ابن عشرين سنة[4].

١- معرفة أنواع علوم الحديث (ص١٣١).
٢- الوافي بالوفيات (١٤/٣٢).
٣- سير أعلام النبلاء (٢٣/٢٥٣).
٤-البدر الطالع (٢/٢٣٥).

العلامة محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد المصري الأصل ثم العدني الشافعي المعروف بابن الصارم، ولد بمصر (٨٨٠هـ).

كان ضريرًا فاشتغل عند جماعة كمحمد بن حسين القماط، والبدر حسين الأهدل، وبحث في العلوم والأدب، وفاق الأقران، وصنَّف التصانيف في أيام شبابه بحيث كملت مصنفاته عشرين مصنفًا قبل أن يبلغ عمره عشرين سنة! فمنها: كتاب (ملجأ المحققين الأعلام في قواعد الأحكام)، و(كتاب الإبريز في تفسير كتاب الله العزيز)، وشرح إرشاد المقري وسمَّاه: (البحر الوقَّاد في شرح الإرشاد) وله مصنفات كثيرة نافعة عدد السخاوي كثيرًا منها[1].



١-(المصدر السابق) البدر الطالع (٢/ ٢٤٠).

تتمة مفيدة

للشيخ الفاضل علي العمران وفقه الله كتاب مفيد بعنوان: (المتصدرون في سن العشرين فما دون)، وأحببت أن أنقل منه بعض الفوائد، ومنها:

ذكر أنَّ صلاح الدين المنجِّد (ت ١٤٣١هـ) رفَّ في خاطرِهِ حلمٌ بهيج وهو أن يرى اسمه على صفحات مجلة الرسالة للزيات مع الكبار! فبقي شهرين ينمِّق مقالة على طريقة كبار أدباء العصر، ويعيد ويزيد فيها، ثمَّ بعث بها إلى الزيات لينشرها، ثمَّ بقي خائفًا يترقَّب الجواب لمدة أسبوعين حتى جاء قبول النشر[1].

وصحح الأستاذ عبد السلام هارون (ت ١٤٠٨هـ) متن أبي شجاع وعمره ستة عشر عامًا، وحقق السيد أحمد صقر (ت ١٤١٠هـ) ديوان علقمة الفحل وهو في العشرين، وشارك محمود شاكر (ت ١٤١٧هـ) في تصحيح كتاب أدب الكاتب طبعة محي الدين الخطيب وهو في السابعة عشرة من عمره.

والشيخ محمد عزيز شمس ألف كتابًا عن العلامة شمس الحق العظيم

١- لمحات عن تجاربي الفكرية (ص ٦٣-٦٥)، ومن طريف ما وقع له: أنَّه أرفق المقال مع صورة شخصية له، فظنَّها الزيات صورة قديمة له أيام الشباب، فكتب إليه: «هل حننت إلى أيام صباك، فأرسلت لي خيالك وأنت غضّ الشباب حلو الإهاب؟!».

آبادي وهو في السابعة عشر من عمره[1].

ومن النوابغ: أيضًا أحمد بن الفرات (ت ٢٨٥هـ) طلب العلم في الصغر، وعُدَّ من الحفاظ وهو شاب أمرد.

أبو نصر القاضي يوسف بن عمر الأزدي (ت ٣٥٦هـ)، ولي القضاء وله عشرون سنة:

ومن شعره:

يا محنة الله كُفّي	إن لم تكفّي فخِفّي
ما آن أن ترحمينا	من طولِ هذا التشفي
ذهبتُ اطلبُ بختي	وجدته قد توفي

والإمام ابن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦هـ)، صنع رسالته المشهورة، وله سبع عشرة سنة.

وأبو عبد الله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ)، سمع الحديث وَسِنُّه تسع سنوات، وكتبه وعمره ثلاث عشرة سنة، وشرع في التصنيف وعمره ست عشرة سنة.

وأبو حامد الإسفراييني أحمد بن محمد بن أحمد بن حبان (ت ٤٠٦هـ)، أفتى وهو ابن سبع عشرة سنة.

١- (ص٣٢-٣٣).

عبد الله بن سعيد ابن الشَّقَّاق المالكي (ت ٤٢٦هـ)، تصدَّر وهو أمرد، وكان أحد علماء الأندلس المبرزين في الفقه والحفظ، والحذق والفتوى.

الحسين بن عبد الله ابن سينا (ت ٤٢٨هـ)، قال الذهبي: كان آية في الذكاء، وهو رأس الفلاسفة الإسلاميين الذي مشوا خلف العقول وخالفوا الرسول[١].

بعد حفظه القرآن شرع في (إيساغوجي) حتى أحكم علم المنطق والفلسفة، ثم قرأ (المجسطي)، ثمَّ رغب في علم الطب فأدركه في أقل مدة، ثمَّ اشتغل بالفقه وناظر فيه حتى أحكمه، ثمَّ قرأ كتب الحكمة لأبي نصر الفارابي وغيره.

كل هذا وعمره ثماني عشرة سنة، وصنَّف في العلوم الرياضية وعمره إحدى وعشرون سنة.

الإمام أبو عثمان الصابوني (ت ٤٤٩هـ)، كان أبوه من أئمة الوعظ بنيسابور، فقتل ولأبي عثمان تسع سنين، فأجلس مكانه، وحضر مجلسه الشيخُ أبو الطيب الصعلوكي، وابن فورك، وأبو إسحاق الإسفراييني.

١- قال الذهبي في «السير» (١٧/٥٣١) «كان أبوه كاتبا من دعاة الإسماعيلية».

إمام الحرمين أبو المعالي الجويني عبد الملك بن عبد الله (ت ٤٧٨هـ)، توفي أبوه، وله عشرون سنة، فأقعد مكانه للتدريس.

العلامة المحدث أحمد بن محمد أبو طاهر السِّلفي (ت ٥٧٦هـ)، سمع الحديث وعمره ثلاثَ عشرة سنة، حدَّث وكتب الحديثَ وعمره سبع عشرة سنة.

وهو أول من جمع أربعين حديثًا عن أربعين شيخًا في أربعين بلدًا، ورحل إليه الناس من البلاد البعيدة.

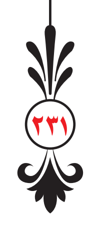
وأنشد لنفسه:

إنَّ علم الحديث علمَ رجالٍ ... تركوا الابتداع للاتباع

فإذا جنَّ ليلُهم كتبوه ... وإذا أصبحوا غدَوا للسماع

أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي البغدادي الحنبلي (ت ٥٩٧هـ)، أوَّل سماعه سنة ستّ عشرة وخمسمائة، وعمره ثمان سنوات، وصنَّف وله ثلاث عشرة سنة.

ومن كلماته: «إذا وقفتُ على كتاب لم أره فكأنَّما وقفت على كنز!».



الحافظ الكبير البارع، محدث العراق محمد بن محمود بن الحسن، محب الدين ابن النجار البغدادي (ت ٦٤٣هـ)، صاحب كتاب (ذيل تاريخ بغداد).

قال عن نفسه: «كنت وأنا صبي عزمت على تذييل (الذيل) لابن السمعاني، فجمعت في ذلك مسودةً».

المجد ابن تيمية عبد السلام بن عبد الله أبو البركات ابن تيمية الحراني الحنبلي (ت ٦٥٢هـ) شُهد له بالفقه والإمامة والعلم وهو ابن ستة عشر عامًا.

قال أبو العباس ابن تيمية الحفيد: كان جدُّنا عجبًا في حفظ الأحاديث وسردها، وحفظ مذاهب الناس وإيرادها بلا كلفة.

قال الذهبي: حكى البرهان المراغي: أنَّه اجتمع بالشيخ المجد، فأورد نكتة عليه، فقال المجد: الجواب عنها من ستين وجهًا، الأول كذا، والثاني كذا، وسردها إلى آخرها، ثمَّ قال للبرهان: قد رضينا منك بإعادة الأجوبة! فخضع وانبهر.



يوسف بن قِزْ أُغلي بن عبد الله أبو المظفر، سبط ابن الجوزي الحنبلي ثم الحنفي (ت ٦٥٤هـ)، تصدر للوعظ وهو ابن ست عشرة سنة.

محمد بن علي بن عبد الواحد أبو المعالي الزَّمْلكاني الشافعي (ت ٧٢٧هـ)، أفتى وله نيف وعشرون سنة، وسمِّي بـ(الشيخ)، وعمره عشرون سنة.

محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الغرناطي، أبو حيان، الأندلسي الجياني (ت ٧٤٥هـ)، كتب العلم سنة سبعين وستمائة، وعمره ست عشرة سنة.

قال الصفدي: «لم أره قط إلا يسمع أو يشتغل، أو يكتب أو ينظر في كتاب».

ومن أبياته السائرة:

عِداي لهم فضلٌ عليَّ ومِنةٌ ... فلا أذهبَ الرحمنُ عنّي الأعاديا

همُ بحثوا عن زلّتي فاجتنبتُها ... وهم نافسوني فاكتسبتُ المعاليا



عُمر بن علي بن أحمد بن محمد الأندلسي، سراج الدين، أبو حفص، ابن الملقن (ت ٨٠٤). قال الحافظ ابن حجر: «اشتغل بالتصنيف وهو شابٌّ، فكتب الكثير، حتى كان أكثر أهل عصره تصنيفًا، واشتهرت تصانيفه في الآفاق».

عمر بن رسلان بن نصير بن صالح بن شهاب، سراج الدين البُلقيني الشافعي (ت ٨٠٥هـ)، أفتى وهو ابن خمس عشرة سنة.

ولي الدين العراقي أحمد بن عبد الرحيم العراقي الشافعي (ت ٨٢٦هـ)، درَّس وهو شاب، وألف كتاب (التوسط المحمود شرح سنن أبي داود) وهو في العشرين من عمره.

محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف الجزري الشافعي (ت ٨٣٣هـ)، ألف كتابه (التمهيد في علم التجويد) وعمره سبعة عشر عامًا، ونظم الهداية في تتمة العشرة وسمَّاها الدَّرة وله ثماني عشرة سنة، وربما حفظها أو بعضها بعض شيوخه، وألف (منجد المقرئين) وعمره اثنان وعشرون عامًا، وأذن له الحافظ عماد الدين ابن كثير وعمره ثلاث وعشرون سنة.

محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن يوسف العِينتابي العيني الحنفي (ت ٨٥٥هـ)، كان كثير التصانيف، قال السخاوي: لا يعرف بعد ابن حجر أكثر تصانيف منه، وله كتب ضخمة، من تصانيفه: (عمدة القاري شرح البخاري)، و(عقد الجُمان في تاريخ أهل الزمان)، صنَّف (سلاح الألواح) وعمره تسع عشرة سنة، و(المستجمع) وعمره إحدى وعشرون سنة.

محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن النجم ابن جماعة المقدسي الشافعي (ت ٩٠١هـ)، أذن الحافظ ابن حجر وتقي الدين ابن قاضي شُهبة بالتدريس قبل العشرين.

يوسف بن حسن بن أحمد بن جمال ابن المبْرَد الصالحي الحنبلي (ت ٩٠٩هـ)، ألف وهو في سن السابعة عشرة من عمره كتاب (معارف الإنعام وفضل الشهور والأيام)، وكان سريعة الكتابة، قلَّ من يُحسن قراءة خطه، فلذلك لم يكثر نسخ كتبه ولم تنشر.

عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، شرع في الاشتغال وعمره ست عشرة سنة، فما أتمَّها إلَّا وقد صنَّف.

محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)، أفتى وهو في العشرين من عمره.

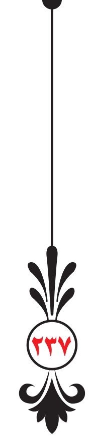
محمود بن عبد الله الحسيني شهاب الدين أبو الثناء الألوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ)، اشتغل بالتدريس والتأليف وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وقُلِّد الإفتاء وعمره إحدى وعشرون.

عبد الحي بن محمد بن عبد الحليم بن أمين الله السهالوي أبو الحسنات اللكنوي (ت ١٣٠٤هـ)، ألقى الله في قلبه من مستهل شبابه محبة التدريس والتأليف، فلم يقرأ كتابًا إلا درسه بعد قراءته، من المكثرين من التصنيف، توفي شابًا دون الأربعين.

جمال الدين بن محمد القاسمي الحسني الدمشقي (ت ١٣٣٢هـ)، قال الزركلي: اطلعت له على اثنين وسبعين مصنَّفًا، ذكر رحمه الله عن نفسه أنَّه طُلِب منه في سن الرابعة عشرة إقراء بعض الطلبة، فأقرأهم مقدِّمات بعض الفنون.

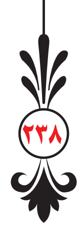
حافظ بن أحمد بن علي الحكمي (ت ١٣٧٧هـ)، نشأ في البادية يرعى الغنم، ثمَّ حفظ القرآن، وبدأ يطلب العلم في سن السادسة عشرة، فنبغ سريعًا، كان آية في الذكاء وسرعة الحفظ والفهم، عندما بلغ التاسعة عشرة من عمره طلب منه شيخه عبد الله القرعاوي (ت ١٣٨٨هـ) أن

يؤلف كتابًا في توحيد الله، يشمل على عقيدة السلف الصالح، فصنف منظومته (سلَّم الوصول إلى علم الأصول) رحمهم الله جميعًا وغفر لهم، ونفعنا بعلمهم.





مقالات نافعة



مقال التشجيع

يقول الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله: قرأت مرة أنَّ مجلة إنكليزية كبيرة سألت الأدباء عن الأمر الذي يتوقف عليه نموُّ العلوم وازدهار الآداب، وجعلت لمن يحسن الجواب جائزة قيِّمة، فكانت الجائزة لكاتبة مشهورة قالت: إنَّه التشجيع! وقالت: إنَّها في تلك السنّ، بعد تلك الشهرة والمكانة، تدفعها كلمة التشجيع حتى تمضي إلى الأمام وتقعد بها كلمة التثبيط عن المسير.

إنَّ من أظهر الأسباب في ركود الأدب في الشام في القرن الماضي، وانقطاع سبيل التأليف، هو فقدان التشجيع، وذلك «الاحتكار العلمي» الذي قتل كثيراً من النفوس المستعدَّة للعلم وخنق كثيراً من العبقريات المتهيئة للظهور، فقد كان العلم في الشام مقصوراً يومئذٍ على بيوت معروفة لا يتعدَّاها ولا يجوز أن يتعداها، هي: بيت العطار، والحمزاوي، والغزي، والطنطاوي، والشطِّي، والخاني، والكزبري، والإسطواني، والحلبي ... وكانت كلها متجمعة حول المدرسة البادرائية؛ في القيمرية والعمارة، وزقاق النقيب، حيث يسكن الأمير العالم المجاهد عبد القادر الجزائري، رحمة الله عليه وعليهم، وكان لهذه البيوت كل معاني الامتياز و «الاحتكار العلمي»، فإذا سُمع أنَّ شاباً اشتغل بالعلم من

غير هذه البيوت، وقدَّروا فيه النبوغ، وخافوا أن يزاحمهم على وظائفهم الموروثة، بذلوا الجهد في صرفه عن العلم، والعدول به إلى التجارة؛ أو ليست الوظائف العلمية وقفاً على هذه البيوت؟ أو ليس للولد ولاية العهد في وظيفة أبيه، تنحدر إليه الإمامة أو الخطابة أو التدريس عالماً كان أو جاهلاً، فكيف إذن يزاحمهم عليها أبناء التجار، وهم لا يزاحمون أبناء التجار على «حوانيتهم»؟ أو لا يكفي أبناء التجار هذا القسط الضئيل من النحو والصرف والفقه والمنطق الذي يمنُّ به عليهم هؤلاء العلماء؟

حتى أنه لما نشأ **محمد أمين (ابن عابدين)** وأَنِسوا منه الميل إلى العلم، وعرفوا فيه الذكاء المتوقِّد، والعقل الراجح، خافوا منه فذهبوا يقنعون أباه -وكان أبوه تاجراً- ليسلك به سبيل التجارة، ويتنكَّب به طريق العلم، وجعلوا يكلِّمونه، ويرسلون إليه الرسل، ويكتبون إليه الكتب، ويستعينون عليه بأصحابه وخلصائه ولكن الله أراد بالمسلمين خيراً، فثبت الوالد فكان من هذا الولد المبارك، ابن عابدين صاحب «الحاشية»، أوسع كتاب في فروع الفقه الحنفي.

بل أرادوا أن يصرفوا أستاذنا **العلّامة محمد بن كرد علي** عن العلم، فبعثوا إليه بشقيقين من آل ... بشقيقين قد ماتا فلست أسميهما، على

رغم أنَّهما قطعا عن العلم أكثر من أربعين طالباً -فما زالا بأبيه - ولم يكن أبوه من أهل العلم- ينصحانه أن يقطعه عن العلم، ويعلمه مهنة يتكسَّب منها، فما في العلم نفع، ولا منه فائدة ... ويلحَّان عليه ويلازمانه، حتى ضجر فصرفهما فكان من ولده هذا، الأستاذ كرد علي أبو النهضة الفكرية في الشام وقائدها، ووزير معارف سورية ومفخرتها، والذي من مصنَّفاته: خطط الشام، وغرائب الغرب، والقديم والحديث، والمحاضرات، وغابر الأندلس وحاضرها، والإدارة الإسلامية، والإسلام والحضارة العربية .. والمقتبس ... ومن مصنفاته: «المجمع العلمي العربي بدمشق»، ومن مصنفاته هؤلاء «الشعراء والكتَّاب من الشباب!» ولعلَّ في الناس كثيرين كانوا لولا الاحتكار والتثبيط كابن عابدين أو ككرد علي.

وها هو ذا **العلامة المرحوم الشيخ سليم البخاري** مات وما له مصنفٌ رسالة فما فوقها، على جلالة قدره، وكثرة علمه، وقوة قلمه، وشدة بيانه؛ وسبب ذلك أنَّه صنَّف لأول عهده بالطلب رسالة صغيرة في المنطق، كتبها بلغة سهلة عذبة، تنفي عن هذا العلم تعقيد العبارة، وصعوبة الفهم، وعرضها على شيخه، فسخر منه وأنَّبه، وقال له: أيُّها المغرور! أبلغَ من قدرك أن تصنف، وأنت ... وأنت ... ثمَّ أخذ الرسالة فسجر بها المدفأة.. فكانت هي أول مصنفات العلَّامة البخاري

وآخرها! [1].

وقد وقع لي أنِّي كنت في المدرسة وكنت أحاول أن أنظم الشعر، فآخذ أبياتاً قديمة فأغير قوافيها، وأبدل كلماتها، وأدَّعيها لنفسي، كما يفعل اليوم بعض الأدباء «التراجمة» حين يترجمون الكلمة الإنكليزية أو الفرنسية حتى إذا بلغوا التوقيع ترجموه هو أيضاً، فكانت ترجمة اسم المؤلف أو الكاتب اسم الترجمان أو «السارق!» وكان الكتاب أو الفصل المترجم من وضع أديبنا البارع ...

كنت أنظم أبياتاً من الشعر أو أسرقها، كما ينظم كل مبتدئ ويسرق، حتى إذا اجتمع عندي كثير من القطع، عرضته على أستاذ العربية، وكان لسوء الحظ تركياً يسمَّى إسماعيل حقي أفندي، يعلمنا النحو العربي باللسان التركي! فلما قرأه سخر مني وسبني وتهكَّم عليَّ، وجاء من بعدُ

١- سبحان الله هذا خلاف سنة السلف، من تشجيع الصغار، والأخذ برأيهم، وفي «حلية الأولياء» (٣/٤١٧)، و «السنن الكبرى» البيهقي (١٠/١١٣)، و«المحدث الفاصل» (ص١٧٠)، والمثبت منه بسنده عن يوسف بن الماجشون قال: قال لي ابن شهاب الزهري، ولابن عم لي ولآخر معنا: «لا تستحقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم؛ فإنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا أعياه الأمر المعضل دعا الأحداث، فاستشارهم لحدة عقولهم» وأنشدنا أصحابنا البغداديون:

إنَّ الْحَدَاثَةَ لَا تَقْصُـ ـرُ بِالْفَتَى الْمَرْزُوقِ ذِهْنَا
لَكِنْ تُذَكِّي قَلْبَهُ فَيَفُوقُ أَكْبَرَ مِنْهُ سِنَّا



أخي أنور العطار - فنظم كما كنت أنظم حتى إذا اجتمع عنده كثير من القطع، عرضه على الأستاذ كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي، فأقام له حفلة تكريمية!.

فكانت النتيجة أنِّي عجزت عن الشعر، حتى لَنَقْلُ البحر بفمي أهون عليَّ من نظم خمسة أبيات، وأن أخي أنور العطار غدا شاعر الشباب السوري، وسيغدو شاعر شباب العرب!

وأول من سنَّ سنة التشجيع في بلدنا هو العلامة المرحوم مربي الجيل الشيخ طاهر الجزائري، الفيلسوف المؤرِّخ الجدلي، الذي من آثاره المدارس الابتدائية النظامية في الشام، والمكتبة الظاهرية، **والأستاذ محمد كرد علي بك، وخالي الأستاذ محب الدين الخطيب** ... ومما كتب في ذم التثبيط: «... وقد عجبت من أولئك الذين يسعون في تثبيط الهمم، في هذا الوقت الذي يتنبَّه فيه الغافل ...

وكان الأجدر بهم أن يشفقوا على أنفسهم ويشتغلوا بما يعود عليهم وعلى غيرهم بالنفع، ولم يُرَ أحد من المثبطين قديماً أو حديثاً أتى بأمر مهم، فينبغي للجرائد الكبيرة، أن تكثر من التنبيه على ضرر هذه العادة والتحذير منها، ليخلص منها من لم تستحكم فيه، وينتبه الناس لأربابها ليخلصوا من ضررهم».

وكان الشيخ في حياته يشجِّع كل عامل، ولا يَثني أحداً عن غاية صالحة، حتى لقد أخبرني أحد المقربين منه أنه قال له: إذا جاءك من يريد تعلم النحو في ثلاثة أيام، فلا تقل له إن هذا غير ممكن. فتفلَّ عزيمته، وتكسر همته، ولكن أقرئه وحبِّب إليه النحو، فلعله إذا أنس به واظب على قراءته.

ثمَّ إنَّ التشجيع يفتح الطريق للعبقريات المخبوءة حتى تظهر وتثمر ثمرها، وتؤتي أكلها؛ وربَّ ولد من أولاد الصنَّاع أو التجار يكون إذا شجع وأخذ بيده عالماً من أكابر العلماء، أو أديباً من أعاظم الأدباء!

وفي علماء القرن الماضي في الشام من ارتقى بالجد والدأب والتشجيع من منوال الحياكة، إلى منصب الإفتاء، وكرسي التدريس تحت القبَّة.

نشأ **الشيخ محمد إسماعيل الحائك** عامياً، ولكنَّه محب للعلم، محبٌ للعلماء، فكان يحضر مجالسهم، ويجلس في حلقهم للتبرك والسماع، وكان يواظب على الدرس لا يفوته الجلوس في الصف الأول، فجعل الشيخ يؤنسه ويلطف به لما يرى من دوامه وتبكيره، ويسأل عنه إذا غاب، فشدَّ ذلك عن عزمه، فاشترى الكتب يحيي ليله في مطالعة الدرس، ويستعين على ذلك بالناهين من الطلبة، واستمر على ذلك دهراً حتى أتقن علوم الآلة، وصار واحد زمانه في الفقه والأصول، وهو عاكف على مهنته

لم يتركها؛ وصار الناس يأتونه في محلِّه يسألونه عن مشكلات المسائل، وعويصات الوقائع، فيجيبهم بما يعجز عنه فحولة العلماء. وانقطع الناس عن المفتي من آل العمادي فساء ذلك العماديين وآلمهم، فتربَّصوا بالشيخ وأضمروا له الشرَّ، ولكنهم لم يجدوا إليه سبيلاً، فقد كان يَحيا من عمله، ويحيا النَّاس بعلمه، وكان يمر كل يوم بدار العماديين في «القيمرية» وهو على أتان له بيضاء، فيسلِّم فيردون عليه السلام، فمرَّ يوماً كما كان يمر، فوجد على الباب أخاً للمفتي، فردَّ عليه السلام، وقال له ساخراً: إلى أين يا شيخ، أذاهب أنت إلى (اسطمبول) لتأتي بولاية الإفتاء؟ وضحك وضحك من حوله، أما الشيخ فلم يزد على أن قال: إن شاء الله![1].

وسار في طريقه حتى إذا ابتعد عنهم دار في الأزقة حتى عاد إلى داره، فودع أهله، وأعطاهم نفقتهم، وسافر!

وما زال يفارق بلداً، ويستقبل بلداً، حتى دخل القسطنطينية فنزل في خان قريب من دار المشيخة، وكان يجلس على الباب يطالع في كتاب، أو يكتب في صحيفة، فيعرف النَّاس من زيِّه أنَّه عربي فيحترمونه ويجلُّونه، ولم يكن الترك قد جنُّوا الجنة الكبرى بعدُ ... فكانوا يعظمون العربي،

١- وقال ابن حزم في «الأخلاق والسير» (ص٦٣-٦٤) ط: ابن الجوزي. «لكل شيء فائدة، ولقد انتفعتُ بمحكِّ أهل الجهل منفعة عظيمة؛ وهي أنَّه توقّد طبعي، واحتدم خاطري، وحمي فكري، وتهيَّج نشاطي؛ فكان ذلك سبباً إلى تواليفَ لي عظيمة المنفعة، ولولا استثارتُهم ساكني، واقتداحهم كامني، ما انبعثت لتلك التواليف».

لأنَّه من أمِّة الرسول الأعظم الذي اهتدوا به، وصاروا به وبقومه ناساً ... واتصلت أسباب الشيخ بأسباب طائفة منهم فكانوا يجلسون إليه يحدثونه، فقال له يوماً رجل منهم: إنَّ السلطان سأل دار المشيخة عن قضية حيَّرت علماءها ولم يجدوا لها جواباً، والسلطان يستحثهم وهم حائرون، فهل لك في أن تراها لعلَّ الله يفتح عليك بالجواب؟

قال: نعم.

قال: سر معي إلى المشيخة.

قال: بسم الله.

ودخلوا على ناموس المشيخة (سكرتيرها)، فسأله الشيخ إسماعيل عن المسألة فرفع رأسه فقلَّب بصره فيه بازدراء، ولم تكن هيئة الشيخ بالتي ترضي، ثمَّ ألقاها إليه وانصرف إلى عمله، فأخرج الشيخ نظارته فوضعها على عينه فقرأ المسألة ثم أخرج من منطقته هذه الدواة النحاسية الطويلة التي كان يستعملها العلماء وطلبة العلم للكتابة وللدفاع عن النفس، فاستخرج منها قصبة فبراها، وأخذ المقطع فقطعها، وجلس يكتب الجواب بخط نسخي جميل حتى سوَّد عشر صفحات ما رجع في كلمة منها إلى كتاب، ودفعها إلى الناموس، ودفع إليه عنوان منزله وذهب. فلمَّا حملها الناموس إلى شيخ الإسلام وقرأها، كاد يقضي دهشة وسروراً.

وقال له: ويحك! من كتب هذا الجواب؟

قال: شيخ شامي من صفته كيت وكيت.

قال: عليَّ به.

فدعوه وجعلوا يعلمونه كيف يسلِّم على شيخ الإسلام، وأن عليه أن يشير بالتحية واضعاً يده على صدره، منحنياً، ثم يمشي متباطئاً حتى يقوم بين يديه ... إلى غير ذلك من هذه الأعمال الطويلة التي نسيها الشيخ، ولم يحفظ منها شيئاً.

ودخل على شيخ الإسلام، فقال له: السلام عليكم ورحمة الله، وذهب فجلس في أقرب المجالس إليه. وعجب الحاضرون من عمله ولكن شيخ الإسلام سرَّ بهذه التحية الإسلامية وأقبل عليه يسأله حتى قال له: سلني حاجتك؟

قال: إفتاء الشام وتدريس القبَّة.

قال: هما لك. فاغد عليَّ غداً!

فلمَّا كان من الغد ذهب إليه فأعطاه فرمان التولية وكيساً فيه ألف دينار.

وعاد الشيخ إلى دمشق فركب أتانه ودار حتى مرَّ بدار العماديين فإذا صاحبنا على الباب، فسخر منه كما سخر وقال: من أين يا شيخ؟

فقال الشيخ: من هنا، من اسطنبول. أتيت بتولية الإفتاء كما أمرتني.

ثمَّ ذهب إلى القصر فقابل الوالي بالفرمان، فركع له وسجد وسلَّم الشيخ عمله في حفلة حافلة.

ومن هذا الباب قصة الشيخ **علي كزبر**، وقد كان خياطاً في سوق المسكية على باب الجامع الأموي، فكان إذا فرغ من عمله ذهب فجلس في الحلقة التي تحت القبة فاستمع إلى الشيخ حتى يقوم فيلحق به فيخدمه، وكان الشيخ يعطف عليه لما يرى من خدمته إيَّاه، فيشجعه ويحثه على القراءة فقرأ ودأب على المطالعة، حتى صار يقرأ بين يدي الشيخ في الحلقة، ولبث على ذلك أمداً وهو لا يفارق دكَّانه ولا يدع عمله، حتى صار مقدماً في كافة العلوم.

فلما مات الشيخ حضر في الحلقة الوالي والأعيان والكبراء ليحضروا أول درس للمدرِّس الجديد، فافتقدوا المعيد فلم يجدوه. ففتشوا عليه فإذا هو في دكانه يخيط، فجاؤوا به، فقرأ الدرس وشرحه شرحاً أُعجب به الحاضرون وطربوا له. فعُينِّ مدرساً ولبث خمسة عشر عاماً يدرس تحت قبة النسر، وبقيت الخطبة في أحفاده إلى اليوم.

على **أنَّ للتشجيع عيباً واحداً هو الغرور**، فأنا أعوذ بالله أن أغتر فأصدِّق أني أهل لكل ما تفضل به عليَّ الأستاذ من النعوت، وأرجو أن أوفق إلى الجد والتقدم بتشجيع الأستاذ وفضله، وأشكر للأستاذ الزيات

باسمي واسم إخواني هنا، أياديه علينا وعلى الأدب العربي، الذي سمت وتسمو به «الرسالة»[1].



١- فكر ومباحث (ص١٢٨-١٣٥).

المشايخ الحسدة(1)

١- قال الإمام أحمد بن حنبل كما في «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/٢٥٩) «اعلموا رحمكم الله: أنَّ الرجل من أهل العلم إذا منحه الله شيئًا من العلم، وحُرِمَه قرناؤه وأشكاله حسدوه؛ فرموه بما ليس فيه. وبئست الخصلة في أهل العلم!».

وفي «تاريخ بغداد» (١٦/٤٩٣) قال يزيد بن هارون: لا ينبل أحد من أهل واسط بواسط؛ لأنَّهم حساد، قيل: ولا أنت يا أبا خالد؟ فقال: «ما عُرِفتُ حتَّى خرجت من واسط».

وفي «تاريخ بغداد» أيضًا (١٦/٢٨٢) قال أبو العباس أحمد بن يعقوب: كان يحيى بن أكثم يحسد حسدًا شديدًا، وكان مفتنًا، فكان إذا نظر إلى رجل يحفظ الفقه سأله عن الحديث، فإذا رآه يحفظ الحديث سأله عن النحو، فإذا رآه يعلم النحو سأله عن الكلام؛ ليقطعه ويخجله، فدخل إليه رجل من أهل خراسان ذكي حافظ فناظره فرآه مفتنا، فقال له: نظرت في الحديث؟ قال: نعم، قال: فما تحفظ من الأصول؟ قال: أحفظ: شريك، عن أبي إسحاق، عن الحارث، أنَّ عليًا رجم لوطيًا، فأمسك فلم يكلمه بشيء!!.

وقال ابن حزم في «الأخلاق والسير» (ص٩٧-٩٨). «من بديع ما يقع في الحسد: قول الحاسد إذا سمع إنساناً يُغربُ في علم ما: هذا شيء بارد لم يُتقدَّم إليه، ولا قاله قبله أحد».
فإن سمع من يبين ما قد قاله غيره قال: «هذا بارد وقد قيل قبله».
وهذه طائفة سوء قد نصبت أنفسها للقعود على طريق الْعِلْم يصدون الناس عنها ليكثر نظراؤهم من الجهال».

وقال ابن الجوزي في «صيد الخاطر» (ص٣٦): «تأملت التحاسد بين العلماء، فرأيت منشأه من حب الدنيا، فإن علماء الآخرة يتوادون، ولا يتحاسدون: كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ [الحشر:٩]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر:١٠].
وقد كان أبو الدرداء رضي الله عنه:«يدعو كل ليلة لجماعة من إخوانه».
وقال الإمام أحمد بن حنبل لولد الشافعي: «أبوك من الستة الذين أدعو لهم كل ليلة وقت السحر».
والأمر الفارق بين الفئتين: أن علماء الدنيا ينظرون إلى الرئاسة فيها، ويحبون كثرة الجمع والثناء، وعلماء الآخرة بمعزل من إيثار ذلك، وقد كان يتخوفونه، ويرحمون من بلي به».
وانظر: ما حصل بين البويطي وحسد ابن عبد الحكم في «السير» (١٢/٦٠-٦١)، وما



والشيخ إن كان حسودًا كان ذلك طامة كبرى، وذلك لأنَّه يخالف ما يدعو إليه، ولأنه ينبغي له أن يصلح لا أن يفسد، ومن الأمثلة عل ذلك ما أورده الأستاذ محمد كرد علي رحمه الله قائلًا: لما ضعف العلم الإسلامي حاولت بعض الأسر القديمة –التي استحل أبناؤها الاستئثار بالمدارس والأوقاف والوظائف الدينية بدون أن يكون لهم شيء من العلم– أن تبقى هذه المغانم والمظاهر وقفًا أبديًا على [مدى] الدهر.

وفكروا في أسهل حيلةٍ تُديم عليهم نعمتهم، فكان منها منع الشبان من التعلم ليكون القضاء والإفتاء وأعمال التدريس والوعظ والخطابة والإمامة حُكرةً لهم ولإعقابهم من بعدهم، وممَّن دأبوا على هذه الدعاية شيخان من دمشق، كان يعزُّ عليهما أن يتعلم إنسان، وما كان عيشهما يطيب إلا صدًّا للطلبة عن العلم.

وكان الشيخ طاهر الجزائري يكرههما كراهة عظيمة، وسألته ذات يوم عن سبب كراهته لهما، وعمَّا حدث بينه وبينهما فأدى إلى هذا العداء العظيم، فقال: إنهما ما زالا يحولان بين الناشئة وبين التعلم، وبعملهما انقطع أربعون شابًا عن طلب العلم، فقلت له: هذا حقٌّ وقد حاول أحدهما أن ينصح لوالدي، وأنا في أول نشأتي، ليخرجني من حظيرة

حصل بين الإمام البخاري والذهلي في «السير» (١٢/٤٥٣). وانظر: في علاج الحسد «التبيان» للنووي (ص٧٠)، و«تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة (ص٥٥).

الدرس إلى التجارة، وقال أنا أسمع: وهل ترانا نحن العلماء في حالة حسنة، وإنْ أحدنا ليطلب العلم ثلاثين سنة، وغايةُ ما يحصل عليه راتبٌ ضئيل في إحدى المدارس، أو إمامة في أحد الجوامع، قد لا يتجاوز راتبها المئة والخمسين قرشًا، فإن كنت تريدُ الخير لبيتك، فاقطع ابنك عمَّا شُغلنا به قبله أعوامًا، وما عاد علينا بغنى ولا رفاهيةً.

وكان شيخنا يقول: لولا أن شُغل كلا الأخوين أحدهما بالآخر للاختلاف بينهما في قضية، وكان الواحد يتغيب سنة في الآستانة لملاحقة دعواه، ويعود في السنة التالية إلى بلده، فيسافر أخوه فيتذرع بمثل ما تذرع به شقيقه؛ وظلاّ على ذلك طول العمر، وماتا ولم يُبثّ في تلك الدعوة المباركة، لولا أن شُغلا بأنفسهما لنزل الناس منهما شر كثير.



وكبرتُ وصرتُ أكتب في الصحف، وأصبح لي أصدقاء وأعداء، وكان ذاك الشيخ الذي سوَّلت له نفسه أن يمنعني من ورود حياضِ العلمِ، يوم كنت طالبًا صغيرًا، ينظر إليَّ نظر من آمن لمن كفر، وأنا وكثير من أهل البلد نعرف مبلغه من الدين والأخلاق[1].

١- والسلف على خلاف ذلك، والأمثلة في ذلك كثيرة ففي «السير» (٤/٥٠٨) عن ابن شهاب، عن القاسم بن محمد: أنَّه قال لي: يا غلام، أراك تحرص على طلب العلم، أفلا أدلك على وعائه؟

قلت: بلى.

قال: عليك بعمرة، فإنها كانت في حجر عائشة.

قال: «فأتيتها، فوجدتها بحرا لا ينزف».

وقال: نبغ في القرن الماضي في دمشق رجل من أولاد التجار، طلب العلم وظهر نبوغه فيه، ومالت نفسه إلى التأليف أواخر العقد الثاني من عمره، فبلغ شيخه ما يحاوله فقرَّعه على جرأته، فلم يعبأ بتقريعه، ودام على ما أخذ من نفسه، فجاء منه فقيه عُدَّ من أعظم فقهاء الملة وهو لم يبلغ سنة الكهولة، عنيت العلامة السيد محمد عابدين صاحب الحاشية، وعليها المعول في الفتيا في بعص بلاد الإسلام اليوم(١).

ونشأ في النصف الثاني من القرن الثالث عشر في دمشق أيضًا رجل درس العلوم الإسلاميَّة، وزاد عليها شيئًا من العلوم العصرية، وبدا له أن يؤلف، فألف رسالة وهو في الثامنة عشرة، وعرض ما ألف على شيخه فغضب وقال هازئًا به: «لم يبقَ إلا أنت حتى يؤلف». فانقطع الطالب وقطَّع ما ألفه، وبقي ممتنعًا عن التأليف إلى اخر حياته لم يكتب فيه إلا ما لا بال له، وهذا هو الأستاذ سليم البخاري، وكان رفيقه الأستاذ الشيخ طاهر الجزائري يقول: إن انقطاع الأستاذ البخاري عن التأليف خسارة، ولو اطرد عمله لكان مؤلفًا ينتفع به(٢).

قلت: وبمثل هذه تكلم ابن جماعة رحمه الله فقال —في حديثه عن أدب

١- المذاكرات (١/٢٧-٢٨)، وعنه «حال بلاد الشام في أوائل القرن الرابع عشر الهجري» (ص٨٩-٩١).

٢- المذاكرات (١/٢٧-٢٨)، وعنه «حال بلاد الشام في أوائل القرن الرابع عشر الهجري» (ص٩١-٩٢).

العالم-: الاشتغال بالتصنيف والجمع والتأليف، لكن مع تمام الفضيلة، وكمال الأهلية، فإنَّه يطلع على حقائق الفنون ودقائق العلوم للاحتياج إلى كثرة التفتيش والمطالعة والتنقيب والمراجعة وهو كما قال الخطيب البغدادي: يثبت الحفظ، ويذكي القلب، ويشحذ الطبع، ويجيد البيان ويكسب جميل الذكر، وجزيل الأجر ويخلده إلى آخر الدهر.

ثمَّ قال: لا يُخرج تصنيفه من يده قبل تهذيبه وتكرير النظر فيه وترتيبه، ومن الناس من ينكر التصنيف والتأليف في هذا الزمان على من ظهرت أهليته وعرفت معرفته، ولا وجه لهذا الإنكار إلا التنافس بين أهل الأعصار وإلا فمن إذا تصرف في مداده وورقه بكتابة ما شاء من أشعار وحكايات مباحة أو غير ذلك لا يُنكر عليه، فلمَ إذا تصرف فيه بتسويد ما ينتفع به من علوم الشريعة يُنكر ويُستهجن[١].

فتأمل قوله: (**ولا وجه لهذا الإنكار إلا التنافس بين أهل الأعصار**) لتعلم أنَّ الحسد من أخطر الأدواء، وأشد الأمراض فتكًا إلا من عصمه الله، وأنَّ الحسد يمنع من النهوض والنبوغ، وأنه يطمس المحاسن، ويظهر المساوئ.

١- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم (ص٥٩-٦٠).

شباب عباقرة

إذا قلبنا صفحات التاريخ، دلتنا على رجال ظهرت عبقريتهم وكفايتهم للقيام بأعمال جليلة، وهم في أوائل عهد شبيبتهم.

نقرأ في السيرة النبوية: أنَّ النبي ﷺ **ولّى عتاب بن أسيد** مكة وقضاءها، وهو في سن الحادية والعشرين.

- **وولّى معاذ بن جبل** رضي الله عنه **على اليمن** وهو دون سن العشرين.
- **وولّى أسامة بن زيد إمارة جيش** فيه الشيخان أبو بكر وعمر، وسِن أسامة يومئذ تسع عشر سنة.
- **وولّى عمر بن الخطاب** رضي الله عنه **كعبَ بن صور قضاء البصرة** وهو في سن العشرين.
- **وكان يدعو ابن عباس** رضي الله عنه **في المعضلات**، ويجلسه بين الأشياخ، وهو دون سن العشرين.
- **وقلّد عثمان** رضي الله عنه **عبد الله بن عامر ولاية البصرة**، وهو ابن خمس وعشرين سنة، قاد الجيوش، وفتح ما بقي من بلاد الفرس، حتى انقرضت على يده الدولة الساسانية.
- **وولّى الحجاج محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم الثقفي قيادة جيش أخمد ثورة في الفرس**، وقيادة جيش افتتح السند، وكان عمر هذا



القائد سبع عشرة سنة، حتى قال فيه بعضهم:

قاد الجيوش لسبع عشرة حجَّة يا قربَ ذلك سؤدداً من مولدِ

وظهر نبوغ مخلد بن يزيد المهلبي في أوائل عهد شبابه، وفيه يقول حمزة بن بيض الحنفي:

بلغت لعشر مضت من سنيـ ـك ما يبلغ السيد الأشيب

فهمّك فيها جسام الأمور وهمُّ لداتك أن يلعبوا

وكان مخلد هذا والياً على جرجان، وتوفي في عهد عمر بن عبد العزيز، وهو ابن سبع وعشرين سنة، وقال عمر بن العزيز: اليوم مات فتى العرب، وأنشد متمثلاً:

على مثل عمرٍ تذهب النفس حسرةً وتضحي وجوه القوم مغبّرةً سودًا

وولى المأمون يحيى بن الأكثم قضاء بغداد وهو في سن الحادية والعشرين.

وتولى أبو شجاع بن نظام الدين الوزارة للمسترشد، وسنه دون العشرين، ولم يل الوزارة أصغر منه.

وإذا انتقلنا إلى النظر في شباب الملوك، وجدنا رجالاً تقلدوا الملك في سن العشرين، أو فيما دونه، أو فيما يزيد عليه بقليل، وأخص حديثي وما

أسوقه من الأمثال بمن تولوا الملك في عهد الشباب، وظهرت لهم آثار تدل على كفايتهم للقيام بأعباء الملك.

❑ **وأضع في أول سلسلة هؤلاء الشباب من الملوك**: الخليفة هارون الرشيد، فإنه تولى الخلافة وهو في سن الحادية أو الثانية والعشرين، وماذا أقول في هارون الرشيد، وصحف التاريخ مملوءة بمآثره الحميدة، وبما بلغه الإِسلام في عهده من العزة والعظمة؟ وإذا لم يكن بدّ من ذكر خصلة من خصاله الزاهرة، فإنه كان يدع القضاء يتمتع بحريته الكاملة، ومما حدثنا به التاريخ: أن يهودياً كان قد رفع عليه قضية لدى القاضي أبي يوسف، وحكم القاضي لليهودي، وكان هارون في المجلس، فبادر إلى تنفيذ ما حكم به القاضي.

❑ **ومن عظماء شباب الملوك**: ملك شاه بن ألب أرسلان الملقب بالسلطان العادل، تولّى الملك وهو في سن التاسعة عشرة، أو العشرين، وقد ملك من كاشغر "أقصى مدينة في بلاد الترك" إلى بيت المقدس، وكان مغرماً بالعمران، لهجاً بالصيد، مظفرًا في الحروب، وكانت السبل في أيامه آمنة: تسافر القوافل أو الأفراد مما وراء النهر إلى أقصى الشام من غير خوف ولا رهبة، وأصدق شاهد على إخلاصه في سياسة الأمة: أنه خرج لقتال أخيه أبي سعيد بن ألب أرسلان، واجتاز بمشهد الإمام

علي الرضا، فقال في دعائه: «اللهم انصر أصلحَنا للمسلمين، وأنفعَنا للرعية».

❑**ومن عظمائهم**: محمد بن ملك شاه، فقد تولى السلطنة وهو في سن العشرين، وسار سيرة حسنة، وكانت له الآثار الجميلة من العدل الشامل، والبرّ بالفقراء والأيتام، وكان ساهرًا على أن تكون عقيدة الأمة سليمة، يخشى أن يدخلها الإلحاد، فتتزعزع قوتها المعنوية، وما تفشّى الإلحاد والإباحية في قوم إلا قلت الرجولة من نفوسهم، وركب العدو أعناقهم.

❑**ومن عظمائهم**: محمود بن محمد بن ملك شاه؛ فقد تولى السلطنة في خلافة المستظهر بالله، وخطب له في بغداد وهو في سن الحلم، وكان هذا السلطان متوقدًا ذكاء، قوياً في العربية، عارفًا بالتواريخ، شديد الميل إلى أهل العلم والفضل، وهو الذي مدحه الشاعر حيص بيص بقصيدته التي يقول فيها:

يا ساري الليل لا جدب ولا فرق ... فالنبت أغيد والسلطان محمود
قيلٌ تألفت الأضداد خيفته ... فالمورد الضنك فيه الشاء السيد

❑**ومن عظمائهم**: فنا خسرو عضد الدولة بن بويه، فقد ولّي سلطنة فارس وعمره خمس عشرة سنة، واستولى على العراق والجزيرة، وهو أول

من خوطب بالملك في الإِسلام، وكان شهمًا حازماً متيقظًا، محبًا لأهل الفضل، وقصده فحول الشعراء ومدحوه بأحسن المدائح، ومن هؤلاء الشعراء المتنبي، ومما قال فيه:

ومن أَعتاضُ عنك إذا افترقنا ... وكل الناس زور ما خلاكا

ومنهم: محمد بن عبد الله السلامي، وهو الذي يقول فيه:

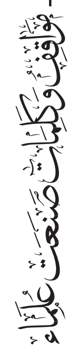
وبشرف آمالي بملك هو الورى ... ودار هي الدنيا ويوم هو الدهر

من عظماء شباب الملوك في الشام أو مصر: أبو الفتح غازي بن السلطان صلاح الدين المعروف بالملك الظاهر، فقد سلم إليه والده مملكة حلب وسنه أربع عشرة سنة، وكان ملكاً حازماً عالي الهمة، حسن السياسة، كثير الاطلاع على حال الرعية وأخبار الملوك، باسطاً للعدل، مجّلاً للعلماء، مجيزاً للشعراء، ورثاه راجح بن إسماعيل الحلبي بقصيدة بديعة يقول في طالعها:

سل الخطب إن أصغى إلى من يخاطبه ... بمن علقت أنيابه ومخالبه

ثم يقول:

أيا تاركي ألقى العدو مسالماً ... متى ساءني بالجد قمت ألاعبهْ



❑ **ومن شباب ملوك مصر**: خمارويه بن أحمد بن طولون؛ فقد تولى ملك مصر وهو ابن عشرين سنة، وكان هذا الملك يمثل الثبات ومقارعة الخطوب؛ فقد أصابه في أوائل ولايته ما يكسر العزم، ولكنه ما زال ينهض حتى ثبت لقتال الخارجين عن طاعته، ووصل أصحابه إلى (سر من رأى) بالعراق، وعظم أمره، واستولت الهيبة منه على القلوب. وإذا نزل بقدره شيء، فهو أنه كان ينفق الأموال الطائلة في الملاهي والزينة. كما فعل في تجهيز ابنته (قطر الندى).

❑ **وممن يذكر في هذا القبيل**: علي بن الحاكم العبيدي، الملقب بالظاهر، فقد تولى ملك مصر وعمره ست عشرة سنة، وكان على خصال حميدة من نحو: السخاء والحلم والتواضع، والعدل في الرعية، والنظر في إصلاح البلاد، وكان لا يدّعي ما كان يدّعيه والده وجدّه من المزاعم، وله كتاب يتبرأ فيه من الغلاة فيه، وفي آبائه.

❑ **ومن هؤلاء العظماء**: المظفّر موسى بن الملك العادل، فقد ملكه والده مدينة "الرها" وهو في سن العشرين، واتسع ملكه بعد، وكان سلطاناً واسع الصدر، كريم الأخلاق، ويقول المؤرخون: إنه أحسن إلى الناس إحساناً لم يعهدوه ممن كان قبله، فكان محبوباً إلى الناس، مؤيداً في الحروب، ومن شعرائه أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن النبيه،

ويعجبني من مديحه له قوله:

قام بالدنيا وبالأخرى معاً فهي ضرات به قد رضيت

حسن الظاهر للناس ولد ه منه حسنات خفيت

❑ **ومن عظماء شباب الملوك في تونس:** أحمد بن محمد بن الأغلب، فقد ولي الملك بالقيروان وهو في سن العشرين، وكان حسن السيرة، رفيقاً بالرعية، كثير الصدقات، وكان مولعاً بالعمارة، فبنى بأفريقية حصوناً كثيرة الحجارة والكلس وأبواب الحديد.

❑ **ومن هؤلاء العظماء:** باديس بن المنصور، فقد تولى الملك بالقيروان وعمره إحدى عشرة سنة، وكان ملكاً كبيراً، حازم الرأي، شديد البأس، وأذكر من مآثره: أن الفقيه الزاهد محرز بن خلف بعث إليه بكتاب يعظه فيه، ويطلب رفع مظلمة وقعت على أحد تلاميذه، ومما يقوله في الكتاب: «لا يغرنك توالي زخارف الدنيا عليك، وشاور في أمرك من يتقي الله، وخف من لا يحتاج إلى عون عليك، أنت على رحيل، فخذ الزاد». ولما وصل الكتاب إلى باديس، أصدر أمراً بتحرير طلبة العلم كافة، ورفع المظالم عنهم جملة.

❑ **ومن هؤلاء العظماء**: المعزِّ معد بن منصور العبيدي، تولى الملك وهو في الثانية والعشرين من العمر، وثبّت دعائم دولتهم بالمغرب، ثم أسس الدولة العبيدية بمصر، وكان عاقلاً حازماً أديباً.

❑**ومنهم**: المعزّ بن باديس؛ فقد تولى الملك وهو في السنة الثامنة من العمر، وكان ملكاً جليلًا، عالي الهمة، حريصاً على تنفيذ أحكام الشريعة الغراء، واجتمع بحضرته من أفاضل الشعراء ما لم يجتمع إلا بباب الصاحب ابن عباد.

❑**ويدخل في صف هؤلاء**: المستنصر باللهِ محمد بن زكريا؛ فقد تقلّد الملك في تونس وعمره عشرون سنة، فنهض بأعباء الملك، وعلا صيته، وأبقى آثاراً علمية وأدبية وعمرانية أبقت له ذكراً جميلاً، وهو الذي قدم عليه حازم القرطاجني من الأندلس، فأكرم نزله، ومدحه بقصيدته الطائية المعروفة، وقصيدته الرائية التي يقول في نسيبها:

ولا تعجبوا يوماً لكسر جفونها ... فإن إناء الخمر في الشرع يُكسَرُ

ويقول في حال الأعداء:

وقد شابه الأعداء جمعاً مؤنثاً ... لذاك غدت في حالة الفتح تُكسَرُ

❑**ومن عظماء شباب السلاطين بالمغرب الأقصى**: إدريس بن إدريس الحسني؛ فقد أخذت له البيعة بالمغرب الأقصى وعمره إحدى عشرة سنة، فقد نشأ في كفالة مولى أبيه راشد، فأقرأه القرآن الكريم، وعلمه السنّة، وروّاه الشعر وأمثال العرب، وأطلعه على سير الملوك، ودربه على ركوب الخيل، والرمي بالسهام، فلم يصل إلى السنة الحادية عشرة حتى ترشح للأمر، واستحق أن يبايع، وظهر من ذكائه ونبله ما أذهل العامة والخاصة.

صعد المنبر يوم بيعته وخطب، ومما قال في خطبته: «أيها الناس! إنا قد ولّينا هذا الأمر الذي يضاعف للمحسن فيه الثواب، وللمسيء الوزر، ونحن - والحمد لله- على قصد جميل، فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا، فإن ما تطلبونه من إقامة الحق إنما تجدونه عندنا»، وكان عاملاً بكتاب الله، قائماً بحدوده، وبذلك استقام له الملك، وعظم أمره.

❑**ومن هؤلاء العظماء**: علي بن محمد بن إدريس، أخذت له البيعة بعد وفاة أبيه، وكان يوم بويع في سن العاشرة من العمر، فظهر ذكاؤه ونبله، وسار بسيرة أبيه وجده في العدل، وإقامة الحق، وقمع الأعداء، وضبط البلاد والثغور، ويقول المؤرخون: كانت أيامه خير أيام.

ومن هؤلاء العظماء: علي بن يوسف بن تاشفين، بويع وعمره ثلاث وعشرون سنة، وكان حليماً عادلاً وقوراً، آخذاً بالحزم، فضبط الثغور، وملك من البلاد ما لم يملكه أبوه من قبله.

ومن عظماء شباب الملوك بالأندلس: عبد الرحمن الناصر، تولى الملك غير متجاوز الثانية والعشرين من عمره، درس عبد الرحمن القرآن والسنّة، وأجاد النحو والتاريخ، وبرع في فنون الحرب والفروسية، وزهت في عصره العلوم والزراعة والصناعة، وساد الأمن في البلاد، وكان للعلماء في عصره الحرية المطلقة، يواجهونه بالأمر بالمعروف، ويتلقى منهم ذلك بصدر رحب. ومواقف منذر بن سعيد في نصحه له معروفة في التاريخ، وهو الذي خطب على المنبر في بعض المجالس الحافلة منكراً عليه الإسراف في تشييد المباني وزخرفتها، وهو الذي خاطبه في أحد المجالس بقوله:

يا باني الزهراء مستغرقاً أوقاته فيها أما تمهل

لله ما أحسنها رونقاً لو لم تكن زهرتها تذبل

وكان القضاء في عهده على استقلال لا يخشون معه لومة لائم، وكان القاضي ابن بشير يحكم عليه لخصمه، ويتوعده بالاستقالة إذا لم يمتثل ما حكم به عليه.

ومن هؤلاء العظماء: أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل بن فرج أحد ملوك غرناطة، تولى الملك وهو في السادسة من العمر، وكان الغالب على أيامه الهدنة والصلاح والخير، وكان وزيره الأديب الكبير أبو الحسن بن الجياب، ثم توزر له لسان الدين بن الخطيب.

ومن هؤلاء العظماء: ابنه محمد بن يوسف بن إسماعيل، بويع له بعد وفاة أبيه يوسف وعمره تسع سنين، وكان وزيره لسان الدين بن الخطيب بعد أن توزر لأبيه من قبله، ووصفه ابن الخطيب فقال: متحلٍّ بوقار وسكينة، وسافر عن وسامة يكتنفها جلباب حياء وحشمة، كثير الأناة، ظاهر الشفقة، عطوف، مخفوض الجناح، مائل إلى الخير بفضل السجية، فأنست العامة بقربه، وسكنت الخاصة إلى طيب نفسه، وحمد الناس فضل عفافه، وكلفه بما يعنيه من أمره، وكان مع هذه المزايا مثلاً في الفروسية، قال بعض مادحيه:

إن ألمتْ هيعةٌ طا ... ر إليها غير وانِ
يصدع الليل بقلبٍ ... ليس بالقلب الجبان

وأختم حديثي هذا بحديث ملوك تقلدوا في أوائل شبابهم ولايات كانوا فيها مظهر اليقظة والحزم، وتولوا الملك بعده، فساروا فيه سيرة عبقري زادته التجارب خبرة بطرق السياسة الرشيدة.

ومن هؤلاء الملوك: هشام بن عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية بالأندلس؛ فقد كان والده عبد الرحمن يوليه في صباه الأعمال، ويرشحه لولاية الملك، ولما توفي عبد الرحمن، تولى هشام الخلافة وعمره ثلاثون سنة، وكان يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

ويدخل في نظم هؤلاء الملوك: عبد الرحمن بن الحكم الأموي، وكان أبوه الحكم يوليه قيادة الجيوش العظيمة في الأندلس وهو ابن خمس عشرة سنة، فيهزم الأعداء، ويعود ظافراً.

وأذكر من هذا القبيل: **تميم بن المعزّ بن باديس**، فوض إليه والده المعزّ ولاية "المهدية" وهو في سن الثالثة والعشرين، وتولى الملك بعده وهو في سن الثانية والثلاثين، وكان حسن السيرة، محمود الآثار، معظمًا لأرباب الفضائل، وقصدته الشعراء من الآفاق، وكان هو نفسه معدوداً من طبقات الأدباء. ومن شعره:

فإما الملك في شرف وعزٍّ   عليّ التاج في أعلى السرير
وأما الموت بين ظبا العوالي   فلست بخالد أبد الدهور

والغرض من حديثنا عن أولئك الشباب الذين تولوا أموراً جليلة القدر، عظيمة الشأن، فقاموا بأعبائها خير قيام: أن نستنهض همم أبنائنا للأخذ بأسباب قوة الفكر، وسعة الدراية لأول عهد التمييز، ولمواصلة السير

في سبيل السيادة بجد وحزم؛ لكي نراهم وهم في ريعان الشباب قد بلغوا بجودة النظر، واستقامة السيرة أن كانوا موضع آمال الأمة، يعملون لسلامتها، والاحتفاظ بعزتها.

وواجب على ولي أمر الناشئ أن يشعره بأن بلوغ الفتى المنزلة المحمودة في السيادة وهو في مقتبل العمر، ليس بالأمر المتعذر أو المتعسر، وليس من شك في أن هذا الشعور يريه السيادة قريبة التناول، فيشمر عن ساعد الجد، وسرعان ما يبلغ ذروتها، ومن أدرك السيادة في عنفوان شبابه، فإن مات، مات سيداً، وإن عاش إلى زمن الكهولة أو الشيخوخة، كانت سيادته أطول عماداً، وأرفع ذكراً، وأطيب ثمراً[١].

وبعد هذه التراجم الحافلة، نجدُّ أنَّ المسلم ينبغي عليه أن يمثل قول النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت». وهذه العبارة النبوية جامعة للخير، يجدر بالمسلم أن يقف عندها متأملًا، فالصمت في حينه خير، والكلام في حينه خير، ولا خير فيمن جعل الأشياء بغير مواطنها.

فالله أسأل أن يجعلنا مفاتيح للخير مغاليق للشر، وأن ينفعنا بما كتبنا، ويبارك لنا فيما أعطانا ووهبنا. وأن يجد فيه القارئ النفع

١- مقتبس من مقال للشيخ محمد الخضر من مجموع آثاره (١٤٨/٢-١٥٨).

والفائدة.

وا حسرَتاهُ تقضَّى العمرُ وانصرمتْ ساعاتُهُ بينَ ذُلِّ العجزِ والكَسلِ
والنَّاسُ قد أخذوا دربَ النَّجاة وقدْ سارُوا إلى المطلبِ الأعلى على مَهلِ

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.





مواقف وكلمات صنعت علماء

تأليف

أبي إسحاق محمود بن أحمد الزويد

دار الكتاب العالمي



